دوستويفسكي

عمال
لأدبية
ل
١

الفقراء. المِثل
قلب ضعيف

ترجمة: الدكتور سامي الدروبي

اهداءات ٢٠٠٣
أسره المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيونى
الإسكندرية

أعمال دوستويفسكى الأدبية

١

ترجمة

الدكتور سامى الدروبى

- الفقراء
- المثل
- قلب ضعيف

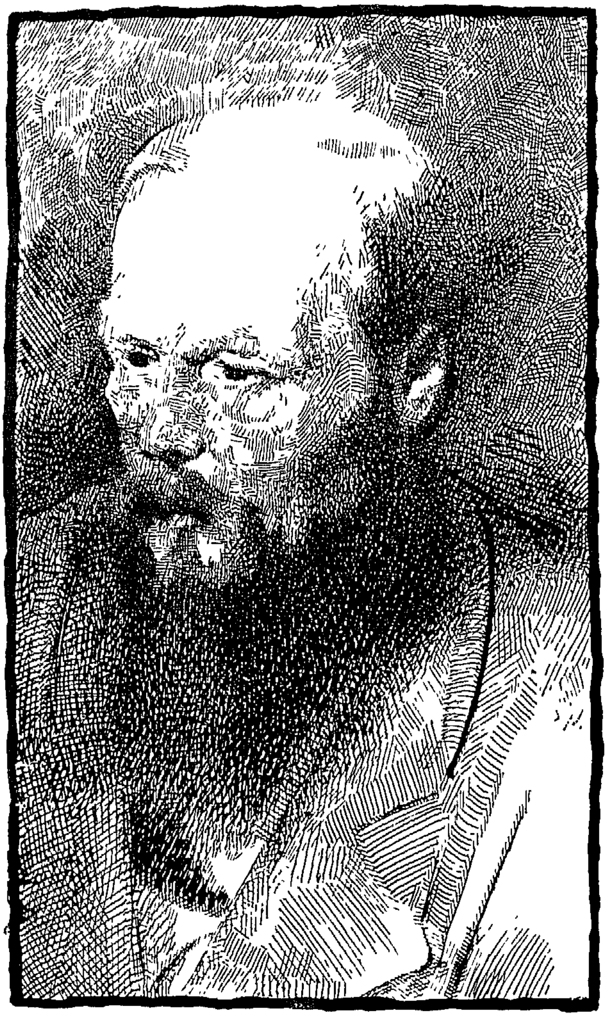

دوستویفسکی

مقدمة الطبعة العربية

لأعمال دوستويفسكى الأدبية الكاملة

بنشر اعمال دوستويفسكى الأدبية الكاملة ، تفتتح دار الكاتب العربى عهدا جديدا فى تاريخ النشر باللغة العربية · ان بين خالقى التراث الانسانى قمما يجب ان تنقل آثارها الى اللغة العربية كاملة ، وأن تنقل نقلا يتصف بالأمانه والدقة مثلما يتصف بنصاعة البيان ونقاء الأداء ، لتجىء الترجمة صورة تمثل الأصل تمثيلا صادقا ، ولتكون بذلك ترجمة أخيرة اليها يرجع وعليها يعتمد ، فلا حاجة بعد ذلك الى اعادة ترجمتها ، كلها أو بعضها ، مرة بعد مرة ، فى هذا القطر أو ذاك من اقطار الأمة العربية · واذا كانت الترجمة المثلى هى التى تنقل عن لغة الكاتب رأسا بغير وسيط من لغة أخرى ، فليس بين أصحاب الاقلام فى الوطن العربى الآن من يملك ناصية اللغة الروسية الى الحد الذى يكفل نقل عيون آثار الفكر الروسى عن اللغة الروسية بلسان عربى مبين ، فكان لابد من لغة أخرى يتم النقل عنها وسيطا بيننا وبين تلك اللغة · وكانت اللغة الفرنسية هى ذلك الوسيط الذى اعتمده المترجم فى نقل اعمال دوستويفسكى الأدبية التى نقدمها الآن · ونحن نحسب مع ذلك أن الترجمة العربية تملك من مزيتى كمال الأمانة وجمال البيان ما يجعلها خليقة بان تعد نهائية ، ونحسب ان الكاتب العربى الذى سيجىء فى المستقبل مؤهلا باتقان اللغتين الروسية والعربية لنقل امهات كتب الأدب الروسى سيشعر حين يضاهى بين هذه الترجمة وبين الأصل الروسى ، أنه ليس عليه أن يعيد الترجمة ، وأنه لا يحتاج الى أكثر من تنقيحات يسيرة يجرى بها قلمه على كلمة هنا أو جملة هناك · ذلك أن الترجمة التى نقدمها الآن قد كان الوسيط بين صاحبها وبين الأصل الروسى ترجمات فرنسية اختارها الكسندروف سولوفييف ، وتمت مراجعتها على الأصل الروسى فى الطبعة الروسية التى ظهرت سنة ١٨٨٩ فى اثنى عشر مجلدا ، وفى الطبعة

السوفياتية التى ظهرت بين ١٩٥٦ و ١٩٥٨ فى عشر مجلدات ، وتم تنقيحها وتصحيحها على ماتقتضيه الأمانة والدقة والمقدرة التى يتصف بها استاذ من كبار أساتذة الأدب الروسى فى العالم ، مثل سولوفييف ، الاستاذ بجامعة جنيف ، متعاونا فى هذا العمل مع عالم من أبرز علماء الأدب والنقد هو جورج هالداس . ولقد ظهرت الترجمة الفرنسية فى ستة عشر مجلدا عن دار النشر السويسرية (Rencontres) ، مصدرة بنبذة عن حياة دوستويفسكى اعتمدها المترجم ولكنه لم يقتصر عليها ولا تقيد بها كاملة ، وكذلك فيما يتصل بالمقدمات التى تمهد لكل عمل من الأعمال فى صدر كل مجلد . وقد رأى سولوفييف ان يتقيد بالطبعة السوفياتية التى صدرت فى عامى ١٩٥٦ — ١٩٥٨ ، فاقتصرت طبعته الفرنسية على « الأعمال الأدبية » ، لذلك لم ينشر من « يوميات كاتب » ، وهى مجموعة شتى من المقالات والكتابات ، الا ما هو أدب ، الا ما هو حكايات وأقاصيص ، مثل «بوبوك» و «الفلاح مارى» وغيرهما ، وكذلك لم ينشر « الدفاتر » التى تتضمن ما كان يخطه قلم دوستويفسكى اعدادا لكتابة أعماله المختلفة ، ولا نشر رسائل دوستويفسكى . ولكن المجلد التاسع عشر من الطبعة العربية التى ستنشرها دار « الكاتب العربى » تباعا ، سيشتمل على مختارات من رسائل دوستويفسكى ، وانما جاء الحرص على نشر مختارات من هذه الرسائل ، لما لها من قيمة أدبية أولا ، ولأنها تلقى أضواء على مؤلفات دوستويفسكى ثانيا ، ولأنها بعد هذا وذاك تسجل أطرافا من حياة دوستويفسكى الحافلة وترسم صورة لشخصيته الفنية ، وترتبط بأعماله أنواعا من الارتباط على كل حال .

وتتسلسل أعمال دوستويفسكى الأدبية فى مجلدات هذه الطبعة العربية تسلسل ظهورها فى الزمان ، الا فى مواضع قليلة من المجلدات الأولى ، وذلك تغيير طفيف فى التسلسل الزمنى أملته ضرورة اخراج المجلدات فى حجوم متساوية ما أمكن التساوى . غير أن تاريخ ظهور كل عمل من أعمال دوستويفسكى مذكور تحت كل عنوان . فبذلك يتاح يتاح للقارىء أن يتتبع مراحل النمو والنضج فى شخصية دوستويفسكى ابتداء من أولى مبدعات شبابه « الفقراء » (١٨٤٦) وانتهاء بروايته الكبرى الأخيرة التى هى قمة انتاجه عمقا وقوة وكمالا : « الأخوة كارامازوف » .

دار الكاتب العربى

حياة دوستويفسكى

١٨٢١ - ١٨٨١

ولد فيدور ميخائيلوفتش دوستويفسكى بموسكو فى ٣٠ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٨٢١ ، ومات بسان بطرسبرج فى ٢٨ كانون الثانى (يناير) سنة ١٨٨١ . ولعل الظروف التى رأى فيها النور جديرة بأن تعد رمزا . فلقد جاء الى هذا العالم فى مسكن صغير بمستشفى مريم الذى كان أبوه يعمل فيه طبيبا ، فكأن القدر قد أراد له منذ خطا فى الحياة أولى خطواته أن يكون مكانه بين الفقراء والمرضى والمعذبين . لقد فتح عينيه على عالم لا فرح فيه ولا بهجة ، فى جو تملؤه رائحة الأدوية ، بين أرجاء يسير فيها البشر عرجا أو كتعا أو عورا .. أو يرقدون على أسرة حجراتها البائسة مهزولين مصدورين .. وكانت أمه امرأة حزينة قلقة متطيرة تضنيها الهواجس وترهقها فئول الشؤم . وكان أبوه امرءا

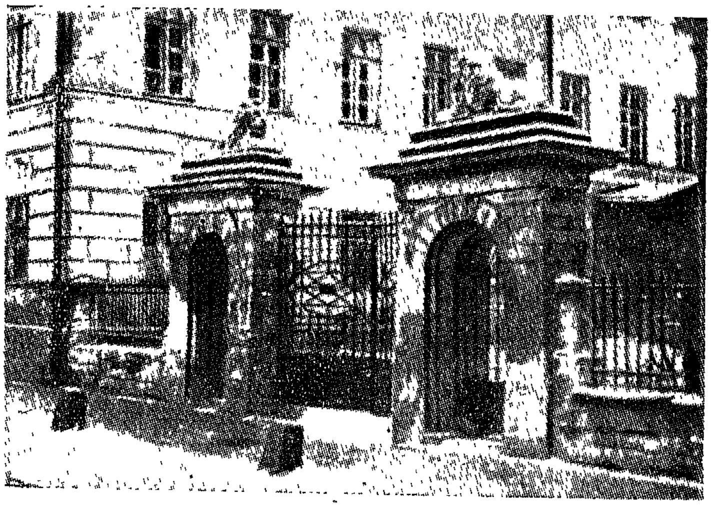

المستشفى الذى ولد فيه دوستويفسكى بموسكو

مستبدا طاغية جهم المزاج ، شرس الطبع ، قاسيا خاشنا ، بخيلا شحيحا ، يفرض سلطانه على من فى المنزل باللسان السليط والقول الهاجر والسباب الجارح والصياح الحانق ، ولا ينى يتذمر من كثرة النفقات ، مرددا على مسامع أفراد الأسرة أنهم أناس فقراء فعليهم أن يقتصدوا ماأمكن الاقتصاد.

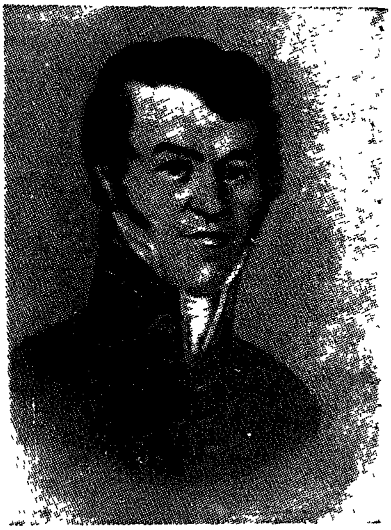

أبوه

وكان على الصبى دوستويفسكى أن يخطو خطواته الاولى فى التعلم والدرس خاضعا لهذا الأب ، قارئا عليه متعلما منه ، فكان يكرهه فى سره، وكانت صرخات الأب الغاضب تلاحقه حتى فى أحلامه ، ولعل الصبى كان يتمنى لأبيه الموت فى قرارة نفسه على غير شعور . ولكن الأب كان فى مقابل ذلك على جانب من ثقافة ، فكان يحلو له أن يقرأ لاولاده صفحات من عيون الأدب ، وكان يحب أن يقرأ لهم آثار بوشكين خاصة . واستطاع الأب بالتوفير والاقتصاد أن يحقق حلما من أحلامه فاشترى أرضا بمقاطعة تولا ، مساحتها خمسمائة هكتار وأقنانها ثمانون . فكانت أيام الاجازات التى تقضيها الأسرة بالريف سعادة كبرى للأولاد . هنالك انما تعلم فيديا (فيدور) حب الفلاحين والارض ، وبقيت له من ذلك ذكرى مضيئة أودعها قصته القصيرة « الفلاح ماراى » . وفى عام ١٨٣٣ عهد الأب بفيدور وأخيه ميشيل (وهما أكبر أولاد الطبيب) الى معلم فرنسى اسمه سوشار ، ثم

عهد بهما بعد سنة من ذلك الى مدرسة داخلية يديرها رجل تشيكى اسمه نشرمان ، وهى مدرسة يسودها جو عائلى ، وتدرس فيها اللغات والآداب ، فكان شيلر ووالتر سكوت وديكنز هم الكتاب الأثيرين على قلب فيديا خلال سنين ، حتى لقد أخذ ينظم أبياتا من الشعر سرا فى أثناء ذلك .

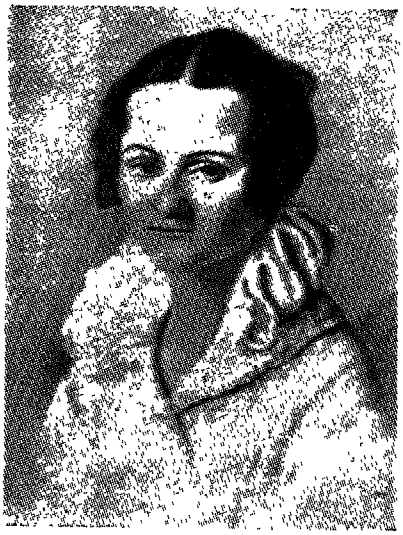

أمه

فلما جاء الصيف من عام ١٨٣٦ ، مرضت أم دوستويفسكى مرضا خطيرا فماتت بالسل فى السابع والعشرين من شهر شباط (فبراير) سنة ١٨٣٧ بعد مقتل الشاعر الكبير بوشكين بشهر واحد ، فكان للحادثين أثر عميق فى نفس الفتى دوستويفسكى الذى كان يحب أمه حبا رقيقا حنونا ، وكان يعبد الشاعر العظيم عبادة .

كذلك تحطم العش العائلى بوفاة الأم ، فانحدر الأب الى هوة اليأس وأدمن على الشراب وأخذ يفكر فى ترك عمله ، والاعتكاف بعيدا فى أرضه . وما هى الا فترة قصيرة حتى أرسل ابنيه الى سان بطرسبرج ليلتحقا بمدرسة الهندسة الحربية ، فأما فيدور فقد نجح فى امتحان القبول بعد الاستعداد له ستة أشهر ، وأما ميشيل فلم يفلح ، بسبب سوء صحته ، فمضى الى ريفيل ينتسب هنالك الى ملحق يتبع « مدرسة الهندسة » .

هذا هو الفتى دوستويفسكى الذى لما يتجاوز السادسة عشرة من

عمره يعيش اذن وحده فى مدرسة عسكرية داخلية تفرض عليه حياة قاسية لا يطيقها مزاجه الفنى ، وتلزمه بدراسة صعبة لا تتفق وأذواقه الادبية .

ويجد الفتى فى دراسته ويكد ، ولكن عالم الفنون يظل هو العالم الذى يخلو اليه سرا ، وها هو ذا يكتب الى أخيه قائلا « الحياة هنا كريهة مقيتة . لا جمال عندى الا فيما هو مبرأ من اسفاف المادة وسعادة الارض» وهو يقبل على القراءة شرها نهما ، ويؤلف حلقة من الرفاق تعنى بالشعر والأدب تقرأ شيلر وهوفمان وبالزاك وجورج صاند وفكتور هوجو ، وتنعقد أواصر صداقة بينه وبين جريجوريوفتش الذى سيصبح كاتبا شهيرا بعد قليل ، وتنشأ صداقة أخرى بينه وبين موظف شاب اسمه ايفان شيدلوفسكى ، وهو شاعر مثالى كان عاكفا على كتابة تاريخ للكنيسة . لقد كتب دوستويفسكى بعد ذلك يقول « ان معرفتى بشيدلوفسكى هيأت لى ساعات اعدها من اجمل ساعات عمرى » .

وفى أثناء ذلك أحال الدكتور دوستويفسكى نفسه على التقاعد ، ومضى يعتكف فى أرضه مع بنتيه الصغيرتين ، (احداهما فى الثامنة من عمرها والاخرى فى الثانية) ، واستمر الارمل المعتزل يدمن هنالك على الشراب الى ان غدا من ذلك صاحب هواجس وهذيان ، وكان يسىء معاملة أقنانه ، فيثير حفائظهم ويخرجهم عن أطوارهم ، فما انقضت سنتان حتى وجد قتيلا فى الحقول عام ١٨٣٩ ، قد أجهز عليه نفر من الفلاحين كان يهددهم بجلدهم بالسياط ، وكتمت الفضيحة ، فلم يعاقب الجناة .

فهذه اذن مأساة أخرى هزت نفس الفتى هزا قويا ، صحيح أنه كان لا يطيق اسراف أبيه فى الشراب ، وامعانه فى الفجور ، وكان يأخذ عليه خشونته وقسوته وجبروته ، وكان يمقت فيه بخله وشحه خاصة ، فما أكثر ما كان الفتى يحتاج الى قليل من المال يضن به عليه أبوه ويمنعه عنه . صحيح أن الفتى كان يحقد على أبيه لهذه الأسباب كلها ، وأن الرسائل التى كانا يتبادلانها كانت تفيض مرارة وعنفا ، وأنه كان فى قرارة نفسه يكرهه حقا ، ولكن هذا بعينه هو ما هز نفس الشاب هزا قويا فلقد أحس حين قتل أبوه أنه كان مجرما فى حق أبيه : ألم يحمل له بغضا وسخيمة ؟ ألم يتمن له الموت ؟ انه يتحمل اذن تبعة مقتله ... انه هو الذى قتله ، ولكن لا بيديه بل بأيدى الفلاحين .

قضى دوستويفسكى أربع سنين ونصفا فى « مدرسة الهندسة » تخرج بعدها مهندسا برتبة ملازم ثان فى صيف عام ١٨٤٢ ، فألحق بمكتب المهندسين فى دائرة الهندسة بالعاصمة .

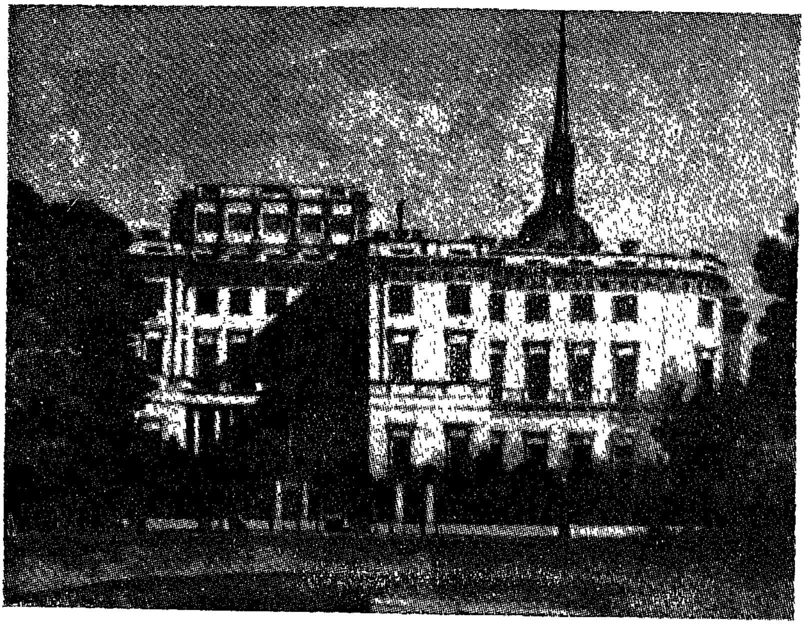

مدرسة الهندسة

وأصاب المهندس الشاب حظا من ثروة ، وكان صهره ، زوج اخته الكبرى ، الوصى على الأسرة ، يمده بشىء من المال من حين الى حين ، ولكن الضابط الشاب مبذر متلاف ، وهو الى هذا يتعاطى القمار فيخسر مبالغ طائلة ، وهو يستدين تارة ، ويسرق تارة أخرى . فما يشارف الشهر على نهايته الا ويكون خالى الوفاض لا يجد ما يتبلغ به من جوع ، وهو يختلف الى المسارح وحفلات الموسيقى ، بل هو يتردد على منازل مشبوهة قذرة يعقد فيها صلات مع سكارى ضائعين ، ولكن شغفه بالأدب وانصرافه اليه يزدادان أثناء ذلك يوما بعد يوم . حتى لقد كتب مسرحيتين لم تصلا الينا ، منذ كان طالبا فى مدرسة الهندسة : « مارى ستيوارت » و « بوريس جودونوف » ، تقليدا ومحاكاة للكاتبين اللذين يؤثرهما على سائر الكتاب : شيلر وبوشكين .

فلما هبط بالزاك سان بطرسبرج ، وكان دوستويفسكى يقدره كثيرا ، أسرع يترجم كتابه « أوجينه جرانديه » ترجمة عجلى ، اختصر الناشر ثلثها عدا ذلك ، وكان دوستويفسكى يتمنى فى الوقت نفسه أن ينشر ترجمة كاملة لآثار شيللر ٠

ويضيق دوستويفسكى ذرعا بعمله ضابطا مهندسا ، فيقرر عام ١٨٤٤ أن يستقيل رغم أنه منقل بالديون ٠ وفى ذلك الأوان انما التقى برفيقه القديم جريجوريوفتش الذى كان فد بدأ حياته الأدبية كاتبا واقعيا ناجحا ٠ فاستأجر الصديقان منزلا أقاما فيه معا ، وفى ذلك المنزل انما بدأ دوستويفسكى يكتب روايته الاولى « الفقراء » ، على غير علم من صديقه ، يعمل ليل نهار بحماسة شديدة واندفاع عظيم ، الى أن فرغ منها فى ذات مساء من شهر أيار (مايو) ١٨٤٥ ، فنادى صديقه وأطلعه على سره ، وأخذ يقرأ له روايته ٠ ظل دوستويفسكى يقرأ فى نشوة تمازجها خشية ، وظل جريجوريوفتش يصغى فى اعجاب يبلغ حد الذهول ، وفى حميا لا تدانيها حميا ، الى أن فرغا من القراءة فى ساعة متأخرة من الليل ، فاستولى جريجوريوفتش على المخطوطة ، وحملها فى الغد الى نكراسوف ، الشاعر الوطنى ، الذى يتمتع بفكر عملى والذى كان قد أصبح مدير مجلة ٠ لبث جريجوريوفتش الليل كله يقرأ الرواية على نكراسوف فلما انتهى الكاتبان من قراءتها فى نحو الساعة الرابعة من الفجر ، كانا قد بلغا ذروة الحماسة ، فقاما يقرعان باب دوستويفسكى فى تلك الساعة ويوقظانه من نومه ليهنئاه ٠ كانت تلك اللحظة أجمل لحظة فى حياة دوستويفسكى ، لم تبارح ذكراها خياله ٠ وبعد ثلاثة أيام ذهب دوستويفسكى الى الناقد الشهير بيلنسكى الذى كان قد تلقى المخطوطة من نكراسوف ، فما رأى بيلنسكى المؤلف الشاب حتى هتف يقول له متحمسا : « أأنت تفهم أيها الشاب ماذا كتبت » ؟ كان بيلنسكى يرى فى هذه الرواية أول محاولة فى كتابة رواية اجتماعية ، محاولة لا يقدر عليها ولا ينجح فيها الا فنان ، أى انسان لا يشعر بما سينشأ عنها ، ويترتب عليها ٠

ومنذ تلك اللحظة ، وحتى قبل أن تنشر الرواية ، طار صيت دوستويفسكى وذاعت شهرته ، فالاوساط الادبية تبحث عنه وتسعى اليه ، فيسكر دوستويفسكى من المديح يكال له بغير حساب ، ومن النجاح

يحققها بهذه السرعة ، ومن آيات الصداقة يغمره بها كبار الكتاب ، ويظهرها له الارستقراطيون من حماة الادباء ورعاة الفنانين فى ذلك الزمان · وتظهر الرواية أخيرا · ويكون دوستويفسكى عندئذ قد فرغ من كتابة روايته الثانية « المثل » ، فلا تصيب هذه الرواية الثانية ما أصابته الرواية الاولى من نجاح · فيسارع يكتب أعمالا أخرى ، ولكنه يسرف فى التعجل ، فينشر «الجارة» وأقاصيص أخرى تخيب ظن بيلنسكى وتخيب ظن أنصار ظهور ادب « اجتماعى » يتجه الى الشعب ويفيد المجتمع · وأخذ الأدباء الذين احتفوا بدوستويفسكى أشد الاحتفاء فى « الصالونات » الادبية ، أخذوا يتندرون عليه ، ويسخرون من زهوه بنفسه ، ويضحكون على خراقته ، ويشمتون بسقوط موهبته بل ويهزءون بدمامة خلقه ، لم يبرأ من هذا حتى نكراسوف وتورجينف ، فها هما ينظمان قصيدة يهجوان فيها دوستويفسكى متفكهين هازئين · ويستبد الضجر والسأم والملل بدوستويفسكى ، وتتكاثر ديونه وتتراكم ، ويتشرد متنقلا من مسكن الى مسكن · ويبدل أصدقاءه واحدا بعد آخر ، وتنتابه « أهوال غيبية » ومخاوف غريبة ، ويخشى أن يفقد صوابه وأن ينتهى الى الجنون ، وتأخذ نوبات الصرعة توافيه منذ ذلك الحين ، وكان قد صار الى الالحاد بتأثير صديقه بيلنسكى ، فها هو ذا يحاول أن يسرى عن نفسه بالاختلاف الى اجتماعات « الجمعة » التى كان ينظمها بتراشفسكى ، الموظف الشاب بوزارة الخارجية ، وهو رجل مثقف كان يجمع اصدقاءه ليتحدثوا فى السياسة والاشتراكية وهم يحتسون الشاى ويدخنون الغليون ، ويقرأون الى ذلك كتبا منعت الرقابة تداولها ·

على هذا انقضت من حياة دوستويفسكى سنة ١٨٤٨ كلها · وفى تلك الاثناء تشب ثورة شباط (فبراير) فتقلب عرش الأورليان ، ويترجع صداها قويا فى ألمانيا والنمسا والمجر ، ويلقى باكونين خطبا نارية فى المؤتمر السلافى بمدينة براغ ، وتهب المجر فتنادى بالجمهورية فيقرر نيقولا الاول أن يتدخل فى المجر دعما لعرش فرانسوا جوزيف ، الذى أخذ يترنح وأوشك أن يتداعى ·

وهذا جاسوس يقال له آنتونيللى يشى بحلقة بتراشفسكى ، واصفا أعضاءها بأنهم شيوعيون يحلمون باقامة مجتمع اشتراكى كالذى نادى به فورييه ، وبأنهم أناس مهووسون يهيئون لاضطرابات ومجازر ومذابح سياسية ، وبأنهم أقاموا حفلة عشاء تكريما للاشتراكى فورييه قال فيها

بتراشفسكى : « لقد حكمنا بالموت على المجتمع الحالى ، فيجب عل
ننفذ الحكم » • فيقرر نيقولا الاول أن القضية خطيرة ويقول : «
كله لا يعدو أن يكون كلاما وثرثرة ، فانه يظل جريمة لاتغتفر
أن تظل الامبراطورية الروسية صخرة لا تتزعزع ، تتكسر ع
الثورة التى تهدر فى الغرب ، ولا بد اذن من انزال العقوبة
المجانين الذين يتحدثون عن ثورة تقوم فى روسيا •

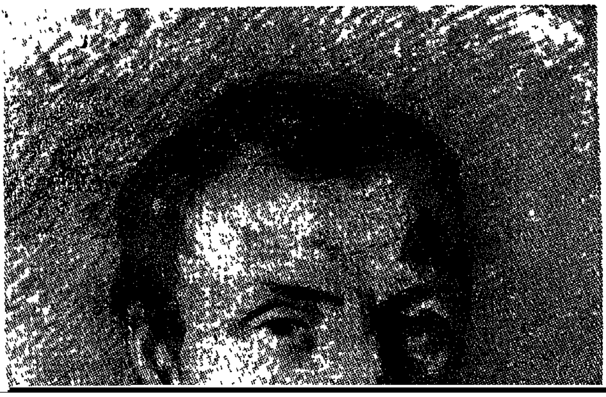

يرى ما هو الأمر » • وفيما كان جوليادكين يفكر هذا التفكير وصل الى الطابق الثانى ووقف أمام باب الشقة رقم ٥ : هذه لوحة جميلة من نحاس قد نقش عليها :

كريستيان ايفانوفتش روتنشبتس

دكتور فى الطب والجراحة

واستفاد بطلنا من زمن التوقف هذا ليشكل لنفسه وجها باشا ، هاشا ، بل ولطيفا محببا . وهم أن يشد حبل الجرس . غير أن فكرة برقت فى ذهنه فى هذه اللحظة نفسها ، وهى فكرة فى محلها جدا على كل حال . أليس من الأفضل تأجيل زيارته الى الغد ؟ ما من حاجة اليها فى هذا اليوم نفسه فى الواقع ... ولكنه سمع وقع خطوات على السلم فجأة ، فاذا هو ينفذ نقيض ما نواه ، فيدق جرس كريستيان ايفانوفتش ، وقد بدا فى وجهه العزم والتصميم .

الفصل الثانى

ان كريستيان ايمانوفتش روتنشبتس ، الدكتور فى الطب والجراحة ، رجل قوى البنية جيد الصحة وان يكن متقدما فى السن • ان حاجبيه الكثيفين ولحيتى وجنتيه قد أخذت تشيب • وان نظرة عينيه المعبرتين الساطعتين تبدو قادرة وحدها على أن تستأصل جميع الامراض • وهو يحمل على صدره وساما رفيعا • كان فى ذلك الصباح جالسا على مقعد مريح فى مكتبه يشرب فنجانا من القهوة جاءته به امرأته ، ويحرر فى الوقت نفسه وصفات لمرضاه • لقد أمر منذ هنيهة بمرهم لرجل عجوز يعانى من البواسير ، فبعد أن شيعه حتى الباب ، عاد يجلس على مقعده منتظرا الزيارة القادمة • وفى تلك اللحظة انما دخل عليه السيد جولياد كين • ان كل شىء يحمل على الاعتقاد بأن كريستيان ايفانوفتش لم يكن يتوقع هذه الزيارة قط ، بل وأنه لم يكن يرغب أبدا فى رؤية السيد جولياد كين أمامه ، فهنيا ما يدل عليه الاضطراب المفاجىء الذى ظهر فيه ، والتعبير

الغريب بل الغاضب الذى لاح فى وجهه . والسيد جوليادكين ، من جهته ، يشعر دائما بكثير من الضيق والحرج حين يكون عليه أن يواجه أحد الناس وأن يحدثه فى شئونه . واذ لم يتسع وقته لتحضير مقدمة يبدأ بها كلامه ــ وذلك يشكل عنده عقبة كبيرة دائما ــ فقد اضطربت حاله فدمدم ببضع كلمات مشوشة يعتذر بها عن مجيئه ؛ ولم يعرف بعد ذلك أى وضع يتخذ ، فجلس على كرسى ، ولكنه لم يلبث أن لاحظ أن أحدا لم يدعه الى الجلوس ، فشعر بأن عمله غير لائق ، فأراد أن يصلح ما اقترف من مخالفة للآداب الاجتماعية ، فأسرع ينهض عن الكرسى المغتصب ، ويقف على قدميه ؛ ثم ثاب الى رشده فشعر مضطربا بأنه قد ارتكب غلطتين متلاحقتين فاندفع يرتكب غلطة ثالثة . وأملا فى تبرير نفسه أخذ يجمجم بأقوال غير مفهومة تصاحبها ابتسامة شاحبة . وأخيرا احمر وجهه احمرارا شديدا ، واضطرب اضطرابا كبيرا ، فصمت ، وعاد الى مكانه على الكرسى ثم لم ينهض عنه . ومع ذلك فانه من أجل أن يسترد ثقته بنفسه لم ينس أن يرشق صاحبه بنظرة من تلك النظرات الثاقبة التى تمتاز بمزية خارقة هى أنها تسحق جميع أعدائه وتحيلهم رمادا . وفوق هذا ، فقد كانت تلك النظرة تدل على استقلال بطلنا استقلالا كاملا ، فهى تؤكد تأكيدا فصيحا أن السيد جوليادكين انسان سوى ، أنه رجل عادى ، كسائر الناس ، راض عن مصيره ولا يطلب المزيد .

تنحنح كريستيان ايفانوفتش ، علامة الاستحسان لسلوك بطلنا ، ثم حدق اليه بنظرة فاحصة . فقال جوليادكين مبتسما : « انما جئت يا كريستيان ايفانوفتش أطلب منك رحابة الصدر مرة أخرى ...

كان واضحا أن السيد جوليادكين يجد مشقة فى الاهتداء الى كلماته ...

قال كريستيان ايفانوفتش وهو ينفث نفثة كثيفة من الدخان ويضع سيجاره على المائدة :

ــ همم ... نعم نعم ... عليك مع ذلك أن تواظب على استعمال الدواء الذى وصفته لك . ولقد سبق أن اوضحت لك ان علاجك انما يكون بتغيير عاداتك ... أنت فى حاجة الى تسليات تسرى عنك . أنت فى حاجة الى أصدقاء تتردد اليهم ... أنت فى حاجة الى معاشرة الناس ومخالطة المجتمع . وعليك فى الوقت نفسه أن لا تكون عدو الزجاجه وأن تصاحب أناسا يحبون الحياة ويقبلون عليها ويغرفون من مباهجها .

فأسرع السيد جوليادكين يقول ، وهو لما يزل مبتسما ، انه يرى أن سلوكه سوى جدا ، شبيه بسلوك الآخرين ، وان تسلياته هى التسليات التى يتعاطاها الآخرون ؛ وانه يستطيع خاصة أن يذهب الى المسرح ، وانه يملك ما هو فى حاجة اليه من مال كسائر الناس ؛ وانه يعمل صباحا فى مكتبه ويبقى مساء فى بيته ؛ أى انه انسان كسائر البشر . حتى لقد انتهز السيد جوليادكين هذه الفرصة فألمع الماعا خفيا الى اعتقاده بأنه ليس دون غيره من الناس ، فهو يملك شقة فى عمارة مناسبة ، حتى أن فى خدمته خادما هو بتروشكا . ولكن السيد جوليادكين ، حين وصل الى هذا الموضع من حديثه ، توقف عن الكلام فجأة .

قال الطبيب :

ــ همم .. لا .. لا .. أنا لم أتكلم عن هذا .. ليس هذا ما أردت أن أطلبه منك . وانما أردت أن أعرف هل أنت على وجه العموم تحب صحبة الناس وتحب أن تنظر الى الحياة من جانبها الجميل ؟ ... أى بكلمة واحدة : هل سلوكك فى الحياة هو سلوك انسان سوداوى أم هو سلوك انسان متفائل ؟

ـ أنا يا كريستيان ايفانوفتش ...

قاطعه الطبيب قائلا :

ـ همم ... أكرر : أنت في حاجة الى تغيير طراز حياتك تغييرا جذريا . ان عليك أن تتغلب على « طبعك »

شدد كريستيان ايفانوفتش تشديدا قويا على كلمة «تتغلب» ، وتجمع على نفسه في وضع ممتاز جدا ثم أردف يقول :

ـ عليك أن لا تهرب من التسليات ، عليك أن تختلف الى المسارح والحلقات ، وعليك خاصة أن لا تهمل الزجاجة . اياك والبقاء في بيتك ، فليس ينفعك في شيء أن تلازم بيتك .

دمدم جوليادكين يقول وهو يرشق محدثه بنظرة مفهومة ويبدو عاجزا عن العثور على الكلمات التي يفصح بها عن فكره :

ـ أنا أحب الهدوء يا كريستيان ايفانوفتش . نحن في البيت اثنان فقط : أنا وبتروشكا ... أقصد خادمي يا كريستيان ايفانوفتش . أريد أن أقول بذلك يا كريستيان ايفانوفتش انني أسير في طريقي ، نعم ، في طريقي الخاص ، يا كريستيان ايفانوفتش . أنا مكتف بنفسي ، ولست رهنا بأحد ، هذا اذا لم يخطيء ظني . على أن ذلك كله لا يمنعني من التنزه يا كريستيان ايفانوفتش .

ـ ليس التنزه في هذه الأيام بالممتع كثيرا ، فان الجو أقرب الى أن يعد رديئا .

ـ صحيح يا كريستيان ايفانوفتش . ورغم أنني بطبعي شديد التحفظ والانكماش على نفسي ، كما سبق أن تشرفت بايضاح ذلك لك فيما أعتقد ، فانني أتابع طريقي ، وهو طريق انعزالي . أنا أعرف أن

دروب الحياة واسعة ... أعنى ... أقصد ... معذرة يا كريستيان ايفانوفتش ، لست قديرا فى مجال فصاحة اللسان .

ـ همم .. هكذا ؟

ـ أقول هذا يا كريستيان ايفانوفتش من أجل أن تعذرنى اذا لم أعبر عن نفسى بفصاحة كافية .

كذلك نطق السيد جوليادكين بلهجة فيها شيء من المطالبة ، وكان واضحا أنه يجد مشقة فى العثور على كلماته . وأردف يقول وهو يبتسم ابتسامة غريبة :

ـ من هذه الناحية ، لست كسائر الناس يا كريستيان ايفانوفتش . فأنا لاأجيد الخطب الطويلة والجمل الرشيقة . ولكنى ، فى مقابل ذلك ، يا كريستيان ايفانوفتش ، أعمل ، نعم أعمل يا كريستيان ايفانوفتش ...

ـ همم ... طيب ... وماذا تعمل ؟

ساد الصمت لحظة . نظر الطبيب الى السيد جوليادكين نظرة فاحصة مرتابة . كما ألقى السيد جوليادكين على محدثه نظرة مثقلة بالحذر والشك .

تابع بطلنا يقول بلهجة شاكية تنم عن انزعاجه ، وقد بدا عليه الاضطراب ازاء هذا العناد القوى لدى محدثه :

ـ أنا يا كريستيان ايفانوفتش ... أنا يا كريستيان ايفانوفتش ... أنا ... أنا أحب الهدوء والسكون والركون ... وأكره ذلك التحرك الكثير الذى يتحركه المرء فى المجتمع بغير طائل . فهناك ، أقصد فى المجتمع الراقى ، يجب على المرء أن يعرف كيف يصقل خشب الأرض بنعليه (هنا ظهر على جوليادكين أنه ينقر الأرض بكعب حذائه) ...

نعم ... ذلك أمر مطلوب هناك ... ويجب على المرء هناك أن يحسن استعمال الجناس ... أن يعرف كيف يجامل وكيف يمدح بحذق وبراعة ... نعم ... كل ذلك لا بد منه هناك . وأنا يا كريستيان ايفانوفتش لم أتعلم شيئا من هذا كله ... لم أتعلم فى حياتى هذه الحيل ... لم يتسع وقتى لتعلمها ... أنا امرؤ بسيط ، بلا مكر ولا دهاء ، ولا طلاء خارجى . فى هذا المجال ، يا كريستيان ايفانوفتش ، ليس لى قدرة ؛ أنا هنا ألقى سلاحى وأتركه تماما .

نطق السيد جوليادكين بهذه الأقوال الأخيرة بلهجة تدل دلالة بليغة على أنه لا يأسف أى أسف لالقاء سلاحه فى ميدان الترهات السخيفه ، وعلى أنه لا يأسف أى أسف لكونه غير حاذق فى حيل المجتمع ومكر الناس . وكان كريستيان ايفانوفتش يصغى اليه مطرقا وقد أطال شفتيه تعبيرا عن عدم الاستحسان . كان كمن يتوجس شرا . وأعقب كلام بطلنا المسهب صمت طويل .

قال كريستيان ايفانوفتش أخيرا بصوت خافت :

ـ أحسب أنك ابتعدت قليلا عن موضوعك . أعترف لك بأننى لم أستطع أن أتابع تفكيرك الا بكثير من العناء .

ـ لست قديرا فى مجال الفصاحة يا كريستيان ايفانوفتش . لقد سبق أن تشرفت بذكر ذلك لك يا كريستيان ايفانوفتش . لا ... لست قديرا فى ميدان الفصاحة (كذلك ردد السيد جوليادكين بلهجة غدت على حين فجأة قاطعة جازمة مستبدة) .

همهم الطبيب :

ـ همم ...

واستأنف بطلنا كلامه يقول بصوت مخنوق لكنه وقور رصين ، متوقفا على كل جملة :

ـ كريستيان ايفانوفتش ، حين دخلت عليك بدأت كلامى معتذرا • والآن أريد أن أكرر ما سبق أن قلته ، ومن أجل ذلك أسألك التسامح ورحابة الصدر • ليس هناك ما أخفيه عنك يا كريستيان ايفانوفتش • أنا انسان ليس له شأن يذكر يا كريسنيان ايفانوفتش ، وأنت تعلم ذلك • ولكننى لا يؤسفنى ، لحسن حظى ، أننى انسان ليس له شأن يذكر • بالعكس يا كريستيان ايفانوفتش • ومن أجل ان افصح عن كل فكرى أقول لك اننى فخور بكونى انسانا ليس له شأن يذكر • ما أنا بالرجل الماكر الذى يدبر المكائد ••• وهذا أمر أعتز به أيضا • لا أقوم بعمل من الأعمال خفية ، بل أعمل صراحة ، فى وضح النهار ، دون احتيال • ورغم أننى قادر ، نعم قادر ، أنا أيضا ، على الايذاء ، فاننى لا أريد الايذاء يا كريستيان ايفانوفتش ، لا أريد أن ألطخ نفسى ، بل أفضل أن تبقى يداى طاهرتين • ومع ذلك فأنا أعرف وسائل الايذاء ••• لكننى لا أريد أن أوذى يا كريستيان ايفانوفتش • أقول لك على سبيل الحقيقة والمجاز معا ، اننى أغسل يدىّ وأطهرهما •

كان السيد جوليادكين منتعشا • وفى هذا الموضع من حديثه لزم لحظة من صمت بليغ جدا ، ثم أردف يقول :

ـ أنا أسير فى طريقى قدما يا كريستيان ايفانوفتش ، فى وضح النهار ، لا أبحث عن دروب ملتوية ، لأننى أحتقر الأساليب الملتوية وأتركها لغيرى • ولست أرغب فى اذلال أناس لعلهم أشرف منك ومنى ••• عفوا ••• أقصد أشرف منى ومن غيرى يا كريستيان ايفانوفتش ، لا أشرف منك ومنى • اننى أكره الفخر• اننى أحتقر النفاق الدنىء ،

وأحتقر الوشايات والأقاويل والنمائم • اننى ألبس قناعا فى حفلة تقنع ، لا فى جميع الأيام ، تجاه جميع الناس • وأريد فى الختام أن ألقى عليك سؤالا يا كريستيان ايفانوفتش ، سؤالا واحدا : كيف تنتقم أنت من عدو ، من عدو رهيب ، أو من عدو تعده رهيبا على الأقل ؟

هنا توقف جوليادكين عن الكلام راشقا كريستيان ايفانوفتش بنظرة تحد • لقد صب كلامه المسهب المطنب بوضوح وجلاء وثقة لا يدانيهـا وضوح ولا جلاء ولا ثقة ، فكان يزن كل قول من أقواله ساعيا الى احداث أقوى تأثير ممكن • ولكن ما ان أنهى خطابه حتى أخذ يتفرس فى محدثه وهو يشعر بقلق شديد ، بقلق عظيم • انه يلتهمه الآن بنظراته التهاما ، ينتظر جوابه خائفا وجلا مشوشا نافد الصبر تفيض نفسه هما وغما • فما كان أشد استغرابه وذهوله حين لم يزد كريستيان ايفانوفتش على أن دمدم ببضع كلمات بين أسنانه ؛ ثم قرب كرسيه من المائدة وقال له بلهجة جافة ولكنها لا تخلو من أدب وتهذيب ، ان وقته ثمين جدا ، وانه لايفهم هذه الأقوال كلها فهما واضحا ؛ وانه يظـل مع ذلك فى خـدمته وتحت تصرفه ، ولكن فى حدود اختصاصه ، أما فى كل ما عدا ذلك فلا يتحمل أية تبعة • قال الطبيب ذلك ثم أخـــرج ريشة ، وتناول ورقة فثنـاها ثم قطعها على قد الورقة التى تكتب عليها الوصفات الطبية ، ثم أعلن لبطلنا أنه سيصف له علاجا مناسبا •

تمتم جوليادكين وهو ينتصب على قدميه ويخطف يد الطبيب اليمنى:

ـ لا •• لا •• يا كريستيان ايفانوفتش ••• لا حاجة الى هذا•• لا حاجة الى هذا البتة • حقا يا كريستيان ايفانوفتش لا ضرورة لهذا •

ولكن بينما كان السيد جوليادكين يقول هذا الكلام كان شخصـه يعانى تحولا غريبا • ان بروقا عجيبة تومض فى عينيه الرماديتين ، وان

ارتجافا اختلاجيا يهز شفتيه ، وان عضلات وجهه ترتعش • ان جسمه كله ينبض • واستطاع بالاستمرار فى حركته الأولى أن يوقف يد الطبيب ، ثم تسمر فى مكانه جامدا لا يتحرك ، ولاح عليه أنه يتردد منتظرا أن يوحى اليه بما يجب عليه أن يفعله •

مشهد غريب جرى عندئذ بين الرجلين • الطبيب متحير لحظة ، مسمر على كرسيه ، ثم فاقد صبره ، محملق فى السيد جوليادكين • وجوليادكين يحدق الى الطبيب هو أيضا بهذه الشدة نفسها وهذا العنف نفسه • وينتصب كريستيان ايفانوفتش أخيرا ، متشبثا بياقة ردنجوت زبونه • فيقف الرجلان وجها لوجه لحظات ، جامدين صامتين ، لا يحول أحد منهما بصره عن صاحبه • وعندئذ يظهر الرد الثانى لدى السيد جوليادكين ، يظهر ظهورا مباغتا غريبا ليس فى الحسبان • ان شفتيه تختلجان ، وان ذقنه ترتجف ارتجافات عنيفة ، وها هو ذا ينفجر آخر الأمر باكيا • انه يشهق ، ويهز رأسه ، ويلطم صدره بيده اليمنى ، بينما يده اليسرى متشنجة على ياقة سترة كريستيان ايفانوفتش • أراد أن يتمتم بضع كلمات ، أراد أن يقدم بعض الشروح ، ولكن ما من كلمة أمكن أن تخرج من فمه •

واستطاع كريستيان ايفانوفتش أخيرا أن يثوب من ذهوله الطارىء وأن يعود الى صوابه •

دمدم يقول وهو يدفع السيد جوليادكين الى المقعد :

ـ كفى ، أرجوك ، هدىء نفسك ، أقعد •

قال السيد جوليادكين بصوت أصم مهموم :

ـ لى أعداء يا كريستيان ايفانوفتش ، نعم ، لى أعداء • أعداء عتاة آلوا على أنفسهم أن يضيعونى •••

ـ هيا ••• دعك من هذا ! ••• أى أعداء هم هؤلاء ! ما ينبغى لك أن تفكر فى أعدائك • اقعد اقعد ••

بذلك ختم الطبيب كلامه وقد استطاع أخيرا أن يقعد السيد جولیادكين •

كف بطلنا عن الهيجان • ولكن عينيه ما تزالان ثابتتين على وجه كريستيان ايفانوفتش • وكان واضحا أن كريستيان ايفانوفتش منزعج فهو يذرع الغرفة طولا وعرضا • وساد صمت طويل •

قال السيد جولیادكين أخيرا ، وهو ينهض منكسر النفس مغلوبا :

ـ أشكرك يا كريستيان ايفانوفتش ، أشكرك شكرا لا حدود له • اننى متأثر أشد التأثر بكل ما صنعته من أجلى اليوم • لن أنسى فضلك ما حييت ، وسأظل معترفا بجميلك أبد الدهر •

فكان رد الطبيب على هذه المحاولة الجديدة من السيد جولیادكين أن قال له :

ـ كفى •• أقول لك كفى •• هدىء نفسك •

ثم أضاف وهو يدفعه مرة أخرى الى الكرسى :

ـ قل لى الآن : ما الذى يشغل بالك ، ما الذى يقلق نفسك ؟ حدثنى عن متاعبك •• وقل لى قبل كل شىء : من هم هؤلاء الأعداء الذين تشير اليهم ؟ ما الذى يجرى على غير ما تحب ؟

قال السيد جولیادكين مطرقا الى الأرض :

ـ لا •• يا كريستيان ايفانوفتش ، لا •• دعنا من هذا كله الآن •• سنتحدث فيه مرة أخرى •• دعنا من هذا كله ليوم آخر ، ليوم

أنسب من هذا اليوم يا كريستيان ايفانوفتش ، ليوم يصبح فيه كل شيء واضحا ، ليوم تسقط فيه الأقنعة عن بعض الوجوه .. نعم ، ليوم ينجلي فيه كل شيء . أما الآن ... أقصد ... بعد كل ما جرى بيننا ... تعرف ذلك بنفسك يا كريستيان ايفانوفتش ... فاسمح لى أن أتمنى لك يوما سعيدا يا كريستيان ايفانوفتش ..

بهذا ختم السيد جوليادكين كلامه ناهضاً متناولا قبعته ، وقد لاح فى وجهه الحزم .

ـ لك ما تشاء .. همم ..

وصمت الطبيب لحظة ثم أردف يقول :

ـ اعلم على كل حال أننى ، من جهتى ، سأفعل كل ما يمكننى أن أفعله ... اعلم اننى أريد لك الخير صادقا كل الصدق .

ـ أنا أفهمك يا كريستيان ايفانوفتش ، أنا أفهمك . نعم ، أفهمك كل الفهم اليوم ... ومهما يكن من أمر ، فأرجوك أن تغفر لى ازعاجى اياك يا كريستيان ايفانوفتش ..

ـ همم ... لا ... ليس هذا ما أردت أن أقوله . على كل حال ، افعل ما يحلو لك . وواظب على العلاج كالعادة .

ـ سأواظب على العلاج ، كالعادة ، كما أمرتنى ياكريستيان ايفانوفتش ، نعم ... سأواظب ... وسأشترى الدواء من الصيدلية نفسها ... ليست الصيدلة فى أيامنا هذه بالتجارة البسيطة ياكريستيان ايفانوفتش .

ـ بأى معنى تقول هذا ؟

بالمعنى العادى يا كريستيان ايفانوفتش ، أريد أن أقول بذلك ان الأمور تجرى على هذا النحو فى هذه الأيام ..

— همم ...

— نعم ، وان أيسر شاب رقيع ، لا الصيادلة وحدهم ، يسمح لنفسه اليوم بجميع الوقاحات فى معاملة انسان خير .

— همم ... ماذا تقصد ؟

— أقصد يا كريستيان ايفانوفتش شخصا بعينه نعرفه جميعا يا كريستيان ايفانوفتش ، نعرفه حق المعرفة ، أنا وأنت ... أقصد فلاديمير سيميونوفتش ، اذا شئت أن أسميه ...

— ها ...

— نعم يا كريستيان ايفانوفتش ، ولكننى أعرف كذلك أناسا لا يتورعون عن مجافاة آداب المجتمع من أجل أن يقولوا ما يفكرون فيه .

— ها .. كيف ذلك ؟

— الأمر بسيط . ولكن هذه الحالة حالة خاصة فى حقيقة الأمر . هناك أناس يعرفون ، عند اللزوم ، أن يقدموا لك طبقا من الطعام هو حسك بالقشدة !

— حسك بالقشدة ؟

— نعم .. حسك بالقشدة ... ياكريستيان ايفانوفتش ... هذا تعبير شعبى ... نعم ، هناك أناس يعرفون كيف يخفون خبثهم وراء ستار من الملاطفة ... هناك أناس من هذا القبيل ياكريستيان ايفانوفتش .

— الملاطفة ؟

ـ نعم ، الملاطفة .. التهنئة .. اليك المثال : كان على أحد أصدقائى الحميمين ، فى هذه الأيام الأخيرة ...

ـ ماذا كان عليه ؟

كذلك سأل الطبيب وهو يتفرس وجه السيد جوليادكين بانتباه شديد :

ـ نعم ، كان على أحد أصدقائى الحميمين أن يهنىء صديقا آخر من أصدقائى ، وهو رجل محبب جدا ، لطيف جدا ، يمكن أن يسمى صديقا ممتازا . لقد رقى هذا الصديق الثانى الى درجة أعلى فى الادارة التى يعمل فيها ، فاليك العبارات التى قالها له الصديق الأول مهنئا : «يسعدنى أعمق السعادة يافلاديمير سيمينيوفتش أن أقدم اليك تهانى ، أن أقدم أصدق تهانى ، ومما يزيدنى سعادة أن الزمان الذى نعيش فيه ، كما لا يجهل ذلك أحد ، هو زمان أبناء ذوى الغنى والنفوذ » .

كان السيد جوليادكين يشفع كلماته الأخيرة هذه بتحريك رأسه تحريكا يفيض بمعانى الدهاء ، ويشفعها بغمزات مكر يوجهها الى محدثه :

ـ همم ... اذن هذا ما قاله له ؟

ـ نعم هذا ما قاله له ياكريستيان ايفانوفتش ، قاله له بهذا النص نفسه ، قاله وهو يحدق أيضا فى عينى آندره فيليبوفتش ، عمّ صاحبنا ، عمّ فلاديمير سيمينوفتش .

وفى الواقع يا كريستيان ايفانوفتش ، فيم يهمنى أن يرقى الى رتبة معاون قاض ، فيم يهمنى ذلك ؟ وأكثر من هذا أنه يريد أن يتزوج ، على أن حليب مرضعته لما يجف على شفتيه ، اذا أذنت لى بهذا التعبير ..

نعم ... لقد قلت لهذا الفلاديمير سيمينوفتش ... هاقد ذكرت لك كل شىء ... فاسمح لى أن أنصرف .

ـ همم ..

ـ نعم ياكريستيان ايفانوفتش ، اسمح لى الآن أن أنصرف . وبعد الالماع الى أبناء ذوى الغنى والنفوذ ، أردت أن أصيب بحجر واحد طائرين . كنا عند أولسوفى ايفانوفتش . وكان ذلك أول أمس . فالتفتُ نحو كلارا أولسوفيفنا التى كانت قد غنت أغنية عاطفية ، وقلت لها : « لقد غنيت هذه الاغنية بكثير من العاطفة فى الواقع ، ولكن الذين استمعوا اليك لم يعجبوا بك بقلب نقى جدا . » . كانت غمزتى واضحة جدا جدا يا كريستيان ايفانوفتش . أنت تفهمها حق الفهم . لقد أفصحت لها بهذه الغمزة افصاحا واضحا عن أن الذين يستمعون اليها لا ينشدونها هى ، بل ينشدون من ورائها شيئا آخر .

ـ آ ... وماذا فعل هو ؟

ـ بلعها ... ياكريستيان ايفانوفتش ... على حد التعبير الشعبى .

ـ همم ...

ـ نعم .. تماما ياكريستيان ايفانوفتش . أما الشيخ ، أبو الآنسة ، فقد قلت له : « أولسوفى ايفانوفتش ، أنا أعرف كل ما أدين لك به ، وأقدر ما أسبغته علىّ من حسنات منذ طفولتى حق قدره . ولكننى أرجوك أن تفتح عينيك يا أولسوفى ايفانوفتش . انظر حواليك ! أما أنا فأحاول أن أخرج المسألة الى الضوء يا أولسوفى ايفانوفتش » .

ـ آ ... هكذا ...

ـ تماما ياكريستيان ايفانوفتش .. هكذا ..

ـ وهو ، عندئذ ؟

ـ هو ؟ ماذا تتوقع أن يعمل يا كريستيان ايفانوفتش ؟ لقد أخذ يهرف ويخبط فى كلامه خبط عشواء .. قال لى : « أنا أعرفك جيدا ... ان صاحب المعالى انسان يفيض كرما وجودا ... » ، ثم استرسل فى حديث غامض مبهم : ماذا تتوقع ؟ لقد أخرفت السنون عقله كما يقال .

ـ ها ... اذن هكذا جرت الأمور .

ـ تماما يا كريستيان ايفانوفتش . ونحن جميعا كذلك . هو شيخ عجوز ، قلت لك ذلك . احدى قدميه فى القبر ، كما يقال ، ولكن يكفى أن تسترسل أمامه فى نمائم حتى يصبح آذانا مصغية .

ـ نمائم ؟

ـ تماما ياكريستيان ايفانوفتش . انهم يحيكون الآن مؤامرة . والدب الكبير ، العم ، أسرع يضع يده فى العجين ، وكذلك ابن الأخ ، صاحبنا الصبى ، طبعا ! ... لقد تواطئوا مع عدد من النساء العجائز ، ولا شك أنهم طبخوا طبقا على طريقتهم ... هل تعرف ماذا اخترعوا من أجل أن يغتالوا انسانا ؟

ـ من أجل أن يغتالوا انسانا ؟

ـ تماما ياكريستيان ايفانوفتش ، من أجل أن يغتالوا انسانا . من أجل أن يغتالوه معنويا . أطلقوا شائعة ... ما زلت أقصد صديقى الحميم فى الواقع ... فهمته ؟

أنغض كريستيان ايفانوفتش رأسه ، علامةَ التأييد .

ـ نعم ... روجوا عنه اشاعة ... أعترف لك ياكريستيان ايفانوفتش أننى أستحى أن أذكر لك الاشاعة التى روجوها ..

ـ همم ...

ـ أشاعوا عنه أنه قد تعهد تعهدا رسميا بالزواج .. أنه قد خطب أخرى ... هل تتصور هذه الأخرى التى أشاعوا أنه خطبها ؟

ـ صحيح ؟

ـ صاحبة مطعم حقير ، ألمانية ، امرأة عامية ، يتنـاول وجباته فى مطعمها . زعموا أنه خطبها .. سدادا لديونها عليه .

ـ هم الذين يحكون هذا ؟

ـ هل تصدق يا كريستيان ايفانوفتش ؟ هذه الألمانية ، الحقـيرة ، الدنيئة ، التى لا حياء لها ، هذه الكارولين ايفانوفنا ... أتعرفها ؟

ـ أعترف أننى من جهتى ...

ـ أفهمك ياكريستيان ايفانوفتش ، أفهمك . أنا أيضا ، من جهتى، أحس أن ...

ـ قل لى من فضلك : أين تسكن الآن ؟

ـ أين أسكن ياكريستيان ايفانوفتش ؟

ـ نعم .. أريد أن أعرف .. أظن أنك كنت فى الماضى تعيش ..

ـ صحيح ياكريستيان ايفانوفتش ، كنت أعيش ، كنت أعيش ... نعم ، كنت فى الماضى أعيش ... هذا واقع ... كنت أعيش ...

كان السيد جوليادكين يجيب بذلك مرفقا كلماته بضحكة نحيلة . ولاح أن جوابه قد بث القلق والاضطراب فى نفس محدثه .

قال الطبيب :

ـ لا ... لقد أسأت فهم سـؤالى ... أردت أن أقول اننى من جهتى ...

ـ أنا أيضا أردت أن أقول ياكريستيان ايفانوفتش ، اننى من جهتى ...

كذلك قال السيد جوليادكين ضاحكا . ولكن يظهر أننى أطلت زيارتى يا كريستيان ايفانوفتش . آمل أن تأذن لى بالانصراف الآن ..

ـ همم ...

ـ تماما ياكريستيان ايفانوفتش ، أنا أفهمك ، أنا أفهمك كل الفهم ... وأخيرا اسمح لى أن أتمنى لك يوما سعيدا .

هكذا ردد السيد جوليادكين بغير أى كلفة أو حرج ازاء محدثه . ثم انحنى محييا وخرج من الغرفة ، تاركا الطبيب فى ذروة الذهول .. هبط السلم وهو يبتسم ابتسامة مشرقة ، ويفرك يديه فرحا مرحا . حتى اذا صار عند باب العمارة استنشق الهواء النقى ، وشعر بتحرر وانطلاق. وأوشك أن يعد نفسه أسعد انسان على وجه الأرض ، وهم أن يتجه نحو مكتبه ، لولا أنه سمع فجأة قرقعة عجلات ورنين جلاجل ... انها عربة واقفة أمام الباب . فرفع عينيه وتذكر كل شىء . وفتح بتروشكا باب العربة . فشعر السيد جوليادكين فى هذه اللحظة باحساس غريب أليم . واصطبغ وجهه بحمرة بضع لحظات . لكأن قلبه قد طعن .. ووضع قدمه على درجة العربة ، ثم التفت ينظر نحو نوافذ كريستيان ايفانوفتش . لقد حزر ! كان الطبيب واقفا هنالك يرقبه مستطلعا متعجبا ، يلاعب لحيته بيده اليمنى . قال جوليادكين لنفسه وهو يرتمى فى ركن من العربة : « هذا الطبيب غبى . نعم ، غبى جدا . قد يكون بارعا فى معالجة مرضاه . ولكن ذلك لا يمنع أنه غبى كأوزة » .

استقر السيد جوليادكين فى العربة أخيرا . وعوى بتروشكا يقول للسائق : «هيا» . ودرجت العربة من جديد متجهة نحو شارع نفسكى.

الفصل الثالث

انقضى ذلك الصباح في حركة جهنمية .

فحين وصلت العربة الى شارع نفسكي ، امر السيد جوليادكين بالوقوف على مقربة من جوستيني دفور ، ثم قفز من العربة وأسرع يدخل تحت القناطر يحاديه خادمه الوفي بتروشكا ، وماهي الا لحظة حتى دخل في أحد مخازن المصوغات الذهبية والفضية ، ولم يلبث ، وقد بدا مرهقا بالهموم والتبعات الثقال ، يساوم على طقم كامل للمائدة ، وعلى طقم للشاي ، فاستطاع ان يحصل عليهما بألف وخمسمائة روبل ، وبهذا الأمر نفسه حصل على علبة سيجار أخاذة المظهر وعلى طقم كامل من أمواس الحلاقه بالفضه ، واهتم أيضا ببعض الأشياء المفيدة والجميلة ، ووعد وعدا جازما في اخر الأمر بان يعود غدا ، بل بأن يرسل أحدا بعد الظهر لاستلام هذه المشتروات ، وحرص على ان يسجل عنوان المخزن دقيقا ، واصغى بانتباه الى البائع الذي أثار مسألة العربون ، فوعده بأن يدفعها في الوقت المناسب ، ثم ودع البائع المشدوه مسرعا وخرج . طلف

السيد جولیادكين الشارع دون أن يحول بصره عن بتروشكا، يتبعه رهط من أصحاب الدكاكين . وكان واضحا أنه يبحث عن مخزن آخر . وفيما هو يطوف الشارع توقف عند أحد « الصرافين » ، فأبدل أوراقه المالية الكبيرة بأوراق مالية صغيرة ، وبدا ، رغم خسارته فى التبديل ، مغتبطا بهذه العملية اغتباطا كبيرا ، لأنها ضخمت حجم محفظته تضخيما واضحا . وبعد ذلك دخل مخزن أقمشة للسيدات ، فأوصى هنالك أيضا على أشياء كثيرة ، متعهدا تعهدا قاطعا بأن يعود فى الغداة ، وسجل كذلك العنوان ، وأجاب على سؤال البائع عن العربون بأنه سيدفعه فى حينه . ثم دخل دكاكين أخرى ، فسأل عن أسعار أشياء شتى ، مساوماً فى كل مكان ، تاركا مخزنا من المخازن ليعود اليه بعد قليل ، مناقشا التجار حول الأسعار مناقشة طويلة لا تنتهي ، باذلا نشاطا كبيرا على وجه العموم . حتى اذا ترك حي جوستيتيني دفور ، اتجه الى مخازن عرض الأثاث ، فسأل عن اثاث كامل لست حجرات ، وتلبث طويلا أمام مقعد طريف من المقاعد التي تعد « آخر صيحة » من صيحات الموضة ، ثم خرج من المخزن بعد أن تعهد للبائع بأن يرسل من يستلم هذه الأشياء كلها حالا ، وبعد أن وعد بدفع عربون على عادته .

وزار مخزنا آخر من مخازن عرض الأثاث أيضا ، فأوصى على أشياء أخرى . كان يبدو أن حاجته الى بذل النشاط لا ينضب لها معين . ومع ذلك فقد لاح عليه آخر الأمر أنه سئم هذا المكر كله . حتى لقد أخذ ضميره يعذبه ندامة على حين فجأة ، لا يدرى الا الله لماذا .. وهو ، خاصة ، لا يتمنى فى هذه اللحظة ، على أية حال من الأحوال ، أن يجد نفسه وجها لوجه أمام آندره فيليبتش ، أو حتى أمام كريستيان ايفانوفتش .. وفى أثناء ذلك دقت الساعة الثالثة . فاستقر السيد جولیادكين فى

عربته • لقد أنهى أعمال الشراء التى سعى فيها ، فلم يشتر بعد نهار من البحث الا قفازين وزجاجة عطر بروبل ونصف روبل •

ولا يزال أمامه متسع من الوقت • لذلك أمر الحوذى أن يمضى به الى مطعم مشهور فى شارع نفسكى كان لا يعرفه الا بالاسم • فلما وصل الى المطعم خرج من عربته وأسرع يدخل قاعته ، بنية الاستراحة قليلا ، وتناول أكلة خفيفة ، وانتظار « ساعته » خاصة • أكل كما يأكل امرؤ ينتظر عشاء هاما دسما ، فيقرر أن يطعم شيئا يخادع به الجوع • وشرب كذلك كأسا صغيرا من الفودكا ، ثم قبع فى أحد المقاعد ، وبعد أن أجال بصره فى القاعة ، استغرق بهدوء فى قراءة جريدة وطنية صغيرة •

قرأ سطرين أو ثلاثة أسطر ، ثم نهض ينظر الى نفسه في المرآة ، فرتب شعره وهندامه قليلا ، ثم اقترب من النافذة فألقى نظرة ليتأكد من أن عربته لا تزال في مكانها ••• وعاد أخيرا الى مقعده وتناول جريدته من جديد ••

كان واضحا انه قلق مضطرب • وألقى نظرة على الساعة المعلقة فى الحائط فعلم أن الساعه هي الثالثة والربع • لا يزال عليه أن ينتظر مدة طويلة • وقدر السيد جوليادكين أنه ليس من اللائق كثيرا أن يبقى أمام مائدة خالية ، فأمر لنفسه بفنجان من الشوكولاته ، رغم انه لم تكن به أية رغبة في احتساء شيء من الشوكولاتة فى تلك اللحظة والحق يقال• شرب الشوكولاتة • فلما لاحظ بعدئذ أن عقرب الساعة قد قطع مسافة طويلة نهض ليدفع الحساب • وفى تلك اللحظة نقره أحد على كتفه • فالتفت فرأى أمامه اثنين من زملائه هما اللذان التقى بهما صباحا فى شارع ليتاينايا ــ وهما شابان مبتدئان فى الحياة وفى الوظيفة الحكومية ، وكانت

علاقة بطلنا بهما علاقة ملتبسه ، فلا هى علاقة مودة ، ولا هى علاقة عداوة صريحة .

كان الطرفان كلاهما يحاولان أن يراعيا قواعد اللياقة ، ولكن كان يبدو أن قيام تقارب وثيق بينهما أمر مستحيل . أما فى اللحظة الحاضرة فقد لاح أن هذا اللقاء قد أزعج السيد جوليادكين كثيرا ، فهو يقطب حاجبيه ، بل يبدو مضطربا خلال بضع لحظات .

وسرعان ما أخذ الشابان الموظفان يزقزقان قائلين :

– يا كوف بتروفتش ، ياكوف بتروفتش ! أأنت هنا ؟ يالها من مصادفة !

فأسرع السيد جوليادكين يقاطعهما وقد انزعج قليلا بل استاء من هذه الدهشة التى أظهرها الموظفان على هذا النحو الفج ، وبهذه الطريقة التى ليس فيها تحرج ولا كلفة ، أسرع يقاطعهما قائلا :

– ها ... هذا أنتما أيها السيدان .

ثم اصطنع لهجة انطلاق كاذب وجرأة زائفة ، فقال :

– أنتما اذن هاربان أيها السيدان ! هه هه هه !

ومن أجل أن يبرز المسافة بينه وبينهما ، ومن أجل أن يرد هذين الشابين الغرين الطائشين الى مكانهما ، حرك يده بحركة من يريد أن يربت على كتفى واحد منهما . ولكن طابع الألفة الملاطفة التى أراد أن يطبع به حركته لم يوفق ، فبدلا من أن يقوم بحركة هادئة محتشمة فعل شيئا آخر تماما . وسأل الشابين :

– وبعد ... ألا يزال صاحبنا الدب فى المكتب ؟

ـ من تقصد يا ياكوف بتروفتش ؟

ـ الدب ... ألا تعرفان من يطلق عليه اسم الدب ؟

قال جوليادكين ذلك وأخذ يضحك. والتفت نحو المستخدم يتناول باقى الدراهم ، ثم أضاف :

ـ هو آندره فيليبتش طبعا !

وضع النقود فى جيبه ، ثم كرر سؤاله بلهجة جادة جدا هذه المرة . فتبادل الموظفان نظرة ذات دلالة ، وقال أحدهما يجيبه :

ـ نعم يا ياكوف بتروفتش ... انه لا يزال فى المكتب ، حتى لقد طلبك .

ـ ها ... لا يزال هناك .. طيب ... فليق هناك . وقد طلبني اذن ؟

ـ نعم طلبك يا ياكوف بتروفتش . ولكن ماذا جرى لك ؟ أراك متعطرا متدهنا ... أنيقا كل الأناقة !

ـ نعم ، أيها السيدان ، نعم ... الخلاصة ...

قال السيد جوليادكين ذلك وحول عنهما بصره محاولا أن يبتسم .. واذ رأى الموظفان انه يبتسم أخذا يضحكان مقهقهين قهقهة صاخبة . فقطب السيد جوليادكين وعبس ، ثم قال بعد لحظة صمت ، عازما ، فيما يظهر ، على أن يكشف لهما عن حقيقة هامة :

ـ أحب أن أقول لكما ، أيها السيدان ، على مودة وصداقة ، انكما لم تعرفانى حتى الآن الا فى ضوء معين ... ولست ألوم أيا منكما على ذلك . ولعلنى أنا المسئول عنه .

زم السيد جوليادكين شفتيه وتفرس فى محدثيه وقد بدا فى وجهه الجد والوقار . فتبادل الشابان مرة أخرى نظرة عجلى مختلسة .

ـ انكما ، أيها السيدان ، لما تعرفانى بعد . وليس من المناسب فى هذه الساعة وفى هذا المكان أن أشرح لكما من أنا . ولكننى أحب أن أقول لكما بضع كلمات عابرا . ان هناك ، أيها السيدان ، أناسا لايحبون الطرق الملتوية كثيرا ، ولا يلبسون قناعا الا حين يذهبون الى حفلة مقنعة، أناسا يؤمنون بأن حياتهم يجب ألا تنقضى فى تعلم اتقان تلميع البلاط بنعالهم . وان هناك أيضا ، أيها السيدان ، أناسا لا يعدون أنفسهم فى ذروة السعادة حين يرتدون سراويل جميلة التفصيل . وان هناك ، آخر الأمر ، أناسا يكرهون أن يتحركوا كثيرا فيما لا طائل تحته ، ويحتقرون الاستعراضات والدسائس والتملق ، ويتحاشون فوق ذلك كله ، أيها السيدان ، أن يحشروا أنوفهم حيث لا يجب أن تكون . والآن اسمحوا أن أستأذنكم بالانصراف .

توقف جوليادكين عن الكلام . وبدا على الشابين الموظفين أنهما مسروران بكلامه المسهب كل السرور، لأنهما لم يلبثا أن انفجرا ضاحكين فى كثير من الوقاحة . التهب السيد جوليادكين غيظا وقال :

ـ اضحكا أيها السيدان .. اضحكا ما اتسع وقتكما للضحك ..

ثم أضاف مستاءً وهو يتناول قبعته ويتجه نحو الباب :

ـ من يعش ير ..

ولكنه عاد يلتفت نحوهما مرة أخيرة ليقول :

ـ ومع ذلك أيها السيدان ، أحب أن أقول لكما أيضا ، أحب أن أذهب الى أبعد من ذلك ، مادمنا هنا بين أربعة جدران ، فأقول لكما :

هذه مبادئى فى الحياة : « الصمود عند الاخفاق ، رباطة الجأش عند النجاح ، والامتناع عن الاضرار بأحد على أية حال من الأحوال». لست بالرجل الذى يحسن تدبير المكائد ، وانى بذلك لفخور . لست أصلح للدبلوماسية . يقال أيها السيدان ان الطائر يطير نحو الصياد قدما . الا أن فى هذا القول نصيبا من صدق ، وانى لأصدقه على كل حال . ولكن قولا لى : من الصياد ومن الطائر فى عالمنا هذا ؟ ... تلكما مسألة يجب أن تناقش أيها السيدان .

وبعد لحظة من صمت يفيض بلاغة ، اصطنع السيد جوليادكين هيئة أخرى جادةً وقورة الى أبعد حدود الجد والوقار ، ثم حيا محدثيه مقطب الحاجبين مزموم الشفتين ، وخرج تاركا صاحبيه على أشد حالة من الذهول .

سأله بتروشكا بلهجة قاسية ، وقد بدا عليه السأم من التجول فى هذا البرد القارص :

ـ الى أين نذهب الآن ؟

وكرر سؤاله ، فاذا هو يلتقى بنظرة رهيبة صاعقة ، بتلك النظرة التى سبق أن استعملها السيد جوليادكين مرتين فى الصباح ، ولجأ اليها الآن مرة أخرى وهو يهبط درجات باب المطعم .

ـ الى جسر اسماعيلوفسكى .

صاح بتروشكا :

ـ الى جسر اسماعيلوفسكى . هيا ! ...

«المفروض ألا يبدأ العشاء عندهم قبل الساعة الرابعة ... وقد لا يبدأ قبل الخامسه ... ألست اذن ذاهبا قبل الأوان ؟ ولكن ماذا لو

وصلت قبل الموعد ! هذا عشاء عائلى . نعم ... أستطيع أن أسمح لنفسى بالمجىء دون التقيد « بالرسميات » ... « بغير كلفة » كما يقال فى أوساط الناس المهذبين . لماذا لا يكون من حقى أن أتصرف «بغير كلفة» ؟ لقد أنبأنا الدب أن كل شىء سيكون « بغير كلفة » فى منزلهم ... فلماذا لا أستعمل أنا هذا الحق ؟ ... » ذلك كان مجرى خواطر السيد جوليادكين أثناء الطريق . ومع ذلك كان اضطرابه ما ينفك يزداد . كان واضحا أنه يتهيأ لمواجهة موقف حرج شائك ، اذا لم نقل أكثر من ذلك . كان السيد جوليادكين يهمس ، ويلوح بيده اليمنى ، وينظر من خلال باب العربة بغير انقطاع .

حقا ان من يراه فى هذه اللحظة على حالته تلك ، لا يمكن أن يتصور أنه ذاهب الى عشاء ، الى عشاء عائلى ، « بغير كلفة » ، كما يقال فى أوساط الناس المهذبين . ووصل أخيرا قرب جسر اسماعيلوفسكى ، فبين للحوذى احدى العمارات ، فاجتازت العربة باب العمارة مقرقعة ، وتوقفت عند سلم الجناح الأيمن من المبنى . ولمح السيد جوليادكين على نافذة الطابق الثانى وجه امرأة ، فبعث اليها بقبلة على راحة يده . والحق أنه لم يكن يدرك هو نفسه ماذا يفعل ... كان فى تلك اللحظة لا ميتا ولا حيا . وخرج من العربة ، شاحب الوجه ، مضطرب النفس ، وصعد درجات المدخل ، ونزع قبعته بحركة آلية ، وعدل ثيابه واندفع يصعد السلم مصطك الركبتين .

سأل الخادم الذى جاء يفتح له الباب :

ـ هل أولسوفى ايفانوفتش فى بيته ؟

فأجابه الخادم :

ـ نعم هو فى بيته ... بل ليس هو فى بيته ..

ـ كيف ؟ ماهذا الذى تقوله ياصديقى ؟ أنا آت للعشاء أيها الرجل الشهم • ثم انك تعرفنى •

ـ طبعا • ولكنى أُمرت أن لا أدعك تدخل •

ـ أنت ••• أنت مخطىء ••• ولا شك • هـذا أنا •• أنا مدعو ••• مدعو الى العشاء يا صاحبى ••

كذلك قال السيد جوليادكين متدفقا فى الكلام ، نازعا عنه معطفه ، عازما على الدخول الى الصالون •

قال الخادم :

ـ معذرة • ممنوع • لقد أُمرت بأن لا أستقبلك ••• أمرت بأن أمنعك من الدخول • هذا كل شيء •

امتقع لون السيد جوليادكين • وفى هذه اللحظة فتح باب احدى غرف البيت ، وأقبل منها الى حجرة المدخل الخادم العجوز الذى يعمل عند أولسوفى ايفانوفتش •

قال الخادم الأول يخاطب العجوز :

ـ يا ايميليان جيراسيموفتش ••• أنظر الى هـذا السيد ••• انه يريد الدخول ، وأنا •••

ـ أنت غبى يا ألكسى • امض الى الخـدمة فى الصالونات ، وابعث الىّ بذلك الوغد سيميوفتش •

قال جيراسيموفتش ذلك ، ثم التفت الى السيد جوليادكين ، فأعلن له بلهجة مهذبة ولكنها قاطعة :

ـ ممنوع يا سيدى . مستحيل استحالة مطلقة يا سيدى . مولاى يرجوك أن تعذره . انه لا يستطيع أن يستقبلك .

ـ هل أوضح لك بدقة أنه لا يستطيع أن يستقبلنى ؟

كذلك قال جوليادكين خجلا . ثم أضاف :

ـ معذرة يا جيراسيموفتش ... ولكن لأى سبب هذه الاستحالة المطلقة ؟

ـ هكذا .. مستحيل استحالة مطلقة .. لقد أعلنت وصولك ، فقيل لى : « اطلب منه أن يعذرنا » . الخلاصة ... لا يستطيع مولاى أن يستقبلك ...

ـ ولكن لماذا ؟ كيف ؟ كيف ؟

ـ عجيب ! اسمح لى ...

ـ ولكن لماذا ؟ هذا غير ممكن . قل لى ... ولكن ... لماذا ؟ أنا مدعو الى العشاء ... « على كل حال اذا كان يطلب أن أعذره فذلك أمر آخر .. وعلى ذلك يا جيراسيموفتش ... اشرح له ... أرجوك .

ـ عفوا ... اسمح ...

قال جيراسيموف ذلك وهو يبعد بيده السيد جوليادكين جازما ، فاتحا بذلك ممرا عريضا لسيدين دخلا الدهليز . انهما آندره فيليبوفتش وابن أخيه ، فلاديمير سيميونوفتش . تفرس الرجلان كلاهما فى السيد جوليادكين مذهولين . وأراد آندره فيليبوفتش أن يقول شيئا ، ولكن السيد جوليادكين كان قد عزم أمره، فها هو يغادر حجرة المدخل خافض العينين ، محمرّ الوجه ، مشعث الهيئة ، وعلى شفتيه ابتسامة حزينة .

ـ سأمر فيما بعد يا جيراسيموفتش . سأجيء أشرح الأمر ... لا شك في أن كل شيء سيتضح في حينه .

دمدم بذلك وهو يجتاز العتبة منتقلا الى فسحة السلم .

ـ ياكوف بتروفتش ، ياكوف بتروفتش ...

كذلك نادى آندره فيليبوفتش وهو يهرع وراء بطلنا . وكان بطلنا قد أصبح على فسحة الطابق الأدنى . فالتفت بقوة نحو آندره فيليبوفتش . سأله بصوت قاطع :

ـ ماذا تريد يا آندره فيليبوفتش ؟

ـ ما الذى جرى يا ياكوف بتروفتش ؟ ماذا بك ؟

ـ لا شيء يا آندره بتروفتش . لقد جئت الى هنا من تلقاء نفسى . هذا شأن من شئون حياتى الخاصة يا آندره فيليبوفتش .

ـ ماذا تقول ؟

ـ أقول ان هذا شأن من شئون حياتى الخاصه يا آندره فيليبوفتش ، وأحسب أنه ليس لأحد أن يأخذ عليّ شيئا من سلوكى فيما يتصل بعلاقاتى الرسمية .

ـ ماذا تقول ؟ فيما يتصل بعلاقاتك الرسمية ؟ ... ولكن ماذا بك أيها السيد ؟ ماذا بك ؟

ـ لا شيء ... يا آندره فيليبوفتش . لا شيء اطلاقا . بنيّة وقحة .. ولا شيء غير ذلك .

ـ كيف ؟ كيف ؟

اضطرب آندره فيليبوفتش ، وذهل ، فأصبح لا يعرف ماذا يقول

.. وكان السيد جوليادكين أثناء ذلك الحوار ما يزال واقفا على فسحة سلم الطابق الأدنى ، محدقا ببصره الى رئيسه ، وكأنه يهم أن يثب عليه فى كل لحظة . واذ أدرك بطلنا اضطراب محدثه خطا خطوة الى أمام ، بغير شعور تقريبا . فتراجع آندره فيليبوفتش خطوة أيضا . فتقدم جوليادكين مزيدا من التقدم ، فنظر آندره فيليبوفتش حواليه وقد بدا فى وجهه القلق . وفجأة أخذ السيد جوليادكين يصعد السلم بخطى سريعة .. ولكن خصمه وثب أسرع منه ، فدخل البيت ، وأغلق الباب وراءه .

لبث السيد جوليادكين وحيدا على السلم . زاغت عيناه . ظل واقفا هنالك ، مصعوقا ، مسمّرا ، يجتر خواطر غريبة . عادت الى خياله ذكرى . انها ذكرى تتصل بموقف عجيب وجد فيه منذ مدة قصيرة .

دمدم يقول وهو يحاول أن يبتسم :

ـ هه هه ...

وفى تلك اللحظة سمع وقع أقدام وصوت كلام فى الطابق الأدنى .. لا شك أنهم مدعوون آخرون من ضيوف أولسوفى ايفانوفتش . ثاب السيد جوليادكين الى رشده ، فأسرع يرفع ياقة فراء معطفه ، ويخفى وجهه فيها ما استطاع اخفاءه ، ثم أخذ يهبط السلم بخطى سريعة ، متواثبا متعثرا ، يوشك أن يسقط عند كل خطوة . كان يشعر بوهن ، ويحس بنوع من الخدر . وقد بلغ من الاضطراب أنه حين وصل الى درجات المدخل لم ينتظر أن تتقدم العربة اليه ، بل اتجه هو اليها مجتازا الفناء الموحل . وحين همّ أن يصعد الى العربة أحس فجأة برغبة قوية فى أن يغور تحت الأرض أو أن يختبىء هو وعربته فى جحر من جحور الفئران . خُيّل اليه أن جميع من كانوا فى هذه اللحظة عند أولسوفى

قد وقفوا ينظرون اليه ، أحس أنه لو التفت لحظة واحدة لمات على الفور في مكانه .

ـ ما الذي يضحكك أيها الغبي ؟

كذلك سأل بتروشكا بعنف بينما كان بتروشكا يساعده في ركوب العربة :

ـ أنا ؟ لا شيء ! لست أضحك ... الى أين نذهب الآن ؟

ـ الى البيت . بسرعة .

صاح بتروشكا وهو يستقر في مؤخرة العربة :

ـ الى البيت !

« بوز غراب » . كذلك قال السيد جوليادكين في نفسه .

وتحركت العربة ... وقطعت جسر اسماعيلوفسكى ، فاذا بالسيد جوليادكين يشد الحبل شدا قويا بعد مدة على حين فجأة ، ويأمر الحوذى بالعودة القهقرى . فيدير الحوذى الحصانين ، ويصل بعد دقيقتين مرة أخرى الى الفناء من العمارة التي يقع فيها منزل أولسوفى ايفانوفتش .

صاح بطلنا :

ـ قف . لا داعى . اخرج .

وكأن الحوذى كان يتوقع أن يصدر اليه هذا الأمر الجديد ، فلم يحتج ، بل دار في الفناء دون أن يتوقف وخرج الى الشارع .

لم يأمره السيد جوليادكين بأن يعود به الى منزله ، بل أمره بأن يقطع جسر سيميونوفسكى ، ثم أمره بدخول شارع صغير ، ثم بالتوقف

عند حانة حقيرة المظهر • هنالك نزل من العربة ، فنقد الحوذى أجره ، وأمر بتروشكا أن يمضى ينتظره فى البيت • أما هو فقد دخل الحانة ، فاتخذ لنفسه مكانا خاصا وأمر بعشاء • كان فى حالة نفسية سيئة • ان رأسه مقر سديم لا يصدّق • سار فى الصالون زمنا ، وهو نهب قلق شديد • وجلس آخر الأمر دافنا جبينه فى يديه ، وأخذ يفكر بكل ما أوتى من قوة باحثا عن حل للمشكلة التى يطرحها الموقف •

الفصل الرابع

أقيمت فى ذلك اليوم الرائع الفخم ، وهو عيد ميلاد كلارا أولسوفيفنا ، البنت الوحيدة لمستشار الدولة بيرنديف ، الذى كان فى الماضى حاميا للسيد جوليادكين، أقيمت فى ذلك اليوم حفلة عشاء ذات أبهة وعظمة وجلال لم يُشهد لها مثيل منذ زمن طويل فى منازل كبار الموظفين من حى اسماعيلوفسكى وغيره ، حفلة عشاء لها مظاهر وليمة من ولائم بلتازار ، يذكر بذخها وترفها وتنسيقها بالمآدب البابيلونية الكبرى • لم يعوز هذه الحفلة شىء ، لا شمبانيا كليكو ، ولا المحار ، ولا الفاكهة التى تشترى من محلات ايليسييف وميلوتين الشهيرة • كانت الصالونات مزدحمة بجمهرة مرموقة متلألئة من الناس تضم جميع كبار موظفى الحكومة • وقد اختتم ذلك اليوم المشهود الذى تميز بتلك الوليمة الفاخرة ، اختتم بحفلة راقصة ، كانت عائلية طبعا ، ولكن ذلك لا يمنع أنها كانت رائعة فخمة الى أبعد حدود الروعة والفخامة ، سواء من ناحية حسن الذوق ومن ناحية علو مقام الشهود •

انا أعلم أن الحفلات الراقصة التى من هذا النوع موجودة ، ولكنها نادرة. انها اعياد كبرى يحتفل بها احتفالا عائليا ، وهذه الاعياد لا تقوم عادة الا فى بيوت راقية جدا ، كبيت مستشار الدولة بيرنديف مثلا . بل اننى لأذهب الى أبعد من ذلك فأدعي أن مستشارى الدولة لا يقدرون جميعا على اقامة مثل هذه الحفلات ! اه ... يا ليتنى كنت شاعرا ! ... شاعرا له مواهب هوميروس او بوشكين (ذلك اننى بمواهب دون مواهب هذين الشاعرين لا اجازف ...) اذن لصورت لك ، أيها القارىء ، بريشة بارعة والوان زاهية ، الخطوط الكبرى من ذلك الاصيل المظفر !

لو كنت شاعرا املك تلك المواهب لبدات قصيدتى بوصف العشاء ... ولألححت خاصة على تلك اللحظة الفذة الفريدة الفخمة ، التى رفع فيها أول كأس احتفاء بملكة ذلك اليوم : كنت سأظهرك أولا على المدعوين وقد تجمدوا انتظارا ، وصمتوا صمتا مهيبا ، صمتا هو الى بلاغة ديموستين أقرب منه الى البكم . ثم أقدم اليك آندره فيليبوفتش ، عميد هذا الحفل ، الذى يمتاز فوق ذلك بجميع حقوق الصدر ، اذ نهض مزين الصدر بالأوسمة ، تزينا ينسجم وشعره الأشيب ، فنطق بأولى التمنيات ، رافعا كأسه المملوءة بخمر نادر ، خمر يستورد من مملكة بعيدة للاحتفال بأحداث هى على هذا القدر من خطورة الشأن وعلو القيمة ، خمر هى شراب ثمين أشبه برحيق الآلهة منه بخمر البشر ؟ ولصورت لك بعد ذلك المدعوين وأبوى ملكة اليوم السعيدين ، لحظة رفعوا كئوسهم اقتداء بآندره فيليبوفتش ، وقد ثبتت نظراتهم عليه بانتظار خطابه .

ولأريتك آندره فيليبوفتش نفسه ، وقد تأثر تأثرا عميقا فذرف فى كأسه دمعة خاطفة ، ثم لصورته لك يكيل المديح للجميلة ويعرب لها عن تمنياته ويقترح على المدعوين أخيرا أن يشربوا نخبها ، ويفرغ كأسه...

ولكنني أعترف لك بكثير من التواضع أيها القارىء أنني كنت سأعجز حتما عن وصف تلك اللحظة التي تمتاز بروعة قصوى ، أعني اللحظة التي رئيت فيها كلارا أولسوفيفنا ، ملكة هذا العيد ، يزهو وجهها كوردة من ورود الربيع ، وتحمر سعادة وخفرا ، ثم ترتمي بين ذراعي أمها الحنون وقد فاضت نفسها انفعالا . وكنت سأعجز كذلك عن تصوير هذه الأم الحنون ذارفةً دموع السعادة ، وعن تصوير الأب أولسوفي ايفانوفتش مستشار الدولة . لقد كان هذا الشيخ المحترم الوقور ينشج باكيا ؛ نعم لقد كان هذا الرجل الذي فقد خلال السنين الطويلة التي قضاها في الوظائف استعمال ساقيه ، ولكن كافأه القدر على ذلك مكافأة عادلة، فزوده بمال كثير ، ومنزل جميل ، وأملاك عدة ، ووهب له ، خاصة، ابنةً جميلة كالنهار ، أقول كان هذا الرجل ينشج باكيا كطفل ، ويؤكد من خلال الدموع ان « صاحب السعادة محسن عظيم ... » . لا ... ما كان لي بحال من الأحوال أن أصف الانفعال الشديد الذي استولى في تلك اللحظة على الحضور الذين تعلقت أبصارهم بشفتي آندره فيليبوفتش .

ان موظفا شابا من موظفي السجل (وكان مظهره في تلك الدقيقة أقرب الى مظهر مستشار محترم منه الى مظهر موظف بسيط في السجل)، لم يستطع أن يحبس عندئذ دموعه ، فعبر بذلك عن انفعال سائر الحضور.

وكان مظهر آندره فيليبوفتش ، من جهة ، لا يشبه في تلك اللحظة مظهر مستشار ، مظهر رئيس دائرة ... لا ... وانما كان مظهره مظهرا آخر ، مظهرا لا أستطيع أن أصفه ، ولكنه ليس مظهر مستشار على كل حال ... فلقد كان يحلق ... كان فوق كل هذا ...

وأخيرا ، لو كنت أملك تلك المواهب ادن لـ ... ولكن أين أنا من الأسلوب الناصع الرفيع ، أين أنا من الأسلوب القوي المشرق الذي يمكنني

من وصف الجو العاطفى المؤثر فى تلك اللحظات الرائعة التى تهيب بالمرء الى السمو الأخلاقى ، وهى لحظات من الحياة يبدو كل شيء فيها أنه يسهم فى تأكيد ظفر الفضيله على الجمود والكفر والرذيلة والحسد ... لا .. اننى أوثر أن أصمت ، وأوثر بالصمت ، بصمت هو أبلغ من الكلام ، أن أصف لكم ذلك الفتى السعيد الذى شارف على السادسة والعشرين من عمره ، فلاديمير سيميونوفتش ؟ ابن أخى آندره فيليبوفتش . انه الآن واقف يقترح ، بدوره ، نخبا آخر .

جميع النظرات معلقة به : نظرات الأبوين المخضلة بالدموع ، ونظرات عمه الساطعتين اعتزازا ، والنظرات التى تفيض خفرا وحياء من ملكة اليوم ، والنظرات التى تشع حماسة من أكثر المدعوين ، وأخيرا نظرات بعض زملاء هذا الشاب اللامع ، وهى نظرات تقرأ فيها شيئا من حسد . أريد أن أصمت . ولكن هذا الفتى ملىء بما يجتذب اليه ويغرى فيه . والحق أن مظهره أقرب الى مظهر شيخ ، بالمعنى الحسن من معانى هذا التشبيه طبعا . ان وقفته ووجهه المحمر ورتبته (وهى رتبة معاون فاض) التى تلتحم به التحاما فكأنهما شيء واحد ، ذلك كله كان فى تلك اللحظة كأنه يهتف قائلا : « تلك هى الدرجات القصوى من السعادة التى يمكن أن تقود الفضيلة انسانا اليها . » . لا ولا أريد أن أروى لكم تفصيلا كيف اقترح أنطون أنطونوفتش سينوشكين ، الموظف برتبة رئيس دائرة، زميل آندره فيليبوفتش ، وزميل أولسوفى ايفانوفتش فى الماضى ، والصديق القديم للأسرة ، وعرّاب الفتاة فوق ذلك، نعم كيف اقترح هذا الشيخ العجوز ، ذو الجمجمة التى تشبه القمر ، نخبا آخر هو أيضا ، وكيف غنى على طريقة الديك بعض الأمازيح المقفاة . ان هذا التجرؤ الذى كان نسيانا لائقا للياقة ـ ان صح التعبير ـ فد أضحك جميع الحضور حتى الدموع ، وهذه كلارا أولسوفيفنا نفسها تنهض بموافقة أبويها فتقبله

وتشكره فى كثير من اللطف والمرح • وحسبى أن أضيف أن المدعوين ، كما 'ينتظر ذلك فى ختام وجبة كهذه الوجبة ، قد أخذوا يشعرون ، بعضهم نحو بعض ، بعواطف حارة جدا ، أخوية جدا •

ونهضوا أخيرا عن المائدة • فأما الرجال المتقدمون فى السن بعض التقدم ، فانهم بعد أن تبادلوا كلمات تتسم بالمودة الحارة والصداقة الحميمة، انسحبوا فى وقار الى الصالون القريب • وأما الشباب ـ وكان الوقت ثمينا ما ينبغى أن يضيع سدى ـ فلم يلبثوا أن جلسوا الى موائد القمار الخضراء شاعرين شعورا عميقا بقيمتهم الخاصة • وأما السيدات اللواتى مكثن فى الصالون الكبير فسرعان ما تلطفن تلطفا نادرا فذا وأخذن يتحدثن فى شئون الزينة • وهذا رب المنزل ، الشيخ المحترم الذى فقد استعمال ساقيه فى خدمة العدالة والحقيقة وكوفىء على النحو الذى ذكرناه آنفا ، يطوف على حلقة ضيوفه متوكئاً على عكازين ، تسنده ابنته وفلاديمير سيميونوفتش • وتستبد بالشيخ النبيل على حين فجأة لطافة عجيبة فيقرر أن يقيم حفلة راقصة مرتجلة دون أن يهتم بالنفقات • وهذا فتى نشيط (هو ذلك الموظف فى السجل ، الذى قلنا انه أشبه بشيخ محترم منه بمراهق) ، يرسل فورا للمجىء بموسيقين على جناح السرعة •

وصل الموسيقيون بعد قليل ، وعددهم أحد عشر موسيقيا ، وفى الساعة الثانية والنصف تماما دوت أولى ألحان رقصه فرنسية ، ثم تبعتها رقصات أخرى ••• لا داعى الى القول ان ريشتى لا تملك من الرهافة والقوة ما يمكننى من أن أصف وصفا أمينا هذه الحفلة الراقصة المرتجلة التى تكرم بها رب المنزل المبيض الرأس ، لما أوتى من لطف فذ وكرم نادر • وأنى لى أنا القصاص المتواضع الذى يروى مغامرات السيد جولیادكين ـ وهى مغامرات عجيبة ، أعترف بذلك ـ أنى لى أن أنقل الى

القارىء ذلك التألق الخارق والانسجام الرائع فى ذلك العيد الذى ائتلف فيه الجمال والتلألؤ والفرح والمرح ائتلافا موفقا مع الأناقة المحتشمة والاحتشام الأنيق • كيف أصف ألعاب وضحكات جميع هاته السيدات اللواتى كن أشبه بغادات أساطير منهن بنساء موظفين ــ وذلك مديح أزجيه لهن ــ كيف أصف وجناتهن وأكتافهن التى تشبه أن تكون ألوانها ألوان زهر الليلك ، كيف أصف قاماتهن المشوقة وأقدامهن الصغيرة الماكرة النشيطة ••• وكيف أصف فرسانهن اللامعين ، هؤلاء الممثلين المحترمين للادارة الحكومية !

ان المراهقين والكهول ، الفرحين والرصينين من الشبان ، والمرحين والحالمين ، والذين يمضون بين كل رقصة ورقصة الى الصالون الأخضر الصغير ليدخنوا غليونا والذين لا يدخنون بين كل رقصة ورقصة ••• ان هؤلاء جميعا يحملون أسماء مجيدة • ان لهم جميعا ألقابا شريفة • انهم جميعا يفيضون لباقة ورشاقة وأناقة ، ويشعرون شعورا عميقا بقيمتهم ومنزلتهم • ويكادون يتخاطبون جميعا بالفرنسية ، وحتى الذين يستعملون منهم اللغة الروسية يعبرون عن أنفسهم بطريقة رفيعة راقية مزاوجين بين المرح وبين الجمل المثقلة بالمعانى • فى صالون التدخين ، فى صالون التدخين فقط ، كانوا يسمحون لأنفسهم بشىء يسير من الخروج على اللغة الراقية ، فتفلت من ألسنتهم جملة مألوفة لطيفة من هذا النوع : « هيه••• يا بيرو التقى النقى ••• لقد عرفت كيف تفضح صاحبتك » أو « مرحى أيها الوغد فاسيا ، لقد وصلت الى غاياتك ، عرفت كيف تتعب غادتك بغير رحمة • » •

ولكن قلمى يخوننى أيها القارىء ، كما سبق أن تشرفت بأن قلت لك هذا • لذلك أوثر أن أصمت أو قل أن أعود الى السيد جوليادكين البطل الحقيقى لهذه القصة الصادقة •

يجب أن أقول ان حالته الآن غريبة بعض الغرابة ، اذا لم أقل أكثر من ذلك . انه حاضر هناك ، هو أيضا ، أيها السادة . ليس حاضرا فى حفلة الرقص ، ولكنه يشبه أن يكون حاضرا فيها . ليس لديه أية نية سيئة يا سادتى . انه لا يريد أن يسىء الى أحد . ولكنه مع ذلك فى منعطف سىء . هو الآن — وانه لغريب حتى أن نقول هذا — فى دهليز سلم الخدمة بمنزل أولسوفى ايفانوفتش . لا شىء فى ذلك يا سادتى ، لا شىء فى ذلك . ان السيد جوليادكين لم يفكر فى أى سوء . هو الآن قابع فى ركنه الصغير . لقد لطا فى ركن صغير غير دافىء جدا بطبيعة الحال ، ولكنه ركن مظلم فى مقابل ذلك ، تخفيه بعض الاخفاء خزانة ضخمه وحواجز قديمة . انه فى وسط كومة من الخرق العتيقة والأوانى القديمه . انه مختف فى هذه اللحظه ، يراقب ، ويتابع مجرى الأحداث مشاهدا محايدا . انه حتى الآن ، أيها السادة ، لا يزيد على أن يلاحظ . فى وسعه طبعا أن يدخل هو أيضا أيها السادة ... ولماذا لا يكون فى وسعه أن يدخل ! ليس عليه حتى يدخل الا أن يتقدم خطوة واحدة . سيعرف كيف يدخل برشاقة . انه قابع هناك منذ ثلاث ساعات ، فى البرد ، وراء الخزانة والحواجز ، وسط كل هذه الأكداس . انه ينتظر . ومن أجل أن يبرر نفسه أمام نفسه ، تذكر منذ لحظة جملة للوزير الفرنسى السابق فيليل : « من صبر ظفر » . لقد قرأ هذه العبارة سابقا فى كتاب لا قيمة له ، وهى تعود الآن الى ذاكرته فى وقتها تماما . انها تناسب وضعه الراهن جدا . ويجب أن نقول أيضا أن أفكارا كثيرة تراود خاطر انسان يمكث منتظرا ، فى دهليز بارد مظلم ، خلال ثلاث ساعات ، أن تنتهى الأحداث الجارية الى حل موفق .

هكذا ، بعد أن تذكر جملة الوزير الفرنسى فى الوقت المناسب ، خطر بباله — لا يدرى الا الله لماذا — الوزير التركى القديم مارزيميريس ،

ثم خطرت بباله مارجراف لويز الجميله ، التى كان قد قرأ قصتها فى أحد الكتب • ثم خطر بباله بعد ذلك أن اليسوعيين قد اتخذوا مبدأً لهم أن يعدوا جميع الوسائل حسنة متى كانت تؤدى الى تحقيق الغاية المنشودة • ان تذكر هذه الحقيقة التاريخية قد بث فى نفس السيد جوليادكين شيئا من الثقة • حتى لقد استخرج منها على الفور أن هؤلاء اليسوعيين ، أن جميع اليسوعيين ، من أولهم الى آخرهم ، أغبياء أقصى الغباوة ، وانه قادر على أن يضعهم جميعا فى جيبه ! ••• آه ••• ليت الغرفة التى يوجد فيها البوفيه خالية ، ولو دقيقة واحدة (هى الغرفة التى تتصل رأسا بالدهليز الذى يقبع فيه السيد جوليادكين فى هذه اللحظة) ••• لو كانت خالية اذن لاجتاز هذه الغرفة ، رغم جميع اليسوعيين ، ولانتقل بعد ذلك الى الصالون الكبير ، فالى غرفة القمار ، من أجل يدخل من هناك الى القاعة التى يقوم فيها رقص البولكا • نعم ، لو كانت الغرفة خالية اذن لمر حتما ، مهما كلف الأمر ••• ان فى وسعه أن يتسلل خفية ••• فما يلاحظه أحد ، وتنجح حيلته ••• وسيعرف عندئذ ماذا بقى عليه أن يعمل ••• تلك كانت ، فى هذه اللحظة ، الحالة النفسية لبطل قصتنا الصادقة ، رغم أنه ما يزال يصعب علينا كثيرا أن نصف عواطفه وصفا دقيقا •

طبعا ، لقد استطاع أن يصل الى سلم الخدمة والى الدهليز على أساس التفكير التالى : « ماداموا قد وصلوا هم ، فلماذا لا أصل أنا ؟ » • أما أن يمضى الى أبعد من ذلك ، فهذا أمر آخر ••• انه لم يجرؤ أن يفعل ••• لا عن جبن طبعا ، بل بمحض ارادته : انه يؤثر أن يتصرف خفية ••• وهو الآن يرقب فرصة التسلل خلسة • انه يرقب هذه الفرصة منذ ثلاث ساعات • ولماذا لا يصبر ؟ ان فيليل نفسه قد صبر • « ولكن ما شأن فيليل هنا ؟ » • كذلك قال السيد جوليادكين لنفسه فجأة ،

ثم من هو فيليل هذا ؟... أما أنا فيجب عليّ الآن أن أتمكن من الدخول ... فما العمل ؟ ألا انك أشبه بأولئك الممثلين الثانويين الذين لا يفعلون شيئا ولا يقولون شيئا على خشبة المسرح ... ألا انك لشخص غبي أبله». هكذا قال جوليادكين لنفسه وهو يقرص خده المتجلد بأصابعه المتخدرة من شدة البرد . « ما أنت الى جوليادكا مسكين ، لا أكثر من ذلك ... أنت اسم على مسمى ! » .

يجب أن نذكر أن هذه المداعبات الصغيرة التي داعب بها جوليادكين شخصه قد نطق بها جوليادكين دون أي هدف معين ، بل تزجية للوقت فحسب . ولكن ها هو ذا يتقدم . لقد خلا البوفيه . لم يبق فيه أحد . لاحظ جوليادكين ذلك من كوة صغيرة ... خطوتان ، فاذا هو على الباب . وهمّ أن يفتح الباب ...

« أأمضي أم لا أمضي ؟ نعم ، أأمضي أم لا أمضي ؟ بل سأمضي ... لماذا لا أمضي ؟ الشجاع يجد طريقه دائما . » . بث هذا التفكير بعض الثقة في نفس بطلنا . ولكن ها هو ذا يتراجع فجأة . « لا ... لا يجب ... هب أحدا دخل في هذه اللحظة ... هذا واحد يدخل فعلا . لماذا تكاسلت ببلاهة حين كانت الطريق خالية ؟ يجب أن أقتحم وأن أدخل مهما كلف الأمر ... يجب أن أقتحم . الكلام سهل . جرب أن تقتحم وأنت على ما أنت عليه من طبع متردد ، ومزاج جبان . لقد خفت ... كدجاجة مبللة . هو الهلع والجزع ... ما في ذلك شك ... أنا أعرفك .. هو الجبن .. أعرفه فيك .. لا جدال في هذا .. اذن ليس عليك الا أن تبقى حيث أنت ، كرزمة ، كرزمة لا أكثر .. لو كنت في منزلي الآن لكنت بسبيل احتساء فنجان طيب من الشاي . واذا تأخرت عن العودة سيأخذ بتروشكا يفيق حتما ... أليس الأفضل أن أعود الى

المنزل ؟ نعم ، والى جهنم كل ما عدا ذلك ! هيا ، سأعود . انتهى الأمر .. » .

ما ان اتخذ جوليادكين هذا القرار حتى وثب وثبة مفاجئة الى أمام ، كأن نابضا قد انفلت فيه على حين بغتة . فاذا هو ، بخطوتين اثنتين ، فى القاعة المخصصة للبوفيه . وما لبث أن خلع معطفه بسرعة ، ونزع قبعته ، فدسهما فى ركن ، ثم رتب شعره وزينته بعض الترتيب ، و ... و ... أخيرا ، تقدم .. فاجتاز الصالون ، وتسلل من هناك الى غرفة أخرى ، فمر بين المقامرين المحمومين دون أن يلاحظه أحد ... وبعدئذ ... ابتداء من تلك اللحظة أصبح السيد جوليادكين لا يدرك شيئا مما يجرى حوله ، وها هو ذا يظهر فى قاعة الرقص منقضاً انقضاض الصاعقة .

وشاءت المصادفة التى تشبه التعمد ، أن يكون الرقص متوقفا فى تلك اللحظة بعينها . السيدات يتجولن فى القاعة جماعات متألقة.والرجال مجتمعون حلقات تتحدث ، وبعضهم يطوفون فى القاعة محتجزين حسناواتهم للرقصة القادمة . ولكن السيد جوليادكين لم ير الا كلارا أولسوفيفنا ، والا آندره فيليبوفتش الى جانبها . ولاحظ أيضا فلاديمير سيميونوفتش ، ثم لاحظ ضابطين أو ثلاثة ، وشابين أو ثلاثة شبان لهم مظهر ملىء بوعود كثيرة ... وعود يكون بعضها فى بعض الأحيان قد تحقق ... وكأن النابض الذى دفع جوليادكين دفعا الى دخول حفلة الرقص التى لم يُدع اليها كان ما يزال يحركه هو نفسه . فها هو ذا يتقدم ثم يتقدم ، فيصطدم فى طريقه بمستشار ويدوس على قدمه ؟ ثم يسير أثناء اندفاعه على أطراف من ثوب سيدة عجوز فيمزقه ، ويزحم خادما كان يطوف على المدعوين بطبق ، ويصدم سيدا آخر أيضا ، ولكن دون أن يلاحظ شيئا من هذا كله ، أو قل متظاهرا بأنه لا يلاحظ شيئا

ولا يرى شيئا ، وانما هو يتقدم ثم يتقدم الى أن وجد نفسه وجها لوجه أمام كلارا أولسوفييفنا .

لا شك أبدا ، نعم لا ريب اطلاقا فى أنه لو استطاع فى هذه اللحظة بعينها أن يغيب تحت الأرض الى الأبد ، لفعل ذلك بغير أى تردد، وبسرور عظيم . ولكن فات الأوان ، وما وقع فقد وقع .

أمر لا يغتفر ... ما الذى بقى عليه أن يعمله ؟ قال السيد جوليادكين لنفسه : « الصمود عند الاخفاق ، والاستمرار عند النجاح ».. ليس السيد جوليادكين انسانا ماكرا يدبر المكائد ، انه لا يملك فن تلميع خشب الأرض بنعليه ... ذلك هو الأمر . وشر ما فى المسألة أن هؤلاء اليسوعيين يتدخلون ... اليسوعيون ... لا شأن له بهم الآن . وها هم جميع أولئك الناس الذين كانوا حتى تلك اللحظة يتجولون ويتحدثون ويضحكون ، ها هم أولاء يتوقفون فجأة بما يشبه السحر ، ويصمتون ويتحلقون دائرةً حول السيد جوليادكين .

أما بطلنا فكأنه كان لا يرى شيئا ولا يسمع شيئا ... كان لايستطيع أن ينظر اليهم .. لا .. ما كان له أن ينظر اليهم بحال من الأحوال. كان واقفا هنالك ، مسمّرا على قدميه ، مطرقا الى الارض .

قال فى نفسه « يمينا لأطلقن على رأسى رصاصة فى هذه الليلة .. أما الآن فليكن ما يكون . » . وما كان أشد دهشته وأعمق انشداهه هو نفسه حين أخذ يتكلم فجأة . بدأ السيد جوليادكين كلماته بالتهنئات والتمنيات المألوفة .

انطلق يزجى التهنئات بلا مشقة ، ولكنه حين وصل الى التمنيات أخذ يدمدم. وشعر فى ذات نفسه أنه اذا أخذ يجمجم بكلام غير مفهوم

فقد فسد كل شىء حتما . وذلك ما وقع . لقد تخبط لسانه ... فتوقف عن الكلام ... غاص فى الكلمات ، احمر وجهه ، فقد توازنه .. رفع عينيه .. طاف بها على الحضور طويلا .. تفرس فى الناس .. انهار .

المدعوون من حوله جامدون ، بكم ، ينتظرون النهاية . وأخذت دمدمات تسمع خارج الحلقة . وانطلقت ضحكات . نظر السيد جوليادكين الى آندره فيليبوفتش نظرة مذلة وخضوع . فرد عليه آندره فيليبوفتش بنظرة كانت خليقة أن تلقيه على الارض جثة هامدة بدون شك ، لولا أنه كان قد أصبح أقرب الى الموت منه الى الحياة قبل ذلك . وطال الصمت.

تمتم السيد جوليادكين يقول بصوت لا يكاد يسمع ، وهو يشبه أن يكون ميتا من شدة الذعر :

— مرد هذا كله الى ظروفى الخاصة ، الى حياتى الخاصة يا آندره فيليبوفتش . ليس هذا خطوة رسمية يا آندره فيليبوفتش .

أجابه آندره فيليبوفتش بصوت أجش :

— ينبغى لك أن تستحى أيها السيد ، ينبغى لك أن تستحى .

كان آندره فيليبوفتش فى ذروة الاستياء . وتناول يد كلارا أولسوفيفنا وأدار ظهره للسد جوليادكين .

— ليس لى أن أستحى يا آندره فيليبوفتش . مم أستحى ؟

كذلك تمتم السيد جوليادكين ، بينما كانت عيناه تطوفان على الحفل باحثتين بين أفراد هذا الجمهور المتجمد عن وجه معروف ، عن انسان من بيئته ، من منزلته الاجتماعية .

وأردف يقول بصوت ما يزال خافتا :

— ليس هذا بشىء يا سادتى ، ليس هذا بشىء ، أؤكد لكم ، ماهذا بشىء . ذلك أمر يمكن أن يقع لجميع الناس .

وحاول جوليادكين أن يخرج من الحلقة مترددا متعثرا فأفسح له ممر . واستطاع بطلنا أن يتسلل بين صفين من المشاهدين المبهوتين المستطلعين المتعجبين . لقد كان قدره يقوده . أدرك السيد جوليادكين ذلك ادراكا كاملا . لا شك أنه كان مستعدا لأن يدفع أغلى ثمن فى سبيل أن يجد نفسه مرة أخرى فى ركنه الصغير ذاك من دهليز سلم الخدم ، دون أن يكون عليه من أجل ذلك أن يخالف قواعد الحشمة والأدب . ولكن ذلك كان مستحيلا بعد الذى وقع . لذلك وجه جميع جهوده نحو العثور على ركن صغير هادىء ، ركن صغير يستطيع أن يندس فيه ، أن يلبد فيه . لو استطاع أن يقع على مثل هذا الركن لمكث هنالك متواضعا ساكنا مسالما لا يزعج أحدا ولا يلفت اليه نظر أحد ؛ ولاستطاع بسلوك لا مأخذ عليه أن يحظى بحسن معاملة المدعوين ورب المنزل .

ولكن جوليادكين شعر فى تلك اللحظة بنوع من دوار . شعر أن قواه تخور ، وأنه يوشك أن يسقط . وكان قريبا جدا من الركن الصغير المنشود ، فالتجأ اليه واعتصم به ، واستقر هنالك ، ثم لم يلبث أن اتخذ وضع مشاهد يلاحظ ملاحظة محايدة . وفى الوقت نفسه اختطفت يداه ظهرى كرسيين واستولتا عليهما استيلاء حازما ، وأخذت عيناه ، وقد استردتا نشاطهما تقتحمان أعين أصدقاء كلارا أولسوفيفنا المتجمعين حوله . كان على مقربة منه ضابط فارع القامة قوى الجسم جميل المظهر . فشعر جوليادكين ازاءه أنه أشبه بذبابة صغيرة .

— سيدى الملازم ، ان هذين الكرسيين محجوزان ؛ فهذا لكلارا

أولسوفييفنا وهذا للأميرة تشفتشيكانوف ، اللتان ترقصان الآن ، وأنا أحفظهما لهما .

كذلك تمتم السيد جوليادكين بلهجة ضارعة . فلم يجبه الملازم ، بل رشقه بنظرة صاعقة ، وأشاح وجهه عنه . واذ شعر بطلنا أنه صد من هذه الجهة وخذل ، جرب حظه فى جهة أخرى ، فاستفرد سيدا خطيرا الشأن يزدان صدره بوسام من درجة عالية ، وهو مستشار دولة ، فكانت النظرة التى رد عليه بها هذا السيد تبلغ من تثبيط العزيمة أن أثرها كان أشبه بأثر قادوس من ماء بارد صب على رأسه. فصمت السيد جوليادكين.

قال لنفسه : « فلنلزم الصمت . لا كلمة بعد الآن . يجب أن يدركوا تمام الادراك أننى واحد كسائر الناس ، أننى مدعو كسائر المدعوين ، وأن مركزى لا يقل علوا عن مراكزهم » .

فلما اتخذ هذا القرار ثبت نظره على أقفية ردنجوته . ولكن بصره لم يلبث أن انتقل الى سيد ذى مظهر محترم كل الاحترام .

قال لنفسه : «هذا السيد يضع على رأسه شعرا مستعارا ، فاذا نزعتَ عنه الشعر المستعار لم تجد تحته الا جمجمة عارية ، نعم ، جمجمة لاتقل ملاسةً عن راحة كفى » . وما كاد السيد جوليادكين يقوم بهذا الاكتشاف الخطير حتى اتجه فكره الى الأمراء العرب . قال لنفسه : « يكفى أن تنزع العصبة التى يضعونها على رءوسهم تيمنا بالنبى العظيم حتى لا تظهر تحتها الا جمجمة ملساء ، جمجمة عارية تماما » .

ثم انتقل فكره ، بتداعى المعانى من غير شك ، عن طريق التفكير فى شئون المسلمين ، الى البوابيج التركية ، فلاحظ أن آندره فيليبوفتش كان ينتعل حذاءين هما الى البوابيج التركية أقرب منهما الى الأحذية .

ومهما يكن من أمر فقد بدا على جوليادكين أنه أخذ يألف وضعه قليلا قليلا • وبرق فى ذهنه خاطر : قال لنفسه : ليت هذه الثريا تنفصل عن سلسلتها فى هذه اللحظة ، ليتها تسقط ، اذن لهرعت أنقذ كلارا أولسوفييفنا على الفور • سوف أنقذها عندئذ ثم لا أزيد على أن أقول لها: « لا تجزعى ! ماهذا بشىء • أنا منقذك» • ثم أخذ السيد جوليادكين يبحث عن كلارا أولسوفييفنا بين الحضور ، ولكنه بدلا من أن يراها ، رأى جيراسيموفتش ، رئيس الخدم العجوز فى منزل أولسوفى ايفانوفتش • كان الخادم العجوز مقبلا عليه ، وقد لاح فى وجهه انشغال البال • ارتعش السيد جوليادكين • شعر باحساس غريب ، غامض ، لكنه مزعج ازعاجا واضحا على كل حال • جعد السيد جوليادكين وجهه ونظر حوله • تمنى لو يأفل ، تمنى لو يخرج من القاعة ، خفية ، خلسة ، محاذيا الجدران ، لا يراه أحد ولا يسمعه أحد • تمنى لو يتبخر ••• ولكن كان الأوان قد فات •• فقبل أن يتخذ قرارا ، كان جيراسيموفتش قد أصبح أمامه •

قال بطلنا وهو يبتسم :

ـ اسمع يا جيراسيموفتش ••• يجب عليك أن ••• أنظر ••• هل ترى تلك الشمعة هناك على الشمعدان الكبير ؟ انها توشك أن تسقط ••• يجب عليك أن تأمر بعدلها يا جيراسيموفتش ، والا سقطت ••• سقطت حتما •

ـ أية شمعة ؟ ولكنها معدولة ! ••• أما أنت فان شخصا يطلبك هناك •

ـ من يطلبنى يا جيراسيموفتش ؟

ـ لا أعرف من هو تماما • انه خادم مرسل من ••• سألنى : « هل

ياكوف بتروفتش جوليادكين هنا ؟ قل له أن يأتى من فضلك . هناك أمر مستعجل وهام جدا ... » . ذلك ما قاله لى .

ـ لا يا جيراسيموفتش ، أنت مخطىء ، أنت مخطىء قطعا .

ـ أشك فى ذلك .

ـ لا يا جيراسيموفتش ، ليس هناك أى شك ، ليس هناك أى شك اطلاقا . لم يطلبنى أحد . لا يمكن أن يطلبنى أحد ، على كل حال .. وأنا هنا فى بيتى ، أقصد فى مكانى .

استرد جوليادكين أنفاسه ونظر حوله . انه يشتبه فى الامر . جميع الأعين مصوبة اليه ، جميع الآذان متجهة نحوه . ان كافة هؤلاء الناس المجتمعين فى القاعة يظهرون معلقين به ، منتظرين ما سيقع . كأن الحضور جميعا كانوا يشاركون فى الحادث . السيدات يوشوشن قلقات ، وقد ابتعدن قليلا . رب المنزل متلبث على مسافة من جوليادكين . انه لا يبدو مشاركا مشاركة فعالة فى محن بطلنا . كل شىء يجرى بكثير من اللباقة والرهافة على كل حال . ومع ذلك شعر بطلنا شعورا واضحا بأن اللحظة الحاسمة قد حانت . ان عليه أن يضرب ضربة كبرى . آن له أن يبيد أعداءه . كان السيد جوليادكين مضطربا اضطرابا عميقا . وأخيرا واتاه الوحى . فها هو ذا يخاطب جيراسيموفتش قائلا بصوت مرتجف لكنه حاسم :

ـ لاياصديقى ، لا ؟ مامن أحد يطلبنى . أنت مخطىء . أكثر من ذلك انك منذ هذا الصباح قد أخطأت حين أكدت لى ... نعم ، حين تجرأت فأكدت لى (هنا رفع جوليادكين صوته) ان أولسوفى ايفانوفتش ، المحسن الى ، الانسان الذى كان لى منذ زمن طويل بمثابة أب ، قد أوصد

دونى بابه فى هذا اليوم الرائع ، فى هذا انيوم من أياه سعادة قلبه ، قلب الأب ...

تصفح جولياذكين الحضور . انه يبدو راضيا عن نفسه ، ويبدو فى الوقت ذاته منفعلا انفعالا عميقا . وظهرت دموع فى أطراف أهدابه .

استأنف يقول :

— أعود فأقول يا صديقى انك قد ارتكبت خطأ لا يغتفر .

لحظة مؤثرة . أحس جولياذكين أنه فد أحدث أثرا محققا . وقف وقفة متواضعة ، متجمعا على نفسه ، غاضا بصره ، ينتظر أن تتدفق عليه عواطف أولسوفى ايفانوفتش ، أن يعانقه أولسوفى ايفانوفتش . بدا على الحضور الاضطراب والانشداه . حتى جيرا سيموفتش الرهيب ، الذى لا يرحم ، لاح عليه أن نفسه قد اهتزت ، فهو لا يستطيع أن ينطق بكلمة ... ها هى ذى الأوركسترا ، الأوركسترا اللعينة ، تأخذ على حين فجأة تعزف رقصة بولكا .

انقطع السحر . انتهى كل شىء . انتفض السيد جولياذكين . تقهقر جيراسيموف قليلا الى وراء . اندفع جمهور المدعوين يرقص كبحر مائج. ان فلاديمير سيميونوفتش هو الذى افتتح الرقص مع كلارا اولسوفييفنا. وتبعهما الملازم الجميل يراقص الأميرة تشفتسيكانوف . الذين لم يرقصوا أسرعوا يعجبون بأزواج الراقصين الذين اندفعوا يتحركون على أنغام البولكا . ما أجمل رقصة البولكا ! انها رقصة حديثة جدا ، مثيرة جدا . لا شىء مثلها يدير الرءوس. حتى لقد أنست الناس السيد جولياذكين الى حين . غير أن انقلابا كبيرا لم يلبث أن وقع فجأة . اضطرب الناس وتزاحموا ... وتوقفت الموسيقى وسط البلبلة الشاملة . لقد وقع حادث

غريب ليس فى الحسبان. ان كلارا أولسوفييفنا قد تهاوت على أحد المقاعد، متقطعة الأنفاس ، محمرة الخدين ، لاهثة الصدر خائرة القوى ... لاشك أن الرقص هو الذى أتعبها . خفقت جميع القلوب لها . وهرع الناس يحتشدون حولها . كل واحد منهم يريد أن يظهر اهتمامه بها وقلقه عليها وامتنانه من المتعة الكبرى التى هيأتها لهم جميعا . وفجأة ظهر جوليادكين أمامها . انه شاحب الوجه ، مضطرب اضطرابا عميقا ، يبدو خائر القوى تماما هو أيضا ... انه يجر نفسه جرا ... وها هو ذا يمد يده نحوها ناظرا اليها نظرة ضارعة . كانت كلارا أولسوفييفنا مصعوقة فلم يتسع وقتها لسحب يدها . ونهضت تستجيب لدعوته كأنها آلة لا تعى ماذا تفعل. اهتز السيد جوليادكين ، وخطا خطوة الى أمام ، ثم خطوة أخرى ، ورفع ساقه ، وهم بخطوة ثالثة فضرب الارض بقدمه مترنحا فاقدا توازنه ... لقد أراد أن يرقص هو أيضا مع كلارا أولسوفييفنا ... أطلقت الفتاة صرخة. فهرع أصدقاؤها يخلصون يديها من قبضة يد السيد جوليادكين. فما هى الا لحظة حتى كان بطلنا مدفوعا ملقى على مسافة عشر خطوات من الجميلة . وسرعان ما تكونت حلقة جديدة حوله . وسمعت صرخات حادة . انهما سيدتان عجوزتان أوشك السيد جوليادكين أن يقلبهما أثناء تقهقره المفاجىء . وعمت فوضى شديدة . الناس يسائل بعضهم بعضا ، ويتناقشون ، ويزمجرون . الاوركسترا صمتت تماما . السيد جوليادكين يتحرك وسط الحلقه التى احتشدت حوله ويدمدم كالآلة وهو يبتسم ابتسامه ضعيفة قائلا : « نعم ... ولم لا ؟ البولكا فى رأيى رقصة حديثة. هى رقصة شائقة ، وجدت لمتعة هاته السيدات ... ولكننى أرضى أن أجربها أنا أيضا ، بسبب الظروف ... » .

ولكنهم لم يحفلوا برضاه . فما هى الا لحظة حتى أحس بطلنا بيد تمسك ذراعه ، وأخرى تتناوله من ظهره ، فى كثير من الرفق مع ذلك .

وأحس أنه يدفع فى اتجاه معين . وسرعان مالاحظ أنهم يقودونه قدما نحو الباب . أراد السيد جوليادكين أن يقوم باشارة ، أن يقول كلمة . ولكن لا ... لقد أصبح لا يريد شيئا البتة . أصبح يكتفى بأن يضحك ضحكا ضعيفا ، كأنه آلة لا ارادة لها . وشعر أخيرا بأنهم يلبسونه معطفه، ويغطسون رأسه فى قبعته حتى العينين . وأدرك بعد ذلك أنه صار على فسحه السلم ، فى البرد والظلام ... وأنه أخذ يهبط السلم . زلت قدمه . خيل اليه أنه يسقط فى هاوية . أراد أن يصرخ . ولكنه كان قد أصبح فى فناء الدار . شعر بنسمة طرية تهب على وجهه . توقف هنيهة. وفى تلك اللحظة نفسها ترامت الى أسماعه أصوات رقصة جديدة . لقد عادت الاوركسترا تعزف . فتذكر السيد جوليادكين كل شيء فجأة . بدا أنه يسترد قواه . انتزع نفسه من المكان الذى كان ثاويا فيه حتى ذلك الحين كالمسمر تسميرا . وثب . طار . ظل يركض لا يلوى على شيء . الى أين كان ذاهبا ؟ الى أى مكان ... الى أى مكان يوجد فيه هواء ... توجد فيه حرية ...

الفصل الخامس

كانت الساعة تدق منتصف الليل فى جميع أبراج سان بطرسبرج ، حين وصـــل السيد جوليادكين الى رصيف نهر فونتاكا قرب جسر اسماعيليوفسكى • كان خارجا عن طوره • انه يهرب من أعـدائه وما يوقعونه فيه من ضروب الاضطهاد • يهرب من وابل الضربات التى يمطرونه بها ، يهرب من صرخات النساء العجائز المذعورات ، ومن نظرات اندريه فيليبوفتش القاتلة • كان السيد جوليادكين ميتا ، متلاشيا ، بأوسـع معانى الكلمة • واذا كان لا يزال الآن قادرا على أن يركض، فما ذلك الا بمعجزة ، بمعجزة لايكاد يصدقها هو نفسه• وكانت الليلة رهيبة ، رطبة، يملؤها الضباب والمطر والثلج ، وتتموج فيها أنواع الزكام والرشح والحمى، ليلة مثقلة بجميع هبات شهر نوفمبر فى سان بطرسبرج • الريح تزأر فى الشوارع المقفرة ، وتجعل مياه نهر فونتاكا السوداء تنب الى مستوى أعلى من مستوى سلاسل الضفة ، وتأتى تناكد المصابيح الضئيلة المنثورة على

الرصيف ، فتستجيب المصابيح لزئيرها المشئوم بصرير تحيل حاد • أصوات شاكية موجعة الأنين ، ألحان لا نهاية لها يعرفها جميع سكان العاصمة حق المعرفة • المطر والثلج يهطلان فى آن واحد معا • والماء تحمله هبات الريح ، فيتساقط خطوطا كثيفة تكاد تكون أفقية ولا تقل غزارة عن الماء المنهمر من مضخة • وكانت القطرات تضرب وجه المسكين جوليادكين ضربا شديدا وتمزقه تمزيقا ، حتى لكأن ألوانا من الابر والدبابيس تنفذ فى جلده •

وفى وسط ظلام الليل ، الذى تخترقه قرقعات العربات البعيدة ويخترقه زئير الريح وصرير المصابيح ، كانت تسمع ضجة متصلة مشئومة هى ضجة الماء المتساقط على الأرض من الأسطح والأفاريز والمزاريب. وما من انسان يرى فى الطريق ، وهل يمكن أن يرى فى الطريق انسان فى مثل هذه الساعة المتأخرة وفى مثل هذا الجو الرهيب ! كان السيد جوليادكين وحده يكردح على رصيف الفونتاكا بخطى صغيرة سريعة • انه يستعجل الوصول بأقصى سرعة الى بيته الواقع فى الطابق الرابع من عمارة بشارع « الدكاكين الست » • كان الثلج والمطر والريح وجميع عناصر الطبيعة الثائرة فى سماء تشرين الثانى (نوفمبر) بسان بطرسبرج، على ميعاد فى هذه الليلة الفظيعة ، تهاجم جوليادكين البائس من كل صوب بلا هوادة ، بعد أن هدته مصائبه الخاصة هدا كافيا ، فهى تنفذ الى عظامه، وتعمى بصره ، وترجحه وترنحه وتجعله يتعثر ويخرج عن طريقه ، وتسلبه فى الوقت نفسه آخر ما بقى له من عقل • كأن تحالفا قد قام بين قوى الطبيعة وبين أعدائه بغية افساد نهاره ومسائه وليله افسادا كاملا •

ولكن من الغريب أن السيد جوليادكين كان يبدو غير مكترث أى اكتراث بشىء مما كان يصيبه به القدر من أهوال شديدة فى ذلك الأوان•

فان ما جرى له قبل لحظات فى منزل مستشار الدولة بيرنديف كان قد قلب نفسه رأسا على عقب وهد روحه هدا . فلو رآه فى هذه اللحظة مشاهد محايد ، ورأى كيف كان المسكين يهرول على الرصيف ، اذن لأدرك على الفور مدى النوازل التى انصبت عليه منذ حين ؟ ولأدرك أن السيد جوليادكين لم يكن ينشد فى تلك اللحظة الا شيئا واحدا هو أن يهرب ، أن يختبىء ، أن يهرب من نفسه ، أن يختبىء عن نفسه . نعم، ذلك ما كان ينشده السيد جوليادكين فى تلك اللحظة . بل نستطيع أن نقول أكثر من ذلك . ان السيد جوليادكين لم يكن يحاول بكل ما أوتى من قوة أن يهرب من نفسه فحسب ، بل كان كذلك مستعدا لأن يبذل كل شىء فى سبيل أن يتلاشى تلاشيا تاما ، فى سبيل أن يصير الى رماد فورا . هو الآن لا يلوى على شىء ، ولا يلتفت الى شىء ، ولا يدرك شيئاً . انه يبدو غير حافل اطلاقا بجميع الحواجز التى تنتصب أمامه فى تلك الليلة المشئومة ، غير حافل لا بطول الطريق ، ولا بقسوة الجو والمطر والثلج والريح .

وعلى رصيف نهر الفونتاكا سقط الجرموق الذى كان يغطى حذاءه الأيمن ، وبقى غاطسا فى الوحل والثلج ، فلم يلاحظ السيد جوليادكين ذلك ، ولا خطر بباله لحظة أن يعود أدراجه باحثا عنه . كان السيد جوليادكين من شدة انشغال البال وشرود الذهن أنه رغم الاعصار توقف عدة مرات وظل على حافة الرصيف مسمرا كالوتد متجمدا بلا حراك ، يتذكر جميع تفاصيل ذلك السقوط القاسى الذى عاناه . كان يحس أنه يموت . وما هى الا ثانية واحدة حتى كان يستأنف ركضه المسعور ، هاربا من عدو خفى لا يرى ، محاولا أن يفلت من مصائب جديدة أشد هولا . كانت حاله رهيبة حقا ..

ووقف السيد جوليادكين أخيرا خائر القوى، فاتكأ على سور رصيف

النهر ، فى وضع انسان أخذ أنفه يرعف فجأة ؟ وراح السيد جوليادكين يتأمل مياه الفونتانكا السوداء العكرة • لا نستطيع أن نقول كم من الزمن لبث على هذه الحال • ولكن الأمر المحقق هو أنه قد بلغ غاية الحزن واليأس والارهاق ، حتى كاد يختنق • لقد نسى كل شىء ، كل شىء ، جسر اسماعيلوفسكى ، وشارع « الدكاكين الستة » ، ومصائبه الأخيرة ••• وأصبح لا يبالى شيئا ولا يحفل بشىء • لقد انتهت القضية ، وصدر الحكم ، وأبرم ••• ولا حيلة له فى دفع ما حدث •

وفجاة ••• فجأة ••• ارتعش جسمه كله من قمة الرأس الى أخمص القدم • وها هو ذا يتقهقر خطوتين الى وراء ، بوثبة غريزية ، ويجعل يلقى نظرات على ما حوله وهو فريسة قلق لا يغالب • ولكن ليس هنالك شىء خاص ، ليس هنالك أحد ••• ومع ذلك ، مع ذلك ، كان السيد جوليادكين قد اعتقد فى هذه اللحظة أنه لمح شخصا كان موجودا هناك ، قريبا جدا منه ، متكئا على سور الرصيف • والغريب أن هذا الشخص قد خاطبه ، وكلمه بصوت سريع منقطع • ان السيد جوليادكين لم يدرك تماما معنى أقواله ، ولكن لا شك أن أقواله كانت تدور على شىء يتصل به اتصالا وثيقا •

« ما هذا ؟ هل حلمت ؟ » كذلك تساءل السيد جوليادكين وهو يجيل بصره من جديد على ما حوله ••• « ولكن أين أنا فى الواقع ؟ آه •• آه •• » • بهذا ختم هتافه وهو يهز رأسه • ومع ذلك أخذ يتفحص الفضاء المطر البارد الذى يحيط به وقد تملكه قلق شديد ، بل رعب قوى • حاول أن ينفذ بصره فى الظلمات التى يملؤها البخار من حوله • ولكنه لم ير شيئا • بدا له كل شىء على حاله لم يتغير • وتكاثر هطول الثلج غزارة وكثافة • فلا يستطيع المرء أن يميز شيئا أبعد من

عشرين خطوة . وكان صريف المصابيح قد اشتد أيضا ؟ وكانت الأغنية الحزينة الشاكية التى تغنيها الريح قد ازدادت كذلك حزنا وشكاة ... فكأنها ضراعات شحاذ عاد يكرر استعطاءه مصرا على أن ينفح ما يسد به رمقه . « آه ... ماذا جرى لى ؟ » ، كذلك تساءل السيد جوليادكين وهو يستأنف سيره فى طريقه بعد أن أنعم النظر فيما حوله مرة أخيرة .

وفى أثناء ذلك ظهر شعور جديد فى نفس السيد جوليادكين . لم يكن هذا الشعور قلقا ولا رعبا ... ان قشعريرة متشنجة تسرى الآن فى جسمه كله ... لحظة أليمة ... احساس لا يطاق .

« لا ضير .. ليس هذا بشىء ... قد لا تكون لهذا أية نتائج ، وقد لا يسىء الى شرف أحد . لعل الأمور كلها تجرى على أحسن وجه ... لعل جميع المسائل ستحل مع الزمن ، فلا يقول أحد بعد ذلك شيئا ، ويبرر بعد ذلك كل شىء » . كذلك تابع السيد جوليادكين يقول لنفسه دون أن يفهم هو نفسه معنى أقواله . شعر السيد جوليادكين ببعض العزاء حين راودت نفسه هذه الخواطر . فانتصب قليلا ، ونفض ثيابه ، وأسقط الثلج الذى كانت طبقة كثيفة منه تغطى قبعته وياقته ومعطفه وربطة عنقه وحذاءيه . ولكنه لم يستطع أن يتخلص من ذلك الشعور الغريب الحاد ، من ذلك الغم الهائل ... ودوت طلقة مدفع فى مكان ما ، بعيد جدا .

قال بطلنا :

« يا له من جو غريب ! ان طوفانا يوشك أن يحدث . يظهر أن الماء قد ارتفع ارتفاعا كبيرا » . فما ان عبر عن هذه الفكرة ، بل قل ما ان تصورها حتى رأى أمامه شخصا مقبلا عليه . لعله عابر أخرته ظروف طارئة ، كالسيد جوليادكين تماما . فلا شىء فى هذا خارق للعادة فيما

يبدو • ولكن السيد جوليادكين اضطرب اضطرابا شديدا وذعر ذعرا قوياً ، لسبب تجهله ••• لا لأنه خشى أن يكون هذا العابر رجلا سيىء الأخلاق ••• قال السيد جوليادكين لنفسه : « قد يكون وجود هذا الرجل المجهول هنا مصادفة من المصادفات لا أكثر ••• ولكن قد يكون لاقباله علىّ سبب ، فهو يريد أن يقطع طريقى وأن يتحرش بى ••• » والحق أن السيد جوليادكين لم يعبر عن هذه الفكرة تعبيرا واضحا جدا ؟ فلعلها لم تكن أكثر من حدس خاطف يصاحبه احساس أليم • ثم ان أوان التفكير والشعور باحساسات كان قد فات • فالرجل قد أصبح على مسافة خطوتين من السيد جوليادكين • فسرعان ما عمد السيد جوليادكين ، على عادته التى يحرص عليها ، الى اصطناع وضع خاص جدا ، وضع يعبر تعبيرا بليغا عن أنه ، هو جوليادكين ، موجود هنا عرضا ، ماض فى طريقه انسانا طيبا مسالما ، لا يفكر فى أى شر ولا يخطر بباله أى سوء ، وأن الطريق عريض يتسع لجميع الناس ، أما هو ، جوليادكين ، فليس فى نيته أن يستفز أحدا أو أن يتحدى أحدا • وفجأة توقف جوليادكين متجمدا كأن صاعقه نزلت عليه • والتفت بغتة ليتفحص عابر السبيل الذى تجاوزه منذ هنيهة • لكأن حركته قد أحدثها نابض أدار رأسه الى الوراء كما تدير الريح كف المعدن التى تدل على اتجاهه • وكان الرجل المجهول قد غار بسرعة فى اعصار الثلج • كان يبدو هو نفسه مستعجلا أيضا • وكان هو نفسه غارقا فى معطفه حتى الرأس كذلك ، مثل جوليادكين تماما ، وكان يكردح هو أيضا على طول رصيف الفونتاكا بخطى صغيرة سريعة متقطعة بعض التقطع •

« ما هذا ؟ ما معنى هذا ؟ » • كذلك تمتم السيد جوليادكين وهو يبتسم ابتسامة شك وحذر ، بينما كانت تسرى فى جسمه كله قشعريرة تهزه هزا ، وبينما أصبح ظهره كالجليد صقيعا • كان الرجل المجهول

قد غاب ، حتى أن وقع أقدامه أصبح لا يسمع . ومع ذلك ظل السيد جوليادكين مسمرا فى مكانه لا يتحرك محدقا ببصره فى الاتجاه الذى سار فيه عابر السبيل . وأخيرا ثاب السيد جوليادكين الى رشده قليلا قليلا ، فقال لنفسه متحسرا : « ماذا دهانى ؟ أترانى أصبحت مجنونا ؟ » . ثم التفت واستأنف سيره معجلا ومضاعفا خطاه ، محاولا أن يخلى دماغه مما يغلى فيه ، حتى أنه أغمض عينيه فى سبيل أن يحقق هذا الهدف. وفجأة ، وسط زئير الريح وهمهمة العاصفة سمعت أذناه مرة أخرى وقع أقدام تقترب منه ، فارتعش ، وفتح عينيه ، فاذا هو يرى أمامه من جديد ، على مسافة عشرين خطوة ، شكلا انسانيا . كان الشكل يتقدم نحوه سريعا . كان الرجل يبدو مستعجلا . وكانت خطواته قوية متقطعة . ان المسافة التى تفصل بينهما تتاقص تناقصا سريعا. أصبح السيد جوليادكين يستطيع أن يميز قسمات وجه هذا العابر المتأخر تمييزا واضحا . وها هو ذا ينفرس فيه ... فيطلق صرخه قوية من فرط الانشداه والرعب . اصطكت ركبتاه . ان العابر هو ذلك الرجل نفسه الذى التقى به جوليادكين قبل عشر دقائق ، يظهر الآن له فجأة من جديد . على أن ظهور هذا الرجل مرة أخرى على هذا النحو الذى يثير وحده الحيرة والاضطراب لم يكن مع ذلك هو السبب الوحيد فى انشداه السيد جوليادكين . وقد بلغ السيد جوليادكين من شدة الاضطراب أنه جمد فى مكانه وتنحنح بصوت أجش ، وأراد أن يقول شيئا ، ثم أسرع فجأة يلاحق الرجل المجهول معولا ، ربما ليحاول أن يوقفه بأقصى سرعة ممكنة . وتوقف الرجل المجهول فعلا ، ولبث على مسافة عشر خطوات من بطلنا . كان ضوء المصباح القريب ينيره كله . التفت نحو السيد جوليادكين وتهيأ للاستماع الى كلامه مهموم الوجه نافد الصبر .

قال بطلنا بصوت مرتجف :

ـ معذرة • لعلنى أخطأت •••

كان واضحا أن الرجل المجهول قد ضاق ذرعا بايقافه ، فلم يلبث أن أدار ظهره وابتعد مسرعا ، كأنه يريد أن يتدارك التوانى التى أضاعها فى صحبة السيد جوليادكين• أما بطلنا فكانت أنسجة جسمه كلها ترتجف، وكانت ركبتاه تترنحان ، ثم خارت قواه فتهاوى على نصب على حافة الرصيف وهو يئن • يجب أن نذكر أن لانفعاله هذا سببا • ذلك أنه قد أحس أنه يعرف الرجل المجهول • بل يجب أن نقول أكثر من ذلك • نعم لقد كان يعرفه • هو على يقين من أنه يعرفه • لقد سبق أن رآه مرارا • فى أية مناسبة ؟ أمس ؟ ولكن ليس الأمر الهام أنه رآه مرارا قبل الآن • ان هذا الرجل ليس فيه ما يمكن أن يلفت الانتباه من أول وهلة • انه رجل كسائر الرجال ، رجل ذو مظهر لائق كمظهر سائر الرجال • ولعله يمتاز بمزايا كبيرة • رجل طيب على وجه الاجمال ، لا يريد بأحد أذى •

ان السيد جوليادكين لا يحمل له أية عداوة ، لا يكن له أى بغض، بل لا يضمر له أى شعور من مشاعر الكره • بالعكس• ومع ذلك ــ وهذا مايبدو لنا على جانب عظيم من خطورة الشأن ــ فان السيد جوليادكين لا يريد بأية حال من الأحوال أن يلقى هذا الرجل ، ولا سيما فى الظروف الراهنة • نعم ، ان السيد جوليادكين يعرف هذا الرجل معرفة تامة • بل انه يعرف اسمه واسم أسرته • ومع ذلك فانه لو أعطى ذهب العالم بأسره لما أراد أن يناديه بهذا الاسم ، ولا أن يعترف بأن هذا الرجل يسمى بهذا الاسم فعلا • أما كم قضى السيد جوليادكين من الوقت على هذه الحالة من الانشداه والانصعاق قاعدا على النصب ، فذلك ما لا أستطيع أن أحدده على وجه الدقة • كل ما أعرفه أنه بعد أن ثاب أخيرا الى صوابه

نهض عن النصب فجأة وأخذ يركض كمجنون ، بكل ما أوتى من قوة ، حتى تقطعت من الركض أنفاسه • وفى أثناء ذلك بارحه أحد حذاءيه تاركا الحذاء الثانى يتيما • لكن ركضه أخذ يتباطأ شيئا فشيئا ليستطيع أن يتنفس • ونظر فيما حوله فلاحظ أنه قد قطع رصيف الفونتاكا كله دون أن يشعر بذلك ، وأنه عبر جسر آينتشكوف ، وخلف وراءه جزءا كبيرا من شارع نفسكى • انه الآن فى ناصية شارع ليتانيايا • فسار فى هذا الشارع •

كان عندئذ فى وضع انسان واقف على حافة هاوية : الارض تحت قدميه تتفتت ، تهتز ، تتحرك ، تتدحرج نحو قاع هوة تجر المسكين الذى أصبح لا يملك لا من القوة ولا من الشجاعة ما يمكنه من أن يثب وثبة الى الوراء ، ومن أن يحول بصره عن اللجة الفاغرة • ان الهوة تجذبه• انه يثب فيها ، معجلا بنفسه لحظة ضياعه • كان السيد جوليادكين يحس ، يعرف ، يوقن أنه مقبل على مصيبة جديدة ما ، كأن يلتقى بالرجل المجهول مرة أخرى مثلا • ومن الغريب مع ذلك أنه كان يتمنى هذا اللقاء ، ويعده أمرا لا معدى عنه ولا مناص منه • انه لا يشتهى الا شيئا واحدا : أن يفرغ من هذا كله فى أقرب فرصة ، وأن يوضح هذا الوضع أخيرا بأية وسيلة ، ولكن بأقصى سرعة ممكنة • وهو ما يزال يركض ، ما يزال يركض كأنما تحركه قوة غريبة غير منظورة • كان جسمه قد ضعف وتخدر • أصبح لا يستطيع أن يفكر فى شىء ، ومع ذلك فان أفكاره تتعلق بكل شىء كأنها العوسج • وهذا كلب صغير تائه مبلل حتى العظام، مرتعش من شدة البرد ، يقتفى خطى بطلنا • انه يركض حذاءه ، جاعلا ذنبه بين قائمتيه ، لاصقا أذنيه برأسه ، ملقيا على السيد جوليادكين ، من حين الى حين ، نظرات تفيض خوفا وعطفا • وها هى ذى فكرة بعيدة ، كان بطلنا قد نسيها منذ زمن طويل ، فكرة دارسة من بقايا حادث قديم

ولا شك ، تعود الآن الى ذهنه . لم يستطع السيد جوليادكين أن يتخلص من هذه الفكرة . انها تمسك بخناقه ، تطرق دماغه طرقا ، تعذبه تعذيبا شديدا . « آه ... يا للكلب الحقير القذر ؟ » . كذلك كان يردد السيد جوليادكين دون أن يفهم معنى كلماته . وأخيرا لمح الرجل المجهول عند ناصية شارع ايطاليا . ولكن الرجل المجهول لم يكن مقبلا عليه فى هذه المرة . كان يركض هو أيضا فى الاتجاه الذى يركض فيه بطلنا ، متقدما عليه بضعة أمتار . وهكذا وصل الرجلان الى شارع « الدكاكين الست » . كانت أنفاس السيد جوليادكين مقطوعه . توقف الرجل المجهول أمام المنزل الذى يسكنه السيد جوليادكين . وسُمع صوت رنين الجرس ، ثم سُمع صوت صرير المزلاج الحديدى ، وفُتح الباب ، فانحنى الرجل المجهول وتسلل وغاب . ووصل السيد جوليادكين الى الباب فى تلك اللحظة نفسها تقريبا ، فوثب اليه سريعا كالسهم ، واندفع الى الفناء غير حافل بهمهمات البواب ، فسرعان ما لمح رفيقه الغالى الذى غاب عن بصره هنيهة .

كان الرجل المجهول متجها نحو السلم المؤدى الى بيت السيد جوليادكين . فوثب بطلنا يتعقبه . ان السلم مظلم رطب وسخ ، وعلى فسحاته تتراكم أكوام من الخرق البالية ونفايات البيوت ، فمن كان غريبا عن هذا المكان لا يعرفه ، فلا بد أن يتوه فى الظلام وأن يقضى نصف ساعة فى صعود درجات السلم ، متعرضا عند كل خطوة لأن تنكسر ساقاه ، متذمرا من السلم بهاجر القول تذمره من أصدقائه الذين شاءت عقولهم السخيفة أن تسكن فى عمارة كهذه العمارة . ولكن الرجل المجهول كان كمن ألف المكان واعتاد عليه ، فهو يصعد درجات السلم بخفة ورشاقة ، دون عناء ، عارفا كل موضع من مواضعه .

وأوشك السيد جوليادكين أن يدركه ، حتى أن حافة معطف الرجل المجهول قد لطمت أنف بطلنا عدة مرات • كان قلب بطلنا لا يكاد يخفق•

وتوقف الرجل السرى أمام باب بيت جوليادكين ، فطرقه ، فما لبث بتروشكا أن فتح الباب ، وذلك أمر كان يمكن أن يثير دهشة بطلنا فى أى ظرف غير هذا الظرف • لم يكن بتروشكا قد نام • لكأنه كان ينتظر هذه الزيارة انتظارا خاصا • دخل الرجل المجهول وتبعه الخادم حاملا شمعنه بيده • اندفع بطلنا فى الدهليز خارجا عن طوره ، واجتاز الممر الضيق دون أن ينضو معطفه أو أن يخلع قبعته ، ووقف على عتبة غرفته مصعوقا مشدوها كأن صاعقة نزلت عليه • لقد تحققت جميع نبوءاته التى أوحى بها اليه احساسه • ان كل ما خشيه ، وكل ما قدره فكره هو الآن بسبيل التحقق فى الواقع • لقد انقطعت أنفاسه ، وأصاب رأسه دوار • كان الرجل المجهول جالسا أمامه ، على سريره هو ، يبتسم له ، ويغمز بعينه ، ويحرك له رأسه باشارات صداقة ومودة • انه هو أيضا لم يخلع معطفه وقبعته • أراد السيد جوليادكين أن يصرخ ، ولكنه لم يستطع • أراد أن يحتج ، ولكنه لم يقو على ذلك • انتصب شعره فوق رأسه • جلس دون أن يشعر أى شعور بما يفعل ، فكأنه ميت ذعرا ورعبا • وكان هنالك ما يدعو الى الذعر والرعب على كل حال • لقد عرف رفيق ليلته معرفة تامة آخر الأمر • ان رفيقه ذاك لم يكن الا هو نفسه • نعم ، انه هو نفسه ، هو جوليادكين بشخصه ، هو جوليادكين ثان ، لكنه شبيه به شبها مطلقا ، مماثل له تماما ، أو قل بكلمة واحدة انه ما يطلق عليه اسم « المثل » ، هو « مثل » السيد جوليادكين من جميع النواحى •

. . . .

. . . .

الفصل السادس

في الساعه التامنة تماما من الغداة استيقظ السيد جوليادكين في سريره • فما لبنت الأحداث الخارقة التي وقعت له أمس ووقعت له في الليله البارحة ، في تلك الليلة المضطربه التي لا يصدقها عقل، تلك الليلة الحافلة بمغامرات لا يتصورها خيال ، أقول ما لبثت تلك الاحداث أن غزت ذاكرته وخياله بكل ما فيها من تعقد مروع • ان ذلك الخبث كله وذلك الشر كله وتلك القسوة الجهنمية كلها، وذلك الكره كله ، من جانب أعدائه ، ولاسيما آخر مظهر من مظاهر ذلك الكره ، قد جمدت بطلنا حتى لكأنه الجليد صقيعا • ثم ان كل شيء كان يبلغ من الغرابة ومن البعد عن المعقول ، ومن الشذوذ ، ومن الاستحالة أن بطلنا لا يكاد يستطيع أن يصدقه • حتى لقد كان السيد جوليادكين مستعدا لأن يعزو ذلك كله الى كابوس نادر ، الى اختلال طرأ على خياله حينا ، الى جنون أصاب عقله فجأة • غير أن خبرة طويلة مرة بالحياة كانت قد علمته أن الكره يمكن أن

يُحنق البشر الى أبعد حد ، وأن يدفعهم الى أنواع من القسوة ليس لسوئها نهاية ، انتقاما لكرامة مطعونة أو ثأرا لطموح خائب • ثم ان ما يحسه من ألم فى أطرافه وصداع فى رأسه وأوجاع فى كليته وزكام شديد يدل دلالة بليغة على أن نزهة الأمس ومحن الليلة البارحة أقرب الى الصدق •

هذا الى أن السيد جوليادكين كان يعلم منذ زمن طويل أن شيئا ما يدبر هنالك ، عندهم ••• وأنهم يتآمرون على أحد • فماذا عليه أن يفعل ؟ وبعد أن فكر السيد جوليادكين فى الأمر تفكيرا طويلا ناضجا قرر أن يذعن ، أن يخضع ، أن لا يرفع صوته بأى احتجاج فى هذا الأمر ، حتى « اشعار » آخر على الأقل •

« أليس من الجائز فى الواقع أن لا يكونوا قد قصدوا الا الى تخويفى ؟ لذلك فانهم متى رأوا أننى لا أرد ، ولا أحتج ، بل أخضع خضوعا تاما ، وأتحمل كل شىء بمذلة ، تراجعوا أول المتراجعين من تلقاء أنفسهم • » •

تلك هى الخواطر التى دارت فى ذهن السيد جوليادكين ، حين كان متمددا على فراشه يتمطى ويحاول أن يخفف آلام أعضائه المحطمة ، وينتظر ظهور بتروشكا على عادته •

انه ينتظر منذ ربع ساعة• وها هو ذا يسمع أصوات حركة بتروشكا الكسول وراء الحاجز بسبيل اعداد السماور• ومع ذلك قرر أن لايناديه •

أكثر من ذلك أن السيد جوليادكين كان يخشى فى هذه الساعة أن ينفرد بخادمه بتروشكا • كان يقول لنفسه : « ما عسى يدور فى خلد هذا الوغد الآن حول هذه القضية كلها ! صحيح أنه صامت لا يتكلم ، ولكن هذا لا ينفى أنه يفكر » • وظهر بتروشكا حاملا بيديه طبقا • ألقى عليه السيد جوليادكين نظرة وجلى • كان السيد جوليادكين ينتظر أن يرى

أفعال بتروشكا وأن يسمع أقواله نافد الصبر . « أتراه يجىء على ذكر أحداث الأمس ؟ ... » ولكن بتروشكا لم ينبس بكلمة واحدة ، حتى لقد كان أعمق صمتا وأكثر عبوسا وأشد تجهما منه فى العادة . كان واضحا أنه منزعج . ان عينيه المخفوضتين تفيضان اشمئزازا . لم يلق على مولاه نظرة واحدة ؛ ولنذكر عابرين أن هذا قد ساء بطلنا قليلا .

وضع بتروشكا الطبق على المائدة ، ثم استدار وانصرف الى ما وراء الحاجز صامتا كأنه أخرس . تمتم السيد جوليادكين يقول وهو يصب الشاى لنفسه : « انه يعرف ، انه يعرف ، انه مطلع على كل شىء ، هذا الكسول ... »

ومع ذلك تحاشى السيد جوليادكين أن يلقى على خادمه أى سؤال ، رغم أن الخادم عاد الى الغرفة عدة مرات لشئون تتعلق بخدمة مولاه . كان بطلنا قلقا غاية القلق . وكان ينقبض صدره أشد الانقباض حين يتصور أن عليه أن يذهب الى مكتبه .

كان يوجس أن الأمور هنالك ليست على ما يجب أن تكون . وهو يقول لنفسه : « لو ذهبت الى المكتب لعرضت نفسى لمتاعب جديدة ، أفليس من الأفضل أن أتريث قليلا ، أن أصبر قليلا ؟ ليفعلوا ما يحلو لهم أن يفعلوه . أما أنا فمن مصلحتى أن أقضى نهارى هنا لأسترد قواى ، ولأبل قليلا من مرضى ، ولأفكر فى هذه القضية كلها ولو قليلا . وبعد ذلك أختار اللحظة المناسبة ، فأسقط عليهم سقوط حبات البرد على الرءوس.. بذلك تنجح مكيدتى وأخرج من الأمر ظافرا ..» وكان السيد جوليادكين أثناء استرساله فى هذه التأملات يدخن غليونا بعد غليون ؛ والزمن ينقضى، حتى صارت الساعة هى التاسعة والنصف .

قال السيد جوليادكين لنفسه : « الساعة التاسعة والنصف ؟ لقد فات

أوان الذهاب الى المكتب . ثم اننى مريض ، نعم ، مريض ، مريض فعلا . من يستطيع أن يدعى غير ذلك ؟ ولست أبالى على كل حال ! فليجيئوا مستطلعين اذا أرادوا ! ليرسلوا طبيبا يتحقق من مرضى ! لست أبالى قط . ان فى ظهرى أوجاعا شديدة ، وأنا أسعل ؛ ان بى زكاما . ثم اننى لا أستطيع الخروج فى مثل هذا الجو السيىء . ذلك مستحيل ، مستحيل تماما .. والا فقد يصيبنى مرض خطير .. قد أموت .. نعم .. لم لا ؟ ما أكثر الذين يموتون فى هذه الأزمان ! ... » .

هذه الخواطر هدأت ضمير السيد جوليادكين تهدئة كاملة ، وأمدته فى رأيه بتسويغ للتقريع الذى لا بد أن يوجهه اليه آندره فيليبوفتش لوماً له على قلة نشاطه ونقص همته . يجب أن نذكر أن السيد جوليادكين كان يحرص حرصا مطلقا ، حين يوجد فى ظروف كهذه الظروف ، على أن يبرر نفسه أمام نفسه بحجج لا سبيل الى دحضها . فلما وصل فى هذه المرة أيضا الى تبرير كامل ، تناول غليونه فحشاه وأخذ يدخنه . ولكنه ما ان نشق منه بضعه أنفاس حتى وثب عن سريره فجأة ، ورمى غليونه بعيدا ، ومضى يغسل وجهه ويحلق ذقنه ويمشط شعره ويلبس رداءه الرسمى ؛ حتى اذا فرغ من ذلك جمع بعض الأوراق ، وهرع يمضى الى مكتبه راكضا .

دخل السيد جوليادكين مكتبه وهو يشعر بخجل شديد ووجل قوى . ان قلبه يخفق خفقانا محموما بانتظار أن يقع له حادث مشئوم . كان ذلك فى نفسه احساسا غامضا لا شعوريا ، ولكنه فى الوقت نفسه احساس مزعج . استقر فى مكانه المألوف خائفا ، قرب رئيسه فى العمل أنطون أنطونوفتش سيتوتشكين . ولم يلبث أن غرق فى الأوراق الموضوعة أمامه لا يرفع بصره ، ولا يدع لنفسه أن يذهل عن عمله . كان قد قرر جازما وآلى على نفسه أن يتحاشى ، بكل ما أوتى من قوة ، أى احتكاك أو أى تحريض من

شأنه أن يعرضه لسوء بأسئلة وقحة أو أمازيح أو غمزات تتناول مغامرة الأمس؟ حتى لقد عزم أمره على أن يتجنب الملاحظات المعتادة من أسئلة وأجوبة عن الصحة يتبادلها مع زملائه . ولكن المحافظة على هذا الوضع لم تكن بالأمر السهل كثيرا .

أضف الى ذلك أن السيد جوليادكين ، حين يواجه حادثا أليما ، لا تعذبه نتائج هذا الحادث بقدر ما تعذبه الشكوك ويعذبه القلق والخوف والهم . لذلك لم يستطع أن يفي بالعهد الذى قطعه على نفسه وهو أن يتحاشى أى احتكاك أو أى تحريض ممكن .

فها هو ذا يرفع رأسه من حين الى حين خلسة ، متصفحا وجوه زملائه ، محاولا أن يكتشف علامة من شأنها أن تطلعه على حادث جديد خاص يتعلق به ، وأن تطلعه على مؤامرة جديدة تحاك له .

كان يحاول أن يربط بين أحداث الأمس وسلوك من هم حوله الآن . وانتهى آخر الأمر ، وقد استبد به قلق شديد ، الى أن يتمنى نهاية لهذا الموقف الذى لا يطاق ، نهاية سريعة ، ولو أدى ذلك الى أسوأ النمائم وأخبث الاشاعات ! انه لا يبالى ! ولم يلبث القدر أن استجاب لرغبته . فما كاد السيد جوليادكين يعرب عن أمنيته هذه ، حتى تبددت شكوكه على أغرب نحو يمكن أن يخطر ببال .

لقد فُتح باب الغرفة المجاورة فجأة بصرير ضعيف وجل يدل على أن الداخل شخص لا قيمة له . وهذه قامة يعرفها بطلنا حق المعرفة تمر أمام منضدته خرقاء متحيرة ، فلا يرفع السيد جوليادكين رأسه ، وانما يكتفى بأن يلقى على هذا الشخص الجديد نظرة خاطفة ، فاذا هو يعرف كل شىء ويفهم كل شىء بأدق التفاصيل دفعة واحدة . شعر بالعار يضنيه ،

فأغرق المسكين رأسه في أوراقه ، تماما كما تفعل النعامة التي تخفي رأسها في الرمل المحرق حين يطاردها صياد .

انحنى القادم الجديد أمام آندره فيليبوفتش ، ولم يلبث أن سمع صوت آندره فيليبوفتش رسميا ملاطفا كالصوت الذي يعمد الى اصطناعه رؤساء العمل عادة في مخاطبه مرءوسيهم الجدد . قال آندره فيليبوفتش وهو يشير الى طاولة أنطون أنطونوفتش : « اجلس هنا ، أمام السيد جوليادكين . سيُعهد اليك بعمل فورا » . وختم آندره فيليبوفتش كلامه باشارة موجزة وفورة تحمل للقادم الجديد معنى التشجيع ، ثم استغرق في قراءة كدسة الأوراق الضخمة التي كانت أمامه .

رفع السيد جوليادكين عينيه أخيرا . ولئن لم يسقط مغشيا عليه فورا ، فما ذلك الا لأنه كان قد أوجس هذا المشهد . كان قد تنبأ في الواقع بكل شيء ، وكان قد حزر جميع نيات القادم الجديد . ان أول حركة قام بها السيد جوليادكين هي أنه ألقى نظرة حواليه ليرى هل أخذ الموظفون يتهامسون في الأركان ، وهل أخذت مزحة من الأمازيح المألوفة في المكتب تطوف في القاعة ، وهلا فغر أحد الأفواه ذهولا وانشداها ، وهلا تهاوى أحد الحضور تحت الطاولة ذعرا ورعبا . فما كان أشد دهشة حين لم يلاحظ شيئا من ذلك البتة ! لقد أدهشه وضع زملائه ادهاشا كبيرا ، وبدا له هذا الوضع غير معقول . انخلع قلب السيد جوليادكين هلعا من هذا الصمت المطبق الخارق . ما هذا الصمت والوقائع ظاهره واضحة كل الوضوح ! ...

أمر غريب ، شاذ ، قاس! .. شيء يبعث في الجسم قشعريرة! .. هذه هي الخواطر التي مرقت في ذهن السيد جوليادكين سريعة كالبرق . كان السيد جوليادكين يحترق . وهناك ما يدعو الى ذلك . ان القادم الجديد

الذى كان فى تلك اللحظة جالساً أمام السيد جوليادكين ، هو بعينه ذعر السيد جوليادكين ، هو بعينه عار السيد جوليادكين ، هو بعينه الكابوس الذى وافى السيد جوليادكين فى ليلته تلك : انه السيد جوليادكين نفسه.

صحيح أنه ليس جوليادكين الذى كان فى تلك اللحظة جالسا على كرسيه، فاغراً فاه ، حاملا قلمه . صحيح انه ليس جوليادكين الذى يقوم بوظيفة مساعد لرئيس مكتبه ، والذى يجب أن يمحى ، أن يذوب فى الجمهور ، والذى يعبر سلوكه كله تعبيرا واضحا عن أن لسان حاله يقول : « لا تمسونى ولن أمسكم » أو يقول : « لا تمسونى فاننى لا امسكم ... » .. لا .. ليس هو جوليادكين ذاك .. وانما هو جوليادكين آخر ، جوليادكين آخر تماما ، ولكنه مع ذلك مثل الأول ، له قامة الأول نفسها ، وله جسم الأول نفسه ، وله صلعة الاول نفسها ، وهو يرتدى الملابس نفسها التى يرتديها الاول .. فلا شيء ينقص هذا التشابه الكامل وهذا التماثل التام . فلو وضع أحدهما الى جانب الآخر لما استطاع أحد فى العالم أن يدعى أن فى وسعه أن يميز بين جوليادكين الصادق وجوليادكين المزيف ، أن يميز بين القديم والجديد ، أن يميز بين الأصل والصورة .

كان بطلنا فى تلك اللحظة – وليُسمح لنا بهذا التشبيه – فى وضع انسان جاءه مازح خبيث فأمرّ أمام وجهه مرآة لمناكدته وازعاجه . قال جوليادكين لنفسه : « ماذا جرى ؟ أأنا فى حلم ؟ أأنا فى حالة يقظة أم أنه كابوس الأمس يستمر الآن ؟ كيف يكون هذا ممكنا ؟ بأى حق يفعلون هذا ؟ من ذا الذى أذن باستخدام هذا الموظف الجديد ؟ نعم ، من ذا الذى أصدر الأمر بذلك ؟ أأنا نائم ؟ أأنا أحلم ؟ » ومن أجل أن يمتحن السيد جوليادكين حالته قرص نفسه ... حتى لقد نوى على الفور أن يقرص أحد زملائه ... ليس هناك أى ريب ! لا ... ما هو بنائم . أحس السيد جوليادكين بالعرق يتصبب منه قطرات كبيرة ... أدرك أن

شيئا خارقا يحدث له ... شيئا لم يُر له نظير من قبل ، شيئا هو لذلك على جانب رهيب من الخطر ، وتلك مصيبة المصائب ... أحس جوليادكين وأدرك جميع سيئات هذا الموقف الجديد ، موقف المهزلة التى هو الآن بطلها الأول ونموذجها .

وشيئا فشيئا أخذت تراوده شكوك حول وجوده نفسه ، ورغم أنه كان مستعدا لكل شيء ، راغبا فى أن يرى تبدد جميع هذه الشكوك بصورة من الصور آخر الأمر ، فقد كان يحس أن ظرفا يعادل تعقده المفاجأة التى ليست فى الحسبان كان فد تجاوزه . انه مرهق معذب . ان قلقا رهيبا يهد نفسه هدا ، حتى ان فكره وذاكرته يبارحانه تماما فى بعض اللحظات . فلما ثاب الى رشده بعد احدى هذه الغيبوبات لاحظ أنه كان يسيل الجرى بقلمه على ورقة من الأوراق على نحو آلى لا شعورى ؛ فسرعان ما أخذ يعيد قراءة ما كتبه ، لفقدانه ثقته بنفسه ، فلم يستطع أن يفهم شيئا مما كتب بطبيعة الحال .

وفجأة نهض جوليادكين الثانى الذى كان جالسا أمام بطلنا جلسة هادئة الى تلك اللحظة ، نهض ومضى الى المكتب المجاور ، ربما لطلب بعض المعلومات . نظر السيد جوليادكين حواليه . ان كل شيء هادىء . ليس يُسمع الا صرير الأقلام خفيفا ، والا حفيف الأوراق تُقلب ، والا همسات قليلة فى الأركان البعيدة عن طاولة آندره فيليبوفتش . رفع السيد جولیادكين عينيه نحو أنطون أنطونوفتش . لا شك أن تعبير وجهه الذى يفصح افصاحا أمينا عن حالته النفسية وعن الهموم التى تسببه لها الاحداث الراهنة ، قد بدا غريبا لرئيسه ، لأن أنطون أنطونوفتش الشهم لم يلبث أن وضع قلمه ، وسأله عن صحته فى كثير من العطف والشفقة .

ثالثاً جولیادكين يقول :

ـ صحتى جيدة جدا يا أنطون أنطونوفتش . الحمد لله يا أنطون أنطونوفتش . صحتى الآن حسنة يا أنطون أنطونوفتش ...

كذلك أخذ السيد جولیادكين يكرر متهيبا ، مرددا اسم رئيسه لدى كل كلمة يقولها .

لما يجرؤ بعد على البوح لأنطون أنطونوفتش بما فى نفسه .

ـ ها .. طيب .. كنت أحسب أنك تشكو ألما ما .. ولا غرابة فى هذا على كل حال ، لا سيما فى هـذه الآونة التى تتكاثر فيها الأمراض السارية ... هل تعلم أن ...

ـ نعم يا أنطون أنطونوفتش ، نعم ، أعرف أن هـذه الأمراض موجودة ... ولكن يا أنطون أنطونوفتش ، ليست هـذه هى المسألة (كذلك أضاف يقول السيد جولیادكين وهو يتفرس فى محدثه محدقا) ... لا أدرى يا أنطون أنطونوفتش كيف أستطيع ... أعنى لا أعرف تماما من أين أبدأ يا أنطون أنطونوفتش ...

ـ لا أفهم ماذا تقول .. أعترف لك بأننى لا أفهم ماذا تريد أن تقول ... عليك أن تشرح ما تريد قوله بمزيد من الوضوح .

واذ لاحظ أنطون أنطونوفتش شدة اضطراب السيد جولیادكين الذى امتلأت عيناه بالدموع ، ارتبك هو أيضا ، فأضاف يسأله :

ـ قل لى ما الذى ...

ـ الحقيقة يا أنطون أنطونوفتش ... يوجد هنا ... يا أنطون أنطونوفتش ... موظف .

— نعم ... صحيح ... يوجد موظف هو سميُّك ...

صاح السيد جوليادكين :

— ماذا ؟ هو سميِّى ؟ هل اسمه أيضا جوليادكين ..

— نعم ... هو سميُّك ... اسمه أيضا جوليادكين ... أليس هو أخاك ؟

— لا يا أنطون أنطونوفتش ، أنا ...

— غريب ... خيِّل الىّ أنه لا بد أن يكون أحد أقربائك ... هل تعلم أن بينك وبينه بعض الشبه ؟ لكأنكما من أسرة واحدة ...

ظل السيد جوليادكين متجمدا من الدهشة . حتى لقد عُقل لسانه بضع لحظات ، فلم يستطع أن يقول شيئا . وهناك فى الواقع ما يدعو الى ذلك . ماذا ؟ كيف يمكن لأنطون أنطونوفتش أن ينظر بهذا القدر من قلة الاكتراث وعدم المبالاة الى ظاهرة غريبة هذه الغرابة كلها ، ظاهرة فريدة حقا في نوعها ، ظاهرة لا بد أن تخطف بصر أى مشاهد عادى ؟ كيف يمكن لأنطون أنطونوفتش أن يتحدث بصدد هذه الظاهرة عن تشابه كالتشابه الذى يكون بين أفراد أسرة واحدة ؟ ان الأمر أمر تماثل كامل بل وحدة تامة ، كالوحدة بين انسان وصورته في المرآة .

أردف أنطون أنطونوفتش يقول :

— اسمع يا ياكوف بتروفتش ! أحب أن أسدى اليك بنصيحة . عليك أن تذهب الى طبيب ، فتستشيره فى أمر صحتك . انك لا تبدو فى حالة طبيعيه تماما . ولاسيما عيناك ... ان لهما تعبيرا غريبا ...

— لا يا أنطون أنطونوفتش ... طبعا أنا لا أشعر بأننى ... أعنى ... أريد أن أسألك عن هذا الموظف .

- هه ؟

- ألم تلاحظ فيه شيئا غير عادى يا أنطون أنطونوفتش ؟ شيئا مميزا على نحو خاص ؟

- مثلا ؟

- مثلا ، أريد أن أسألك يا أنطون أنطونوفتش : ألم تلاحظ أن فيه شبها غريبا بأحد .. بى أنا مثلا ؟ لقد ذكرت منذ هنيهة أنه يشبهنى كما يشبه أفراد الأسرة بعضهم بعضا ... ذكرت هذا عرضا دون الحاح ... ولكن هل فى علمك أنه يوجد أحيانا شخصان يتشابهان تشابها كاملا كتشابه قطرتى ماء ، حتى ليستحيل تمييز أحدهما عن الآخر ؟ ... ذلك ما أحببت أن أحدثك فيه ...

قال أنطون أنطونوفتش بعد لحظة من تفكير ، وكأنه يدرك لأول مرة ظاهرة لها هذه الخطورة :

- نعم ... صحيح ... ان تشابهكما يثير الدهشة حقا ، ورأيك فى محله تماما . ان من الممكن فعلا أن يخلط المرء بينكما فلا يميز أحدكما عن الآخر (كذلك قال أنطون أنطونوفتش وهو يحملق مزيدا من الحملقة) انه تشابه يشبه أن يكون معجزة ... تشابه خرافى يا ياكوف بتروفتش ، كما يقال أحيانا ... انه مثلك تماما . حقا انه مثلك تماما . هل لاحظت ذلك يا ياكوف بتروفتش ؟ ولقد كان فى نيتى أن أحدثك فى هذا الأمر من تلقاء نفسى ، ولكن يجب أن أعترف لك أننى فى البداية لم أول هذه القضيه كبير اهتمام . هذه معجزة ... معجزة حقا ... بالمناسبة يا ياكوف بتروفتش : أظن أنك لم تولد هنا ، أليس كذلك ؟

- نعم لم أولد هنا .

ـ هو أيضا لم يولد هنا ، لعلكما كلاكما من اقليم واحد ؟ هل أستطيع أن أسألك أين كانت تقيم والدتك فى العادة ؟

ـ قلت .. يا أنطون أنطونوفتش ... قلت انه ليس من هنا .

ـ نعم ليس من هنا .

وتابع أنطون أنطونوفتش المهذار الذى يفرح لكل ثرثرة ، تابع يقول :

ـ حقا انها لمعجزة . حقا ان فى الأمر ما يثير الدهشة . كثيرا ما يتفق لنا أن نصادف هكذا أشياء جديرة بالاهتمام ، فنلامسها ونصطدم بها ثم لا نلاحظها . ليس عليك أن تضطرب كثيرا على كل حال . فتلك أمور تحدث . لذلك سأقص عليك قصة مشابهة وقعت لاحدى خالاتى : انها هى أيضا قد رأت نفسها مثلين قبيل وفاتها .

ـ معذرة اذا قاطعتك يا أنطون أنطونوفتش ... ولكننى أريد أن أعرف يا أنطون أنطونوفتش كيف استطاع هذا الموظف ... أقصد كيف دخل الى هنا ؟

ـ انه يحل محل المرحوم سيميون ايفانوفتش . لقد شغرت الوظيفة بوفاة سيميون ايفانوفتش ، فبحثوا عمن يحل محله ، ثم عينوه هو . بالمناسبة : هل تعرف أن سيميون ايفانوفتش ، هذا الشهم ، قد خلف فيما يقال ثلاثه أطفال صغار ؟ لقد ارتمت زوجته المسكينه عدة مرات على قدمى صاحب السعادة متوسلة ضارعة . يقال مع ذلك انها تمثل ، فهى تملك مالا ولكنها تخفيه ...

ـ ولكننى أريد أن أعود الى موضوعنا يا أنطون أنطونوفتش ...

ـ أى موضوع ؟ ها ... نعم ... ولكن لماذا تهتم بهذه المسألة هذا

الاهتمام كله ؟ ••• أعود فأقول لك : لا تصدع رأسك • ذلك كله موقت • ثم ماذا آخر الأمر ؟ ليس الذنب ذنبك • ان الله هو الذى دبَّر الأمور على هذا النحو • هى مشيئة الله • والاحتجاج على مشيئة الله اثم • حكمة الله العظمى هى التى أرادت ذلك • أما أنت يا ياكوف بتروفتش فما أحسب أنك مسئول عن هذا كله فى شىء • المعجزات فى هذا العالم كثيرة • ان أمنا الطبيعة كريمة سخية ••• ولن يحاسبك أحد على شىء يوما ••• بالمناسبة : أظن أنك قد سمعت عن ذينك الأخوين ال ••• ماذا يسميان ؟ ها ••• نعم ••• ذينك الأخوين السياميين اللذين ولدا ملتصقى الظهرين ، فهما يعيشان هكذا معا • يظهر أن ذلك يدر عليهما مالا كثيرا •

ـ اسمح لى يا أنطون أنطونوفتش •••

ـ أنا أفهمك •• أنا أفهمك •• طيب •• ماذا آخيرا ؟ ليس الامر بذى بال • أعود فأقول لك اننى بعد أن فكرت فى المسألة مليا لا أرى ما يوجب أن تصدع رأسك • ماذا تريد ؟ هو موظف كأى موظف آخر ، وهو فيما يظهر رجل نشيط • لقد قدم نفسه قائلا ان اسمه جوليادكين ، وانه قادم من اقليم آخر ، وانه كان يعمل كاتبا فى احدى دوائر الدولة • وقد تمت بينه وبين صاحب السعادة مقابلة خاصة •

ـ وصاحب السعادة ؟

ـ جرت الأمور على خير نحو • قدم لصاحب السعادة شروحا كافية • قال : « ذلك هو وضعى على حقيقته يا صاحب السعادة • ليس لى ثروة شخصية • وأحب أن أعمل ، لا سيما تحت الأوامر النيِّرة التى يصدرها صاحب السعادة » ، وهلم جرا ••• وتدفق يكيل المديح لصاحب السعادة بكثير من الحذق والبراعة • ولا شك أنه كان يحمل توصية على كل حال ، والا لما تم تعيينه طبعا •

ـ ومن الذى أوصى به ؟ ••• أقصد من الذى وضع يده فى هذه القضية المخجلة ؟

ـ يظهر أنه كان يحمل توصية جيدة جدا • حتى أن صاحب السعادة وآندره فيليبوفتش قد ضحكا قليلا فيما يقال •

ـ صاحب السعادة وآندره فيليبوفتش ضحكا قليلا ؟

ـ نعم •• أقصد •• ابتسما ، وقالا له ان هذا يبدو لهما كافيا ، وانهما من جهتهما موافقان تماما ، شريطة أن يعمل بصدق واخلاص •••

ـ ثم ؟ وبعد ذلك ؟ اننى متحير قليلا يا أنطون أنطونوفتش • أكمل ، أرجوك أن تكمل •••

ـ معذرة ••• مرة أخرى ، أنا لا أفهمك ••• قلت لك ليس فى الأمر كله شىء خارق • أعود فأقول : عليك أن لا تصدع رأسك • ليس فى هذه القضية ما يهددك •

ـ ليس هذا هو الموضوع • وانما أردت أن أسألك يا أنطون أنطونوفتش ألم يضف صاحب السعادة الى ذلك بضع كلمات •• عنى أنا مثلا ؟

ـ نعم ؟ طبعا ••• حتما ••• ولكن ليس هناك شىء ذو بال • فى وسعك أن تكون مطمئنا كل الاطمئنان • هى مصادفة غريبة ، أسلم لك بذلك • لاحظ أننى لم أنتبه الى الأمر من أول نظرة فى البداية • لاأدرى كيف لم ألاحظ هذا الشبه قبل أن تنبهنى اليه • على كل حال ، تستطيع أن تطمئن كل الاطمئنان • لم يقولا شيئا ذا خطر ، لم يقولا شيئا من ذلك البتة (كذلك أضاف يقول أنطون أنطونوفتش اللطيف وهو ينهض عن كرسيه) •

ـ أريد أيضا يا أنطون أنطونوفتش •••

ـ اعذرنى ••• لقد أفرطت فى الثرثرة حتى الآن ، بينما هنالك عمل مستعجل هام جدا يجب أن أقوم به • ثمة معلومات يجب أن أحصل عليها •

وفجأة انطلق صوت آندره فيليبوفتش العذب ينادى قائلا :

ـ أنطون أنطونوفتش ! صاحب السعادة يطلبك •

ـ حالا ، حالا يا آندره فيليبوفتش ، أنا ذاهب اليه فورا •

تناول أنطون أنطونوفتش كدسة من الأوراق ، فهرع أولا نحو طاولة آندره فيليبوفتش ، ثم مضى الى مكتب صاحب السعادة •

« ها ••• هذه هى المسألة اذن ، تلك هى اللعبة التى يدبرونها فى هذه اللحظة••• الآن أرى الاتجاه الذى تسير فيه الريح ••• ليس هذا كله بالأمر السيىء ••• ان الأمور تجرى مجرى حسنا » • كذلك قال السيد جوليادكين لنفسه وهو يفرك يديه احديهما بالأخرى • لقد بلغ من الفرح أنه أصبح لا يحس بوجود الكرسى تحته • « انهم يعدون قضيتنا مسألة عادية • كل شىء يغدو اذن ترهات وسفاسف ••• وفعلا لا أرى أحداً يحتج •• ان جميع هؤلاء الأوغاد غارقون فى أعمالهم • عظيم •• عظيم ••• اننى لأحبهم جميعا هؤلاء الناس الطيبين ••• ولقد أحببتهم دائما ••• اننى مستعد لأن أقدرهم وأن أحترمهم ••• ومع ذلك يبدو لى ••• حين أفكر فى الأمر مليا ••• هذا الأنطون أنطونوفتش ••• من الخطر أن أبوح له بما فى نفسى ••• لقد أثقلته السنون ••• وأفرط شعره فى المشيب ••• على كل حال ، فالأمر الأساسى الهام فى الموضوع أن صاحب السعادة لم يقل كلمة واحدة فى هذه المسألة ••• عظيم ••• أنا أؤيد ذلك • ولكن ما شأن آندره فيليبوفتش فى هذا كله هو وضحكاته

الصغيرة ؟ فيم يتدخل ؟ ياللحية العتيقة ! ... انه دائما في طريقك ، هذا الرجل . انه مؤهب فى كل لحظة لأن يجتاز الطريق أمامك ، كنقطة سوداء ... نعم ... دائما أمامك ووراء ظهرك ! ... » .

مرة أخرى أجال السيد جوليادكين بصره فى القاعة . ومرة أخرى شعر بالأمل يملأ نفسه . ومع ذلك كان ثمة شيء ينغص عليه صفوه . هو فكرة بعيدة ، فكرة تنذر بشؤم . قرر فى لحظة من اللحظات أن يستبق الأمور ، أن يبادر الى شيء ، أن يسائل بعض زملائه بطريقة من الطرق . ان فى وسعه أن يفعل هذا عند الخروج من المكتب مثلا ، بل فى وسعه أن يفعله هنا ، بحجة الاستفسار عن أمر من الأمور التى تتصل بالعمل . فى وسعه مثلا أن يدس بين جملتين قولا كهذا القول : « أمر عجيب . هل رأيتم الى هذا التشابه الغريب ؟ محاكاة كاملة ! » . فاذا تظاهر بأنه يمزح هو نفسه ، استطاع أن يقدر مدى الخطر . « يجب على المرء دائما أن يخشى الماء الصافى ، فرب شيطان يثوى فيه ! » . تلك هى النتيجة التى خلص اليها بطلنا . ومع ذلك تدارك نفسه فى الوقت المناسب ، فلم تنتقل نياته الى حيِّز التنفيذ . لقد أدرك أنه ان فعل ذلك كان يمضى بعيدا جدا. قال لنفسه وهو يلطم جبينه لطمة خفيفة : « تلك هى طبيعتك : ما ان تدخل اللعب حتى تتحمس . نفس ظمأى الى العدل ! لا ... الأفضل أن تنتظر قليلا يا ياكوف بتروفتش . يجب أن تتريث قليلا ولو تحملنا فى سبيل ذلك بعض العذاب . » . ورغم هذه النتيجة التى خلص اليها فقد شعر بالأمل يملأ نفسه . خيل اليه أنه يبعث من بين الموتى .

قال لنفسه : « تحسنت حالى الآن . لكأن ثقل طنين قد أزيح عن صدرى . غريب . لقد كان كل شيء بسيطا كتحية . فُتح الصندوق من تلقاء نفسه . كان كريلوف على حق ... يا لكريلوف هذا من ماكر خبيث يحسن تأليف القصص ... أما القادم الجديد فليعمل ... فليعمل

ما شاء أن يعمل ، شريطة أن لا يجور على أرض غيره ، وأن لا يسىء الى أحد . نعم ، هو كذلك ... أنا موافق على أن يعمل ، أنا أؤيد ذلك تأييدا تاما ... » .

كانت الساعات أثناء ذلك تنقضى ... كانت تطير طيرانا . هى الساعة الرابعة منذ الآن . المكاتب تغلق . تناول آندره فيليبوفتش قبعته ، وحذا جميع الموظفين حذوه كالعادة . تأخر السيد جوليادكين قليلا ، من أجل أن يخرج آخر الخارجين .

تفرق الموظفون ومضى كل منهم الى منزله . فلما صار السيد جوليادكين فى الشارع أحس أنه سعيد كما لو كان فى الجنة . حتى لقد شعر برغبة فى أن يقوم بجولة قصيرة ، فى أن يتنزه بشارع نفسكى .

قال لنفسه وهو يسير : « ما أعجب المقادير ! ... لقد تغير الوضع تغيرا جذريا على حين فجأة ... حتى الجو تحسن تحسنا واضحا . هذه هى الزلاقات وهذا هو الجليد ! ... الجليد يناسب الروس . وأنا أحب الروس ... لو شاهد صياد هذا لهتف يقول : هذه طلائع البرد والثلج ... يجب علىّ أن أصطاد أرنبا طيبا على هذه الثلجة الاولى ... يمينا ليس ثمة ما يزعج ... كل شىء يجرى مجرى حسنا ... » . هكذا تجلت حماسة جوليادكين . ومع ذلك كان هنالك شىء ما يزال يدغدغ داخل رأسه . أهو قلق ؟ أهو خوف ؟ لا ... غير أن قلبه لا يزال فيه من الفزع ما يجعله عاجزا عن التغلب على نفسه . قال : « لا داعى الى التعجل على كل حال . فلننتظر المستقبل ... صبر من ظفر ... يضحك جيدا من يضحك أخيرا . وما هى المسألة فى الواقع ؟ هلا فكرنا قليلا ! هلا حللنا قليلا ! نعم علينا أن نحلل يا صديقى الشاب ، علينا أن نحلل . أنا رجل مثلك ، نعم ، أنا رجل شبيه بك ، شبيه بك

من جميع النواحى . طيب . ثم ماذا ؟ هل فى هذا ما يدعونى الى الشكوى والنواح ؟ هل فى هذا ما يدعونى الى البكاء ؟ أى ضير فى هذا كله ؟ اننى بعيد عن هذه القضية كلها ، أغسل منها يدى وكفى ! ... لقد قررت ، لقد اتخذت قرارا حاسما الى الأبد » .

« أما هو فليؤمِّن عمله . يقولون انها معجزة ، يقولون انها ظاهرة عجيبة ... يشبهونها بظاهرة الأخوين السياميين ... لماذا يستشهدون بالأخوين السياميين ؟ هما توأمان طبعا ... ولا كذلك نحن ... ثم ان الحياة مليئة بالغرائب ، حتى لدى عظماء الرجال . فالتاريخ يروى أن سوفوروف الشهير نفسه كان يغنى كما يغنى ديك ... صحيح انه يدعى أن هذا كان من قبيل الدبلوماسية ... ولكن ما القول فى كبار القادة ؟ ... اننى ، من جهتى ، أسير فى طريقى هادئاً مسالماً ، أظل فى ركنى ، لا أريد أن أعرف شيئا عن الآخرين ، أحب أن أكون بريئا كل البراءة ... لا أحفل بعدوى ... لست بمن يدبر المكائد ويضع المؤامرات ... وأنا بهذا فخور . اننى طاهر نقى ، مهذب ، دمث ، لا أعرف الحقد... »

وفجأة صمت السيد جوليادكين ، وتوقف مختلجا مرتجفا كورقة فى فى مهب الريح .. حتى لقد أُغمضت عيناه بضعَ لحظات . ومع ذلك تأمل أن يكون الشىء الذى أثار رعبه سرابا ووهما من أوهام الحواس ، ففتح عينيه وألقى نظرة وجلى على يمينه ... لا ... لم يكن ما رآه سرابا أو وهما ... فالى جانبه كان يكردح الرجل الذى رآه فى صبيحة ذلك اليوم . انه يبتسم له ، ويتفرس فيه بوقاحة ، وكأنه ينتظر فرصة مواتية ليجرى معه حديثا . ولكن الفرصة تأخرت ...

وهكذا ظل الرجلان يسير أحدهما الى جانب الآخر قرابة خمسين خطوة .

ان طاقة السيد جوليادكين منصبة كلها على هدف واحد : هـو أن يغطس فى معطفه أكمل غطس وأعمق غطس ، وأن ينزل قبعته على رأسه حتى تصـل الى عينيـه . ولكنه رأى فجـأة ـ وتلك غاية الوقاحة ـ أن معطف صاحبه وقبعته كمعطفه وقبعته هو تماما .

تمتم بطلنا أخيرا يقول وهو يحاول أن يتكلم بصوت خافت دون أن ينظر الى صاحبه :

ـ أحسب أيها السيد أن طريقينا مختلفان ... بل أنا موقن من ذلك (أضاف هذا بعد لحظة صمت) . ثم اننى أعتقد أنك فهمتنى حق الفهـم (هكذا ختم كلامه بلهجة قاطعة) .

فدمدم صاحب السيد جوليادكين يقول أخيرا :

ـ كنت أود ... كنت أود ... رجائى من كرمك أن يغفر لى .. أن يسامحنى .. اننى لا أعرف أحدا أتجه اليه هنا .. فوضعى .. آمل أن تعفو عن جـرأتى ووقاحتى .. لقـد بدا لى أنك تعطف علىّ ، أنك أظهرت شيئاً من الاهتمام بى فى هذا الصباح ... ولقد شعرت أنا أيضا بشىء من الانجذاب نحوك .. اننى ..

هنا تمنى السيد جوليادكين لزميله الجديد أن يغور تحت الأرض الى الأبد .

استأنف صاحبه يقول :

ـ ليتنى أسـتطيع أن آمـل يا ياكوف بتروفتش أن تصغى الىّ فى تسامح ورحابة صدر .

فأجابه السيد جوليادكين قائلا :

ـ هنا ؟ نحن؟ هنا ؟ نحن ؟ لا •• لا ••• لنذهب الى بيتى ••• لنقطع أولا شارع نفسكى ، فنكون فى الجهة الأخرى أكثر ارتياحا ، ثم نمضى فى الشارع الصغير •

قال صاحب السيد جوليادكين طيعا خائفا :

ـ طيب • لنسر فى الشارع الصغير •

كان واضحا من لهجته أنه بسبب وضعه يرى أن لا فائدة من المناقشة ، وأن الشارع الصغير يكفيه •

أما السيد جوليادكين فكان لا يفهم شيئا مما يجرى اطلاقا • انه لم يثب الى رشده بعد • انه يشك فى حواسه وفى عقله •

الفصل السابع

استرد السيد جـوليادكين بعض صـوابه وهو يصعد السلم . حتى اذا وصل أمام باب بيته قال لنفسه : « ألا ما أصغر عقلى ! لكأنه عقل عصفور ! ... لماذا أجىء به الى هنا ؟ اننى أضع الحبل فى عنقى بنفسى ؟ ما عسى يقول بتروشكا حين يرانا معا ؟ ما عسى يظن هذا الجـرو بعد اليوم وهو كثير الظنون والشكوك منذ الآن ؟ .... » . ولكن الندم قد فات أوانه . وطرق جوليادكين الباب فانفتح ، وأخذ بتروشكا يساعد السيد جوليادكين وصاحبه فى خلع معطفيهما .

وجازف السيد جوليادكين بنظرة مختلسة على خادمه محاولا أن ينفذ الى وجهه وأن يحزر ما يجول فى خاطره . فما كان أشد دهشته حين لاحظ أن خادمه لم يظهر أى استغراب . حتى لكأنه قد أعد نفسه لهذا الاحتمال اعدادا تاماً . كانت هيئته على عادتها ، هيئة ذئب جائع ، موارب النظرة ، متأهب فى كل لحظة للانقضاض على أول قادم وافتراسه . قال

بطلنا لنفسه : « لا شك أنهم قد ألقى عليهم اليوم جميعا سحر ؟ لا شك أن ان جنياً قد مر من هنا . نعم هذا اكيد . لا شك انهم جميعا قد وقع لهم شيء خاص في هذا اليوم . لعنهم الله ! ... يا للورطة ! ... » . تلك كانت أفكار السيد جوليادكين وخواطره لحظة كان يدخل ضيفه الى الغرفة ويدعوه الى الجلوس ملاطفا . كان يبدو على صاحبه أنه مرتبك ارتباكا شديدا ، وجل وجلا واضحا ، فهو يحاول أن يختطف نظرات السيد جوليادكين عسى أن يقرأ فيها ما يجول في ذهنه . كانت حركاته واشاراته تنبيء عن الحيرة والخشية والمذلة . وكان مظهره في تلك اللحظة مظهر رجل ارتدى ثياب غيره لأنه لا يملك ثياباً لنفسه (وليغفر لنا هذا التشبيه) ، فأكمامه قصيرة حتى لتكاد تصل الى كوعيه ، وهو يحاول في كل لحظة أن يعدل صديريته المسرفة في القصر ؟ وهو تارة يدور في مكانه ويمحي ويحاول أن يختفي ، وتارة يتفحص نظرات من يحيطون به ويصيخ بسمعه ، ويحاول أن يلتقط أحاديثهم ليعرف هل هم يتحدثون عنه ، وهل هم يضحكون منه ... صفوة القول أن الرجل كان على نار ، فهو يحمر ، ويفقد سيطرته على نفسه ، ويقاسي من مذلة كبريائه مقاساة رهيبة .

وضع السيد جوليادكين قبعته على حافة النافذة ، فأسقطتها حركة مفاجئة ، فهرع الضيف يلتقطها ، وأخذ ينفض عنها الغبار ، ثم أعادها الى موضعها ، تاركا قبعته هو على الأرض ، قرب الكرسي الذي جلس على طرفه خجلا وجلا . ان هذا الحادث الصغير قد أزال الغشاوة عن عيني السيد جولياد كين ، فأدرك أن الرجل خاضع لمشيئته ، فلا حاجة به الى أن يكلف نفسه عناء ، لا حاجة به الى أن يبحث عن موضوع حديث ، وانما يترك الأمر للضيف يحمل تبعته .

وكان الضيف من جهته لا يجرؤ أن يشرع في شيء ، فهو ينتظر أن يقوم رب البيت بالخطوات الأولى . ترى أكان هذا خجلا أم خفرا أم

أدبا ؟ انه ليصعب أن نجيب عن هذا السؤال اجابة قاطعة . وفى أثناء ذلك عاد بتروشكا . انه الآن واقف على العتبة ، متجه ببصره الى عكس الجهه التى كان فيها مولاه والضيف ، وها هو ذا يسأل بصوت أبح ولهجة مهملة: « هل علىّ أن آمر بعشاءين ؟ » . وهذا جوليادكين يدمدم مترددا : « أنا .. أنا .. لا أدرى .. نعم ، يا صديقى نعم ، مر لنا بعشاءين . » .

غاب بتروشكا . وتصفح السيد جوليادكين وجه ضيفه خفيه . فاحمر وجه الضيف حتى الأذنين . ان السيد جوليادكين رجل طيب . لذلك سرعان ما انتهى بفضل طيبة قلبه الى هذه النتيجة : « مسكين هذا الرجل . لقد تسلم وظيفه فى هذا الصباح ، وكان قبل ذلك يعيش حياة قاسية من غير شك . ولعل كل ما يملكه هو هذا الرداء الذى يستر به جسمه . أتراه يملك ما يدفعه ثمن وجبة طعام ؟ مسكين هذا الرجل ! ان وجهه مهدم منهار يدل على المذلة . ولكن لا ضير ... فلربما كان هذا أفضل ... » .

قال يخاطب صاحبه :

ـ اسمح لى . هل يمكننى أن أعرف اسمك ؟

ـ يا ... يا ... ياكوف بتروفتش .

كذلك تمتم الضيف يقول وقد لاح فى وجهه الاضطراب والخجل ، حتى لكأنه يهم أن يعتذر عن كونه يحمل اسم السيد جولیادكين نفسه .

فردد بطلنا يقول وهو عاجز عن السيطرة على اضطرابه :

ـ ياكوف بتروفتش ؟

فأجاب الضيف الطيع بقوله :

ـ نعم ، هذا هو اسمى . أنا سميُّك .

وهمّ الضيف أن يرسم على شفتيه ابتسامه ، وأن يجازف بقول كلمة طيبة ، ولكنه لم يلبث أن توقف عن ذلك ، مصطنعا هيئة الجد ، مرتبكا بعض الارتباك ، حين لاحظ أن محدثه لا يرغب فى شىء من المزاح فى هذه اللحظة .

قال السيد جوليادكين :

ـ هل لى أن أعرف السبب الذى شرفنى ب ...

فبادر الضيف يقاطعه بصوت خجول وهو ينهض قليلا عن كرسيه :

ـ انني وقد عرفت عظمه نفسك ، وكرم روحك قد أذنت لنفسى ان أتجه اليك ... ملتمساً صداقتك ... وحمايتك .

هكذا ختم الضيف عبارته ، وكان واضحا أنه مرتبك بالعثور على الكلمات المناسبة التى لا تكون مسرفة فى التملق والتزلف ، ولا تكون مسرفة فى اذلال كرامته ، ولا تكون كذلك مفرطة فى رفع الكلفة بحيث تعبر عن تكافؤ فى غير محله . كان مثله فى التصرف كمثل شحاذ يرتدى رداء رسميا مرقعا ويحمل فى جيبه وثائق مشرفة ، ولكنه شحاذ لما يتسع وقته بعد لمدّ اليد فى طلب الصدقة .

أجابه السيد جوليادكين وهو ينقل بصره بين ضيفه وجدران غرفته ونفسه :

ـ انك تحرجنى ... فكيف ... أقصد فيم أستطيع أن أنفعك ؟

ـ لقد شعرت ، يا ياكوف بتروفتش ، بانجذاب نحوك منذ لقيتك أول مرة . فليكن كرمك شفيعى عندك فتغفر لى .. نعم ، لقد عقدت بعض الآمال ... لقد تجرأت فأملت يا ياكوف بتروفتش ... أنا رجل نازح عن وطنه يا ياكوف بتروفتش ، أنا رجل فقير قاسى ماقاسى يا ياكوف

بتروفتش .. وأنا هنا غريب . ولقد عرفت أنك تحمل ، عدا المزايا الكبيرة التى فطرت عليها نفسك العظيمة ، نفس الاسم الذى أحمله أنا ..

قطب السيد جوليادكين حاجبيه . وأضاف الضيف يقول :

ـ لقد علمت أنك سميى ، وأنك من نفس الاقليم الذى أنا منه . لذلك وددت أن أتجه اليك أعرض عليك وضعى المربك .

فأجابه السيد جوليادكين بصوت مضطرب :

ـ طيب طيب . ولكننى لا أدرى حقا ماذا أقول لك ... سنتحدث فى هذا كله بعد الغداء ...

انحنى الضيف ممتثلا . وكان الغداء قد حضر . فقد وضع بتروشكا المائدة . فأخذ الرجلان يأكلان كمن يقوم بواجب من الواجبات المفروضة . لم يدم الغداء طويلا . كانا كلاهما متعجلين . ان السيد جوليادكين غير مرتاح . انه خجل من هذه الوجبة الفقيرة التى يقدمها لضيفه ، خجل من ناحيتين : الأولى أنه كان يود لو يولم له وليمة لائقة ، والثانية أنه كان يحب أن يظهر له انه لا يعيش حياة شحاذ .

وكان صاحبه غير مرتاح كذلك ، وكان يبدو خجلا الى أبعد حدود الخجل . انه بعد أن تناول وأكل قطعة من الخبز لم يجرؤ أن يمد يده لتناول قطعة أخرى ؛ وكان متحرجا كذلك من تناول قطعة كبيرة ؛ وكان يردد فى كل لحظة أنه ليس بجائع قط ، وأن الغداء فاخر ، وأنه راض كل الرضى ، وأنه سيظل شاكرا مدى الحياة . فلما انتهى الغداء أشعل السيد جوليادكين غليونه ، واقترح على ضيفه اشعال غليون آخر يحتفظ به للأصدقاء خاصة . جلس الرجلان أحدهما أمام الآخر ، وأخذ الضيف يروى مغامراته .

دام كلام جوليادكين الثانى ثلاث ساعات أو أربعا . والحق أن مارواه

لم يكن الا سلسلة من أحداث تافهة عادية • تحدث عن عمله فى ادارة حكومية بالأقاليم ، وعن قضاة تحقيق ، وعن رؤساء محاكم ، وعن مكائد مألوفه فى دوائر الدوله • وتحدث كذلك عن فساد أحد الموظفين المرتشين، وعن وصول مفتش من المفتشين ، وعن تغيير رئيس الادارة ، وعما أصابه هو من مصائب لا يستحقها • وأشار أيضا الى العمة العجوز بيلاجيا سيموتوفنا ، ثم أفاض فى الكلام تفصيلا على آخر ما بقى من متاعب : ضياع وظيفته على أثر مكائد دبرها له أعداؤه ، مجيئه الى سان بطرسبرج سيرا على القدمين ، الشدائد والمكاره التى عاناها ، صنوف البؤس وألوان الشقاء التى قاسى منها فى العاصمة ، مساعيه الطويلة العقيمة فى البحث عن وظيفة • لقد أنفق آخر قرش مما كان قد ادخره ، حتى أصبح مضطرا الى أن يعيش فى الشارع فعلا ، يأكل خبزا يابسا مبللا بدموعه ، وينام على الأرض • ومن حسن حظه أن وجد رجل محسن عنى بأمره ، وأوصى به خيرا ، فاستطاع أن يحصل على هذه الوظيفة آخر الأمر • وكان أثناء كلامه يبكى ويجفف دموعه بمنديل أزرق مخطط يمكن أن يحسبه الناظر قماشا مشمعا • وفى الختام فتح قلبه تماما للسيد جوليادكين ، فاعترف له بأنه لا يملك الآن أى مورد من أجل أن يعيش ويسكن ، ولا من أجل أن يكتسى • حتى أنه لم يستطع أن يجمع مبلغا يكفيه لشراء حذاءين • أما الرداء الرسمى الذى يرتديه فقد استأجره بضعة أيام •

تأثر السيد جوليادكين تأثرا شديدا من سماع هذه القصة ، ورق قلبه لصاحبه وأشفق عليه اشفاقا عميقا • صحيح أن قصة الرجل كانت من القصص العادية المألوفة الى أبعد حد ، غير أن كل كلمة من كلماته قد استقبلها قلب السيد جوليادكين كأنها كلام الله ، كأنها القربان المقدس •

لقد تبددت جميع الشكوك التى غزت نفسه فى الساعات الأخيرة • فقلبه الآن حر طليق يفيض فرحا • حتى لقد عد السيد جوليادكين نفسه

غبيا ، فكل شيء يبدو طبيعيا ، ولم يكن ثمة ما يوجب أن يعذب نفسه وأن يخاف ذلك الخوف كله في غير طائل . صحيح أن في الأمر نقطة شائكه.. هي هذا التشابه ... ولكن لماذا يعد هذا التشابه كارثة من الكوارث . ليس الانسان مسئولا عما تفعله الطبيعة . وليس في هذا التشابه ما يحطم حياة انسان ، أو ما يلطخ شرف انسان ، أو ما يعيب سمعة انسان . زد على ذلك أن ضيفه يلتمس منه الحماية .وهو يبكي ويندب ويشكو مصيره؛ ولا يبدو مؤذيا ، بل هو رجل مسكين تافه مبرأ من الكره والمكر . وكان يبدو هو نفسه خجلاً من هذا التشابه الخارق ، ولو لأسباب قد تكون مختلفة . ليس في وضعه ما يمكن أن يؤخد عليه . انه لا يطلب الا أن ينال رضى صاحب البيت الذي قدم له غداء . ان له نظرة انسان يعذبه ضميره ، انسان يحس أنه آثم في حق آخر . كان أثناء الحديث يعود فيوافق السيد جوليادكين على رأيه ، متى دار الكلام على موضوع يمكن أن يثير خلافا في الرأي . فاذا اتفق له ، عن سهو أو غفلة ، أن وجد نفسه يناقض مخاطبه مناقضة واضحة ، لم يلبث أن تدارك خطأه وصحح رأيه ، واندفع في شروح جديدة مؤكدا أن رأيه يتفق ورأي السيد جوليادكين من جميع النواحي وفي جميع النقاط ، وأنه يفكر كما يفكر السيد جولياد كين تماما ، وأنه ينظر الى الامور نظرته اليها : لقد كان يفعل كل مايستطيع أن يفعله من أجل أن يكون على وفاق مع السيد جوليادكين . وقد خلص السيد جولياد كين من هذا كله الى أن الرجل لطيف محبب الى القلب من جميع الوجوه . وفي أثناء ذلك جيء بالشاي . وكانت الساعة قدتجاوزت الثامنة . فكان السيد جولياد كين يشعر بارتياح كبير ، وقد طابت نفسه وأشرق مزاجه .

انه الآن منتعش يفيض قلبه حماسة ، فلم يلبث أن أخذ يسترسل مع صاحبه في حديث حار متدفق . ان من عادة السيد جولياد كين حين

يطيب يومه أن يحب الكلام كثيرا على الأمور الشائعة . فكذلك كان فى هذا المساء : تحدث عن العاصمة ، عن ألوان الجمال التى تتمتع بها ، عن ضروب التسليات التى تحفل بها ، عن النوادى ، عن آخر لوحة رسمتها ريشة برولوف . وروى قصة ذينك الانجليزيين اللذين جاءا من لندن الى سان بطرسبرج خصيصا من أجل أن يعجبا بجمال سور « حديقة الصيف » ، ثم لم يلبثا أن غادرا سان بطرسبرج بعدئذ على الفور . وتحدث بعد ذلك عن عمله فى الدائرة ، وعن أولسوفى ايفانوفتش وعن آندره فيليبوفتش ، ثم أعلن أنه يرى أن روسيا تسير فى طريق التقدم من ساعة الى ساعة ، واستشهد فى هذا الصدد بهذا البيت من الشعر :

فى كل يوم تزهر الآداب

وذكر كذلك واقعة أخرى كان قد قرأها أخيرا فى جريدة « نحلة الشمال » ، وتكلم عن أفعى من أفاعى البيتون بالهند تملك قوة خارقة ، وتكلم عن البارون برابيئوس ، الخ ... الخلاصة أن السيد جوليادكين كان راضيا كل الرضى فى ذلك المساء : أولا لأنه كان ينعم بهدوء كامل وطمأنينة تامة ، وثانيا لأنه أصبح لا يخشى أعداءه ، حتى لقد أصبح يحس أنه متأهب لأن يواجههم فى معركة حاسمة ، وأخيرا لأنه كان هو نفسه فى ذلك المساء فى موقف الحامى والمحسن .

ومع ذلك فلقد كان يحس فى قرارة نفسه بأن هذه السعادة ليست كاملة تماما فى تلك اللحظة ؛ كان يحس فى قرارة نفسه بوجود سوس ينخر فيها ، سوس صغير طبعا ، لكنه سوس نشيط ؛ وكان هذا السوس يأكل قلبه فى تلك اللحظة . كانت ذكرى السهرة التى انقضت فى الليلة البارحة عند أولسوفى ايفانوفتش تعذبه . لقد كان مستعدا لأن يضحى بأشياء كثيرة فى سبيل أن لا تقع بعض الاحداث التى وقعت أثناء تلك

السهرة . قال لنفسه أخيرا وقد عزم عزما قاطعا على أن يسلك في المستقبل سلوكا لا مأخذ عليه ، وأن يتحاشى ارتكاب أخطاء كتلك الأخطاء : « ليس الأمر بذى بال على كل حال ... » . واذ شعر عندئذ بتحسن حالته النفسية حتى ليشبه أن يكون سعيدا ، أحب السيد جوليادكين أن يتمتع بالحياة قليلا . فجاء بتروشكا يحمل زجاجة من خمر الروم ، فصنع منها شرابا ، فأفرغ الرجلان في جوفيهما منه كأسا ، ثم كأسا أخرى ؛ فازداد الضيف تلطفا وتوددا ، حتى لقد برهن غير مرة على انطلاق سجيته وسعادة مزاجه ، وشارك السيد جولیادکین انشراحه ومرحه ، وبدا عليه أنه شديد الابتهاج بفرح جولیادکین ، وأنه يعده صديقه الوحيد الحق .

وتناول قلما وورقة على حين فجأة ، وأخذ يكتب طالبا الى السيد جولیادکین أن لا ينظر اليه . حتى اذا فرغ من الكتابة مدّ الى صديقه ما أنجبته قريحته . هي رباعية عاطفية بعض الشيء ، لكنها رائعة من ناحية الشكل والخط . وقد نظمها الصاحب اللطيف بنفسه طبعا . وهذه هي :

وهبك نسيت عهد الود لن أنسى لك الودا
صروف الدهر ألوان ولكن لا تخن عهدا

فعانق السيد جولیادکین ضيفه والدموع في عينيه من فرط التأثر ، وأخذ يفضي الى صديقه الجديد بأخفى أسراره ، فأسار مرارا الى آندره فيليبوفتش والى كلارا أولسوفيفنا ، وما فتىء يكرر له قوله : « آ ... لسوف ترى يا ياكوف بتروفتش ... سوف نتفاهم أحسن تفاهم أنا وأنت . سوف نعيش كما يعيش أخوان حقا ... كالأسماك في الماء... وسنمكر ، يا أخي ، سنمكر . سنكيد لهم ، نعم سندبر لهم مكيدة على طريقتنا ... واياك خاصة أن تثق بهم أو أن تطمئن اليهم أو أن تسر لهم بشيء . أنا أعرفك يا ياكوف بتروفتش ... أنا أعرف طبعك ... قد

لا تتورع عن أن تقص عليهم كل شيء ، لأنك انسان حساس النفس مستقيم الخلق . فاجعلهم دائما على مسافه منك يا أخى ... » . ووافق الضيف السيد جوليادكين موافقة تامة ؛ وأجزل له الشكر حارا ، حتى لقد ذرف بضع عبرات . وأردف بطلنا يقول بصوت مرتجف ضعيف : « اسمع يا ياشا ، اسمع ، تعال فاسكن معى الى حين أو الى الأبد . سنسعد بالسكنى معا . ما رأيك أيها الأخ ؟ ثم لا تعبأ بهذا التشابه بيننا ، لا تحفل بهذه المصادفة الغريبة ! لا تعذب نفسك بهذا الأمر ، ولا تثر عليه ! انها الطبيعة ... والتمرد كفر . ان أمنا الطبيعة سخية كريمة ، فافهم هذا حق الفهم يا أخى ياشا . أقول لك ذلك عن حب ، عن حب أخوى . سوف يكيدون لنا يا ياشا . ولكننا سنعرف كيف نمد لهم الشباك ، وكيف نوقعهم فى الفخ ... سوف ترى ... » .

وكان الرجلان قد وصلا من الشراب الى الكأس الرابعة . وكان يسيطر على السيد جوليادكين شعوران : فأما الأول فهو أنه لا يستطيع الوقوف على قدميه ، وأما الثانى فهو سعادة ليس لها حدود .

وكان طبيعيا أن يدعو صاحبه الى المبيت فى مسكنه . فكذلك فعل . وأمكن اعداد سرير للضيف يضم صفين من الكراسى كيفما اتفق . وقال السيد جوليادكين الجديد ان المرء ليحلو له أن يبيت عند صديق ولو افترش الأرض ، وانه مستعد لأن ينام فى أى ركن شاكرا ممتنا . وأضاف يقول انه يشعر الآن أنه فى الجنة ، بعد سلسلة طويلة من المكاره والمصائب والآلام . آه ما أكثر ما رأى وما قاسى ! ولعل المستقبل ما يزال يخبىء له آلاما أخرى أيضا ! فرأى جوليادكين الأكبر أن يحتج على هذه المزاعم احتجاجا قويا ، وأن يبرهن لصاحبه على ضرورة الايمان بعدالة الله ... فأمّن صاحبه على قوله مطنبا مسهبا فى القول ، وأعلن هو أيضا أن « عدالة

الله لا نظير لها » ... وبهذه المناسبة ، استشهد جوليادكين الأكبر بالأتراك قائلا انهم على حق حين يبتهلون الى الله حتى أثناء النوم .

وخالف بطلنا آراء كثير من العلماء الذين يتنكرون للنبى « التركى » محمد ، فقال انه يعده رجلا عظيما . ولم يلبث السيد جوليادكين أن انتقل من الكلام على الأتراك الى الكلام على « صالون » جزائرى من صالونات الحلاقة ، فوصفه وصفا حيا جميلا كان قد قرأه فى أحد الكتب . وضحك الرجلان طويلا من سذاجة الأتراك ، ولكنهما لم ينسيا أن يشيدا بتعصبهم الذى يزيده الأفيون قوة وحرارة . وأخذ الضيف يخلع ملابسه . فانسحب السيد جوليادكين الى ما وراء الحاجز . فهو يخشى أولا أن لا يكون قميص ضيفه لائقا ، فمن المستحسن أن يغيب حتى لا يشعر بشىء من المذلة ؟ وهو يريد ثانياً أن يتأكد من سلوك بتروشكا ، أن يسبره قليلا ، أن يبث فى نفسه شيئا من الفرح اذا أمكن ذلك ، أن يلاطفه بعض الملاطفة . كان السيد جوليادكين يرغب رغبة قوية فى أن يسود السلم وأن تسود السعادة فى بيته هذا المساء . ولنلاحظ أيضا أن وضع بتروشكا كان ينعم دائما بالقدرة على جعل السيد جوليادكين قلقا غير مرتاح .

قال بطلنا بصوت عذب رخيم وهو يدخل الحجرة المخصصة لخادمه :

ــ عليك أن تنام الآن يا بطرس . ارقد الآن وأيقظنى غدا فى الساعة الثامنة . هل فهمت يا بتروشكا ؟

كان فى لهجة السيد جوليادكين عذوبة قصوى ورقة عظمى ، ولكن بتروشكا ظل أخرس لا يتكلم ، وظل يتحرك مشغولا حول سريره ، ولم يتنازل حتى أن يلتفت نحو مولاه ، وذلك أيسر مظهر من مظاهر الاحترام .

تابع السيد جوليادكين يقول :

– هل سمعتنى يا بتروشكا ؟ ارقد الآن يا بتروشكا ، وفى غد صباحا ، أيقظنى فى الساعة الثامنة . هل فهمت ؟

فدمدم بتروشكا يقول متململا :

– فهمت فهمت . هل هذا سحر يصعب فهمه ؟

– طيب طيب يا بتروشكا . أنا ما قلت لك هذا كله الا من أجل راحتك وسعادتك . نحن الآن سعداء ، وقد أردت أن تكون أنت أيضا سعيدا . وأنا الآن أتمنى لك ليلة طيبة . نم جيدا يا بتروشكا ، نم جيدا . العمل مقسوم علينا جميعاً ... واياك خاصة ياعزيزى أن ينصرف ذهنك الى تخيل أشياء ...

قال السيد جوليادكين ذلك ثم توقف فى منتصف جملة مسائلا نفسه : « ترى ألم أسرف فى القول ؟ ألم أبالغ ؟ أنا دائما هكذا ... أتجاوز الحدود . » . ثم انصرف تاركا حجرة بتروشكا ، مستاء من نفسه بعض الاستياء . ثم انه كان عدا ذلك منزعجا من فظاظة خادمه وانغلاقه . قال لنفسه : « يا للوغد الحقير ! ... يشرفه مولاه بمخاطبته متلطفا هذا التلطف ، ثم هو لا يحس ذلك ولا يشعر به ... على أن هذا سجية عامة فى جميع هؤلاء الخدام . » . وعاد السيد جوليادكين الى غرفته وهو يترنح قليلا ، فلما رأى ضيفه مضطجعا جلس لحظة قربه .

بدأ يقول بصوت خافت وهو يرجح رأسه :

– اعترف يا ياشا ، اعترف بأنك مذنب فى حقى أيها الخبيث . أأنت ... ياسميِّى ... أأنت .. لا داعى الى الكلام ! » .

قال ذلك بلهجه مرحه فى غير كلفة ؛ ثم مضى الى غرفته بعد أن تمنى لصاحبه ليلة هانئة بكثير من المودة والصداقة . ولم يلبث أن اضطجع

هو أيضا ، مبتسما يخاطب نفسه : « أنت اليوم سكران يا عزيزى ياكوف بتروفتش ، أنت سكران أيها اللئيم ... آه منك أيها الوغد يا جوليادكين ... نعم ذلك هو الاسم الذى تستحقه ... أنت الليلة فرحان ... ولكن لماذا ؟ لسوف تسكب فى غد دموعا أيها البكّاء ... لا أمل فيك ! » .

وأحس بطلنا فى هذه اللحظة بشعور غريب واخز هو مزيج من الندم والشك . قال لنفسه : « أترانى أسرفت فى الحماسة ! أنا الآن سكران . ان فى رأسى دوارا ... آه ... اننى لم أعرف كيف أضبط نفسى ... ان أنا الا أبله ... ولا شك أننى قلت سخافات كثيرة ... كثيرة كجبل ... يا لى من شخص تافه ... صحيح أن الغفران ونسيان الاساءة هما من الفضائل الحميدة ... ولكن هذا لا ينفى أننى أخطأت . ذلك واضح وضوح ماء الصخر » . قال السيد جوليادكين ذلك ثم نهض فتناول شمعة واتجه نحو سرير ضيفه سائرا على رءوس الأصابع . كان يريد أن يلقى نظرة أخيرة على وجهه. فظل مائلا عليه مدة طويلة يتفرس فيه غارقا فى تأمل عميق . ودمدم يقول لنفسه أخيرا : « منظر لا يسر... محاكاة مضحكة ، محاكاة مضحكة لا أكثر ولا أقل ... »

وعاد السيد جوليادكين الى سريره فرقد فى هذه المرة رغم كل شىء . وما لبث رأسه أن أصبح مقر صخب حقيقى : ان أنواعا من فرقعة، ورنين ، وصرير تغزو دماغه . وفقد شعوره بالأشياء قليلا قليلا ... أراد أن يسترد وعيه ، أراد أن يثبت فكره على نقطة بعينها ، أراد أن يتذكر أمرا يتعلق بمسألة ذات شأن هام خطير ، مسألة حرجة دقيقة الى أبعد حدود الحرج والدقة ... ولكنه لم يظفر بذلك . لقد استولى الكرى على رأسه المسكين فنام ... نام كما ينام رجل لم يألف الشراب ثم شاءت له المصادفة فى ليلة صدافة أن يفرغ فى جوفه خمس كئوس .

الفصل الثامن

فى الغداة ، استيقظ السيد جوليادكين فى الساعة الثامنة على عادته . فلم تلبث أحداث الليله البارحة أن عادت الى ذهنه . صعر وجهه . قال لنفسه وهو ينهض عن سريره وينظر نحو ضيفه « لقد تصرفت أمس تصرف أحمق . » . ولكن ما كان أشد دهشته حين لاحظ أن ضيفه والسرير الذى لا بد أن ضيفه كان نائما عليه قد تبخرا ! ... فلم يكد يستطيع أن يمتنع عن اطلاق صرخة تعجب ! قال لنفسه : «ماهذا ! ما معنى هذه الظاهرة الجديدة ؟ » . كان بطلنا يتأمل المكان الخالى مشدوه العقل فاغر الفم . صرّ الباب وظهر بتروشكا حاملا صينية الشاى . تمتم بطلنا بصوت لا يكاد يسمع وهو يشير بأصبعه الى المكان الذى كان يحتله بالأمس سرير صاحبه : « أين هو ؟ أين هو اذن ؟ » . فلم يجب بتروشكا فى أول الأمر بشىء ؛ حتى أنه لم يتنازل أن يرفع عينيه الى مولاه ، وانما اتجه ببصره الى ركن من الغرفة على يمينه ، فلم يسمع السيد جوليادكين

الا أن يحدق ببصره الى ذلك الركن هو أيضا • وأخيرا بعد صمت طويل ، أجاب بتروشكا يقول بصوت أجش فظ : « ليس مولاى فى البيت » •

قال جوليادكين بصوت لاهث وهو يلتهم خادمه بنظرته التهاما :

ــ أنا مولاك يا غبى !

فلم يجب بتروشكا ، ولكنه ألقى على مولاه نظرة لم يملك مولاه ازاءها الا أن يحمر احمرارا شديدا حتى الأذنين • كانت نظرته منقلة باستياء جارح يعدل اهانة مباشرة • وسقطت ذراعا السيد جوليادكين ، على حد التعبير الرائج • وأخبره بتروسكا أخيرا أن الثانى قد انصرف منذ ساعة ونصف ساعة ، وأنه لم يشأ أن ينتظر • بدا قول بتروشكا جائزاً ومعقولاً ، فلا داعى الى الشك فى صدقه • أما نظرته المهينة ، واستعماله تعبير « الثانى » فهما من النتائج المحتومة لهذه المصادفة العجيبة ، لهذا الشابه المذهل •

أدرك السيد جوليادكين ، ولو فى غموض وابهام ، أن الأمور لن تقف عند هذا الحد ، وأن القدر ما يزال يدخر له مفاجآت لن تكون سارة •

قال لنفسه : « طيب طيب • سوف نرى • سوف نرى كل شىء فى حينه ، فنعرف أين نحن وماذا يجب أن نفعل ••• » ثم أردف يدمدم بصوت مختلف كل الاختلاف ، بصوت متأوه هو الى الأنين أقرب : « آه يا رب ! لماذا دعوته ؟ لماذا أنا هكذا ؟ لأى هدف فعلت هذا كله ؟ ألا اننى لأدس رأسى فى الشوطة التى هيأها لى هؤلاء المجرمون قطاع الطرق • نعم ، اننى أعقد الحبل على عنقى بنفسى • آه منى ، آه من عقلى ، عقل المجانين ! انك يا جوليادكين لا تستطيع أن تقاوم شهوة ارتكاب الخطأ ، لا تستطيع أن تقاوم الرغبة فى أن تكذب كتلميذ ، ككاتب فى الدواوين ،

كفندلفت تافه ... ان أنت الا خرقة رخوة عفنة ... ان أنت الا ثرثار ... ان أنت الا امرأة مهذار ... ذلك أنت ... آه يا رب ! ولقد نظم الوغد أشعارا أيضا ! ... أعرب لى عن صداقته . سأعرف كيف أريه الباب اذا تجاسر أن يعود . سأقول له مثلا : أنظر يا صاحبى ... ان مرتبى ضئيل ... أو لعلنى أستطيع أن أخيفه اذا قلت له : لما كانت حالتى العامة على ما ترى ، فيجب أن أذكر لك أنك لا بد أن تدفع نصف أجر المسكن ونصف نفقات الطعام ... وأن تدفع المبلغ مقدما . آه ... لا ... يا للفكرة السخيفة ! لا ... هذا مستحيل ... هذا يسىء الى سمعتى ، هذا فظاظة ... لعلنى أستطيع أن أحاول وسيلة أخرى ... أن أوحى الى بتروشكا مثلا بأن يكون وقحا فى معاملته ، بأن لا يظهر له شيئا من الاحترام ، بأن يندفع غاضبا فى وجهه على نحو من الأنحاء بفظاظة ... نعم يمكن طرده بهذه الطريقة . هذا ما يجب أن يُعمل . ولكن أأدعهما يصطرعان هما الاثنين ؟ ... لا ... ليس هذا باللائق أيضا ... ليس هذا باللائق أبدا ... ليس هذا بالخير ... واذا لم يعد ؟ لن يكون هذا خيرا كذلك . آه ... لقد أسرفت فى الحديث معه أمس .. آه ... الأمور لا تجرى كما يجب أن تجرى ... انها تجرى مجرى سيئا . ما أخف عقلى ! ما أشد حماقتى ! اننى عاجز عن تحقيق شىء من الترتيب فى أفكارى ... عاجز عن تحقيق شىء من النظام فى رأسى المسكين ... وماذا اذا عاد ليرفض ما عرضته عليه ؟ آ ... ليته يعود ... لسوف يسرنى كثيرا أن يعود ... » .

كان السيد جوليادكين غارقا فى هذه الخواطر وهو يبتلع الشاى ويراقب ساعة الحائط فى الوقت نفسه .

« هى الساعة التاسعة الا ربعا الآن . آن لى أن أذهب . ما الذى سيقع لى ؟ ما الذى سيقع لى ؟ وددت لو أعرف ماذا يحاك لى الآن من

المكائد ! ما هى خطتهم ؟ ما هى نياتهم ؟ ما هى وسائل عملهم ؟ نعم يحسن أن يعرف المرء على وجه الدقه الى أين يريد أن يصل هؤلاء السادة من ذلك كله ، وما هى الخطوات الأولى التى سيقومون بها ! ••• » •

نفد صبر السيد جوليادكين • فها هو ذا يرمى غليونه الذى لا يزال ملآن الى النصف ، ثم يسرع فيرتدى ثيابه ، ويهرع الى مكتبه راكضا ، يريد أن يجتنب ما يمكن اجتنابه ، أو يريد على كل حال أن يتحقق بنفسه مما سيجرى • الخطر قائم لا محالة ؛ هو لا يجهل ذلك •

« هيا هيا ، سننفذ الى السر حالا ، سنوضح الأمر كله قريبا » ، كذلك كان يردد السيد جوليادكين فى الدهليز وهو ينضو معطفه ويخلع جرموقيه • لقد قرر بطلنا أن يباشر العمل ، فها هو ذا يعدل ثيابه ويصطنع وضعاً لائقا مهيبا • وفيما هو يهم أن يدخل المكتب ، اذا به يجد نفسه عند عتبة الباب ، أمام صاحب الليلة البارحة ، صديقه الجديد ، وجها لوجه ، أنفا لأنف • بدا على السيد جوليادكين الأصغر أنه لا يتعرف السيد جوليادكين الأكبر ، رغم أنهما متقابلان • كان الموظف الجديد مشغول البال جدا ، على عجلة من أمره ، نافد الصبر ، يكفى أن يرى المرء وجهه حتى يقول لنفسه على الفور : « لا شك أن الرجل مكلف بمهمة خاصة ••• » •

قال بطلنا ، وهو يتشبث بيد ضيف الليلة البارحة :

ــ ها ••• هذا أنت يا ياكوف بتروفتش !

فصاح السيد جوليادكين الأصغر يقول متملصا :

ــ بعد قليل ، بعد قليل ، معذرة ، ستقول لى هذا كله فيما بعد •

ــ اسمح لى مع ذلك يا ياكوف بتروفتش ، يخيل الى يا ياكوف بتروفتش أنك كنت تنوى أن •••

ـ ماذا تقول ؟ اسرع فى ذكر ما تريد أن تذكره •••

لقد توقف ضيف السيد جوليادكين وهو ظاهر الانزعاج والتململ والتبرم • وجعل أذنه عند أنف محدثه •

ـ يجب أن أعترف لك يا ياكوف بتروفتش بأننى مستغرب أن تستقبلنى هذا الاستقبال ••• لقد كان من حقى أن أتوقع منك موقفا غير هذا الموقف •••

ـ لكل طلب أصول معينة لا بد من التقيد بها • فاذهب الى سكرتير صاحب السعادة ثم قدم عريضة مستوفية الشروط الى السيد مدير مكتبه • ان لك طلبا ، أليس كذلك ؟

ـ لست أفهمك يا ياكوف بتروفتش • انك تذهلنى يا ياكوف بتروفتش • ألست تعرفنى ؟ أم أن ذلك مزاح يتفق ومزاجك المرح ؟

قال السيد جوليادكين الأصغر وكأنه لم يتعرف السيد جوليادكين الأكبر الا فى هذه اللحظة :

ـ آ ••• هذا أنت ؟ هذا أنت ؟ ••• قل لى اذن : هل نمت نوما طيبا ؟

قال الموظف الجديد ذلك ثم حرك شفتيه بابتسامة رسمية مؤدبة ، ولكنها لا محل لها فى الظروف الراهنة ، ما دام مدينا للسيد جوليادكين بالفضل ، حتى هذه اللحظة فى أقل تقدير • وشفع ابتسامته الرسمية المهدبة بكلمه قصيره أعلن فيها لمخاطبه أنه يسره أن يعرف أنه نام نوما طيبا ؟ ولم يلبث أن انحنى انحناءة خفيفة ، وتحرك فى مكانه ، ونظر مرة الى يمين ومرة الى شمال ، ثم خفض عينيه ، وحدق الى باب قريب ، وتمتم يقول انه مكلف بمهمة خاصة مستعجلة جدا ، وهرع يدخل الى الغرفة المجاورة سريعا كومض البرق •

قال السيد جوليادكين بصوت بهيم وقد صقع لحظة : « قصة عجيبة ... قصة عجيبة حقا ... أهذا هو الامر اذن ؟ » . وهنا شعر السيد جوليادكين برعدات تجتاح جسمه كله . تابع يناجى نفسه ، وهو يتجه نحو مكتبه : « على أننى قد أوجست هذا كله منذ زمن طويل ... انه مكلف هنا بمهمة خاصة ... هذه هى المسألة . أمس ، لا أكثر ، قلت ان هذا الرجل موجود هنا للقيام بمهمة خاصة عهد به اليها أحدهم » .

ـ هل أنهيت نسخ نص الأمس يا ياكوف بتروفتش ؟ أهو معك الآن ؟

كذلك سأله أنطون أنطونوفتش بينما كان السيد جوليادكين يجلس على كرسيه .

فأجابه السيد جوليادكين مدمدما وهو يلقى على رئيسه نظرة مهدمة :

ـ نعم هو معى !

ـ طيب ... لقد سألتك عنه لأن آندره فيليبوفتش قد طلبه مرتين حتى الآن . وأحسب أنه لا بد أن يطلبه بعد قليل ...

ـ النص جاهز على كل حال ...

ـ طيب طيب ... عظيم !

ـ أحسب يا أنطون أنطونوفتش أننى قد قمت بواجبى دائما باخلاص ، واننى انجزت دائما الاعمال التى يعهد بها الىّ رؤسائى بحماسة ونشاط .

ـ أكيد ... ولكن ماذا تريد أن تقول بهذا ؟

ـ أنا ؟ ... لا شىء يا أنطون أنطونوفتش ... وانما أردت أن أشرح لك يا أنطون أنطونوفتش ... أقصد ... أردت أن أنبهك الى

أن الشر والحسد ، وهما الرذيلتان الساعيتان أبدا فى طلب رزقهما اليومى الكريه ، لا يوفران أحدا ...

ـ اعذرنى ... لست أفهم عنك تماما . الى من تشير فى هذه اللحظة ؟

ـ أريد أن أقول بهذا يا أنطون أنطونوفتش اننى فى هذه الحياة قد اتبعت الطريق القويم دائما ، واننى أكره الطرق الملتوية ، واننى لست بالشخص الذى يدبر المكائد ... وذلك أمر أستطيع أن أعتز به ويمكننى أن أبرهن عليه اذا أتيحت لى الفرصة .

ـ نعم ، هذا جائز ، بل اننى اذا فكرت فى الأمر مليا أستطيع أن أوافقك على صدق ما تقول موافقة تامة كاملة . ولكن اسمح لى يا ياكوف بتروفتش أن ألفت نظرك الى أن المجتمع الراقى لايتسامح دائما فى حق غمزات عنيفة تتناول شخصيات مرموقة . أنا من جهتى قد أغفر لأحد الناس أن يقول عنى سوءا من وراء ظهرى ـ وما أكثر ما يقول الناس من وراء الظهر ! ... ـ أما أن يواجهنى أحد بوقاحات ، فذلك أمر لا يمكن أن أسمح به أبدا أيها السيد ! لقد شاب شعرى فى خدمة الدولة أيها السيد ، ولست أسمح لأحد أن يهيننى فى هذه السن الوقور .

ـ ليس هذا ما أقصده يا أنطون أنطونوفتش .. ليس هذا ما أقصده يا أنطون أنطونوفتش ... يخيل الى يا أنطون أنطونوفتش أنك لم تفهم عنى حق الفهم ... أنا من جهتى يا أنطون أنطونوفتش لا يمكن الا أن أتصور أن من الشرف ...

ـ وأرجو أن تعذرنا نحن أيضا . لقد نشأنا وتربينا على الطراز القديم . وقد فات الأوان الآن ، فلا نستطيع أن نتبنى أساليبكم الجديدة . ويخيل الى من جهة أخرى أننا قد أظهرنا قدرا كافيا من حسن الفهم

وسداد الرأى فى خدمة الوطن • وأنت لا تجهل أيها السيد أننى أحمل وساما ، جزاء ما قدمت من خدمات خلال خمسة وعشرين عاما فى العمل موظفا فى الدولة •

ـ أعرف هذا يا أنطون أنطونوفتش ، وأنا من جهتى أشاركك شعورك مشاركة كاملة • ولكننى كنت أتكلم عن شىء آخر ••• كنت أتكلم عن القناع يا أنطون أنطونوفتش •••

ـ عن القناع ؟

ـ أقصد ••• أخشى أن تفسر كلامى تفسيرا خاطئا مرة أخرى •• ان معنى ما أقوله يتفق وآراءك كل الاتفاق يا أنطون أنطونوفتش • أنا لا أزيد على أن أفصل القول حول الفكرة الرئيسيه ، ابرازا لها ، وهى أن لابسى الأقنعة ليسوا قلة فى زماننا هذا يا أنطون أنطونوفتش ، حتى أصبح يصعب على المرء أن يتعرف الشخص وراء القناع •••

ـ لا ••• ليس يصعب هذا كثيرا ، حتى لقد يكون فى بعض الأحيان سهلا سهولة كافية ، فما يحتاج المرء الى المضى بعيدا •••

ـ عفوك يا أنطون أنطونوفتش ••• اننى أتكلم الآن عن حالتى الخاصة • فأنا مثلا يا أنطون أنطونوفتش لا أضع على وجهى قناعا الا حين تقضى الظروف ذلك ••• كأن أحضر عيد كرنفال ••• أو أن أحضر اجتماعات مفرحة من هذا القبيل ••• هذا بالمعنى الحقيقى لا المعنى المجازى طبعا • أما فى علاقاتى اليومية بالناس فأنا لا أضع على وجهى قناعا قط ، هنا بالمعنى المجازى، بالمعنى الرمزى• ذلك ما أردت أن أقوله لك يا أنطون أنطونوفتش •

ـ طيب طيب ، ولكن دعنا من هذا كله الآن • ثم ان وقتى لا يتسع للمناقشة •

قال أنطون أنطونوفتش هذا وهو ينهض عن كرسيه ويجمع الأوراق اللازمة للتقرير الذى كان عليه أن يقدمه لصاحب السعادة ؛ ثم أردف :

ـ أما عن حالتك الخاصة ، فسوف يوضح لك الأمر قريبا ، فتعلم عندئذ من هو الذى يجب أن تحمّله التبعة، من هو الذى يجب أن تتهمه. وعلى هذا فأنا أرجوك ملحا أن تعفينى فى المستقبل من الشروح الخاصة والثرثرات التى تسىء الى العمل .

اصفر السيد جوليادكين ، وجمجم يقول :

ـ لا يا أنطون أنطونوفتش ... لم يكن فى نيتى يا أنطون أنطونوفتش ...

ولكن رئيسه كان قد ابتعد . فلما صار السيد جوليادكين وحيداً استمر يناجى نفسه فى خياله سائلا : « ما الذى يحدث هنا ؟ ما هذه الرياح التى تهب الآن هنا ؟ ما معنى هذه الغمزة الجديدة ؟ » .

أصبح صاحبنا أقرب الى الموت منه الى الحياة ، وراح يتأهب لحل هذه المشكلة الجديدة ، حين سمع ضجة تقوم فى الغرفة المجاورة على حين فجاة . وفتح الباب ، وظهر آندره فيليبوفتش على العتبة نافد الصبر . كان قد ذهب الى مكتب صاحب السعادة قبل برهة قصيرة لبعض الأعمال . صاح آندره فيليبوفتش ينادى السيد جوليادكين. واذ كان السيد جولیادكين يعرف الأمر سلفا ولا يريد أن يضطر آندره فيليبوفتش الى الانتظار ، فقد هب واثبا عن كرسيه ، وأخذ يتحرك مسرعا ، فتناول الملف المطلوب منه، فنفض عنه الغبار مداريا اياه مدللا له. وفيما كان يتأهب للسير وراء آندره فيليبوفتش الى مكتب صاحب السعادة متأبطا ملفه ، اذا به حين صار قرب آندره فيليبوفتش الذى كان ما يزال واقفا عند فتحة الباب ، يفاجأ بظهور السيد جولیادكين الأصغر بغتة . لقد تسلل هذا الى الغرفة تسللا ، وكان

يبدو مشغول البال متقطع الأنفاس ، غارقا فى الأعمال • وها هو ذا يصطنع هيئة وقورة رسمية ، ويقبل قدما نحو السيد جوليادكين الأكبر الذى كان على بعد مائة فرسخ من توقع مثل هذا الهجوم •

ـ الأوراق يا ياكوف بتروفتش ، الأوراق ••• لقد شرفنا صاحب السعادة بسؤالنا عن أوراقك هل هى جاهزة ؟ ان آندره فيليبوفتش ينتظرك !

كذلك هذر بصوت خافت وسرعة كبيرة ، الصديق الجديد للسيد جوليادكين • فأجابه السيد جوليادكين يدمدم بصوت خافت وسرعة كبيرة أيضا :

ـ لست فى حاجة الى أن أعرف أنه ينتظرنى •

ـ ليس هذا ما أردت أن أقوله يا ياكوف بتروفتش ، لا ، ليس هذا ما أردت أن أقوله ، ليس هذا أبدا • أنا معك يا ياكوف بتروفتش ، أنا معك بكل قلبى •••

ـ أرجوك أن تعفينى من هذا ••• اسمح لى ، اسمح لى •••

ـ عليك طبعا أن تحرص على أن تضع الملف فى غلاف يا ياكوف بتروفتش • ولا تنس أن تضع سريطة صغيرة فى الصفحة الثالثة • اسمح لى يا ياكوف بتروفتش •••

ـ وبعد ؟ ••• بل اسمح لى أنت •••

ـ ولكن ها هنا بقعة حبر يا ياكوف بتروفتش ! هل لاحظت أن ها هنا بقعة حبر ؟

وفى هذه اللحظة صاح آندره فيليبوفتش ينادى السيد جوليادكين مرة ثانية •

ـ أنا آت يا آندره فيليبوفتش ، فورا ؛ هناك شىء صغير علىّ أن .. وأخيرا أيها السيد ، ألا تفهم الروسية ؟

ـ خير طـريقه أن تحك البقعة بمـــوسى ، يا ياكوف بتروفتش . صدقنى ... هذا أفضل ... ودع هذا لى أنا يا ياكوف بتروفتش ... ثق بى ... سأحك البقعة بموسى حكا بسيطا .

وصاح آندره فيليبوفتش ينادى السيد جوليادكين مرة ثالثة .

ـ ولكن أرجوك ... أين ترى بقعة هنا ؟ يخيل الىّ أنه لا أثر لأية بقعة هنا .

ـ بل توجد بقعة .. بقعة كبيرة .. انظر .. هى ذى .. اسمح لى .. هنا رأيت البقعة ، أنظر .. هل تسمح ؟ هات الملف قليلا يا ياكوف بتروفتش ... لا يحتاج الأمر الى أكثر من حك قليل بالموسى ... أنا أفعل عنك ذلك حبا بك يا ياكوف بتروفتش ... أفعله بطيب خاطر ... أحك البقعة قليلا بالموسى ، وينتهى كل شىء .

وهنا وقع شىء لم يكن فى الحسبان ، ولا كان يمكن أن يخطر ببال . ان السيد جوليادكين الأصغر الذى استطاع أن يتغلب على بطلنا فى هـذه المناقشة الصغيرة التى شبت بينهما ، قد استولى على الأوراق التى كان يطلبها صاحب السعادة ، استولى عليها رغم مقاومة السيد جوليادكين ؛ ولكنه بدلا من أن يحك بقعة الحبر المزعومة بموسى حبا بخصمه كما ادعى ذلك كذبا ونفاقا ، طوى الأوراق بسرعة ، ووضعها تحت ابطه ، ومضى يدرك آندره فيليبوفتش بوثبتين . ان آندره فيليبوفتش لم يلاحظ مناورات السيد جولياد كين الأصغر . وهرع الاثنان الى مكتب المدير .

لبث بطلنا مسمرا فى مكانه ممسكا بيده الموسى التى كان يتأهب لاستعمالها فى حك بقعة الحبر فيما يبدو . انه لم يفهم بعد كل ما جرى .

انه لما يتب الى رشده . لقد تأثر بهذه الضربه الأخيرة تأثرا شديدا ، ولكنه ما يزال يعتقد أن المسأله مسألة سوء تفاهم . واستبد به قلق رهيب لا يوصف ، فاذا هو ينتزع نفسه من مكانه انتزاعا ، ويسير مسرعا نحو مكتب المدير . وكان وهو يجرى نحو مكتب المدير يسأل الله العلى القدير مخرجا موفقا من هذا المأزق ...

وفى القاعة الأخيرة ، قبل مكتب المدير ، التقى بطلنا وجها لوجه بآندره فيليبوفتش وسميه . لقد كانا عائدين من مكتب صاحب السعادة . امحى السيد جوليادكين . كان آندره فيليبوفتش يتكلم مرحا وهو يبتسم . وكان السيد جوليادكين الأصغر يبتسم أيضا ، ويتغنج متزلفا ، ويسير بخطى قصيرة على مسافة من آندره فيليبوفتش من قبيل الاحترام ، ويوشوشه من حين الى حين مشرق الوجه فيجيبه آندره فيليبوفتش هازا رأسه بكثير من الملاطفة . يجب أن نقول ان عمله (كما علم بذلك فيما بعد) قد أرضى صاحب السعادة كثيرا ، حتى لقد تجاوز الآمال التى كان يعقدها صاحب السعادة ، فهو قد أنجز العمل فى المهلة المحددة . وصاحب السعادة مرتاح الى هذا كل الارتياح ، راض عنه كل الرضى . بل يظهر أن صاحب السعادة قد كال المديح للسيد جوليادكين الأصغر ، وشكر له صنيعه شكرا حارا ، وأضاف الى ذلك أنه سيحسب حساب هذا فى المستقبل ، وأنه لن ينساه قط .

كان طبيعيا أن تكون أول حركة يقوم بها بطلنا هى أن يحتج ، أن يحتج بكل ما أوتى من قوة ، فى حدود الامكان . لذلك أسرع نحو آندره فيليبوفتش ، وقد امتقع لون وجهه حتى صار فى صفرة الموتى ، وهو لا يكاد يعى ما يصدر عنه من أفعال . ولكن آندره فيليبوفتش ، ما ان علم أن المسألة التى كان السيد جوليادكين الأكبر يريد أن يحدثه فيها

مسألة شخصية خاصة ، حتى رفض أن يصغى اليه ، وحتى نبهه بقسوة الى أنه لا يملك لحظة من فراغ يقفها على الاهتمام بشئون شخصية •

وقد بلغت لهجة الرفض من الخشونة والجفاف أنها أحدثت فى بطلنا تأثيرا عميقا • فقال لنفسه : « ربما كان من مصلحتى أن أجىء اليه مواربا ، عن طريق أنطون أنطونوفتش مثلا • » • ولكن شاء سوء حظ بطلنا أن كان أنطون أنطونوفتش غائبا • فلقد نودى هو أيضا ، فهو فى هذه اللحظة مشغول •

قال بطلنا لنفسه : « لقد كان على حق حين طلب الىَّ أن أعفيه من الشروح والثرثرات • نعم ، ذلك ما كان يقصد اليه هذا الفاسق • طيب ••• لم يبق علىَّ والحالة هذه الا أن أمضى أتوسل الى صاحب السعادة »•

وتهاوى السيد جوليادكين على أحد الكراسى ، وهو ما يزال ممتقع اللون ، مضطرب العقل ، نهبا للشكوك ، لا يدرى ماذا يفعل ••• وكان ما ينفك يردد فى ذهنه قائلا لنفسه : « لا شك أن من الأفضل أن لايكون لهذا كله أى دلالة • فالحق أن وضعا كهذا الوضع أمر لا يصدقه العقل من أية ناحية نظرت اليه • هذه ترهات حتما ••• ذلك مستحيل قطعا • لا •• لا شك أن هذا كان رؤيا •• لاشك أننى ذهبت بنفسى الى المدير•• ثم حسبت نفسى شخصا آخر ••• على كل حال •• هذا كله مستحيل»•

وما كاد السيد جوليادكين ينتهى الى استحالة هذه القضية أساسا حتى ظهر سميُّه فى المكتب بغتة ، وهو يحمل تحت ذراعه وفى يديه مقدارا كبيرا من الملفات •

وفيما كان يمر أسرَّ الى اندره فيليبوفتش ببضع كلمات لاشك أنها كانت ضرورة لا غنى عنها ، وتبادل بضعة أقوال مع موظف آخر، ولاطف هذا قليلا ، ومازح ذاك شيئا • كان واضحا أن وقته لا يتسع لشاغل

تافهة . وشاء حظ بطلنا أن جوليادكين الأصغر ، بينما كان يهم أن يجتاز عتبة الباب ليخرج من المكتب ، استوقفه موظفان أو ثلاثة موظفين شباب دخلوا الغرفة فأخذوا يتحدثون معه . فما كان من السيد جوليادكين الا أن هرع نحوه . ولكن السيد جوليادكين الأصغر أدرك حيله بطلنا فوراً فلم يلبث أن أخذ يبحث عن مخرج ليتملص من الحديث وهو قلق النظره . غير أن بطلنا كان قد أمسك بكمه . ابتعد الموظفون الذين كانوا على مقربة من صاحبنا يرقبون نتائج الأحداث مستطلعين .

كان السيد جوليادكين يعرف حق المعرفة أن جميع عواطف المودة كانت متجهة نحو خصمه ؛ وكان يدرك أن مكيدة قد دبرت له . وذلك سبب آخر يدعوه الى تأكيد حقوقه . لقد كانت اللحظة حاسمة .

قال سميُّه وهو يرشقه بنظرة تفيض احتقارا :

— نعم ؟

وكان السيد جوليادكين الأكبر لا يكاد يستطيع التنفس . بدأ يقول :

— لا أدرى ، أيها السيد ، كيف أفسر سلوكك الغريب معى .

فأجابه السيد جوليادكين الأصغر وهو يلقى نظرة حوله ، ويشفع النظرة بغمزة للموظفين الذين يحيطون به ، كأنما لينبههم الى أن التمثيلية الهزلية ستبدأ :

— طيب ، أكمل كلامك .

— ان مايظهر فى أساليبك من وقاحة واستهتار واستخفاف يدينانك مزيدا من الادانة فى الحالة الراهنة ... يدينانك ادانة يعجز عنها ما قد

أقوله أنا من كلام ••• لا تعقد آمالا كثيرة على حيلك فهى خرفاء لا تنطلى على أحد •

— دعك من هذا الكلام يا ياكوف بتروفتش ! أليس الأحرى أن تقول لى كيف نمت البارحة ؟

كذلك قال السيد جوليادكين الأصغر لمحدثه وهو يحدق فى عينيه •

فأجابه بطلنا وقد نفد صبره وأصبح لا يكاد يستطيع الوقوف على ساقيه من فرط الاضطراب :

— لا تنس نفسك أيها السيد ، وآمل أن تغير لهجتك •••

فقال له جوليادكين الأصغر وهو يصعر وجهه تصعيرة استفزاز :

— ها ••• يا عزيزى •••

— ثم اذا هو يقوم بحركه مفاجئة لا يمكن أن يدفع أى شىء على التنبؤ بها •• فيمسك باصبعيه الخد اليمنى الربلة من وجه بطلنا ، على سبيل المداعبة •

اشتعل بطلنا غيظا • انه الآن أخرس من شدة الحنق ، أحمر اللون كالجنبرى ، مرتعد الأعضاء جميعا • أدرك خصمه أن بطلنا عيل صبره فهو يوشك أن يهجم • لذلك سارع يسبقه الى ذلك على أوقح صورة ، فها هو ذا يربت على خده اليمنى مرتين ، ويدغدغه مرتين ، ملاعبا خصمه الجامد من الذهول ، الطائش اللب من الحنق ، مرضيا بذلك من كانوا يحيطون بالرجلين من الموظفين الشباب ؟ ثم ها هو يمضى الى قمة الغطرسة فيلكز كرش خصمه ويقول له وهو يبتسم ابتسامه تفيض لؤما وغمزا : « يا لك من ماكر يا عزيزى ••• لسوف ندبر لهم مكائد يا ياكوف بتروفتش ، نعم سوف ندبر لهم مكائد ••• » • ثم ها هو ذا ، دون أن

يدع لبطلنا فرصة الأوبة الى رشده بعد هذه الهجمة الجديدة ، يبتسم ابتسامة جديدة على المشهد ، ثم ما يلبث أن يصطنع هيئة رسمية ، هيئة رجل مشغول جدا ، فيخفض عينيه ، ويتقلص ، ويدمدم بقوله مسرعا : « هناك مهمة مستعجلة يجب أن أقوم بها » ، ثم يحرك ساقيه القصيرتين منسلا الى الغرفة المجاورة .

لبث بطلنا على حاله مبهورا مشدوها . انه لا يصدق عينيه ، ولا يستطيع التخلص من انفعالاته ...

وثاب أخيرا الى صوابه . فسرعان ما أدرك أنه قد ضاع ، أنه قد صار أضحوكة ، أن شرفه قد تلطخ ، أن العار أصبح يجلله . لقد استهزىء به على مرأى من الناس ، والشخص الذى استهزأ به هو الرجل الذى كان يعده فى الليلة البارحة خير صديق له . لقد ساءت سمعته الى الأبد .

واندفع السيد جوليادكين يلحق بعدوه ، لا يحفل بمن شهدوا الاهانة ولا يعبأ بهم . قال يردد لنفسه : « انهم متواطئون ، يسيرون جميعا يدا بيد ، ولا يفكر أحد منهم الا فى تحريض الآخر علىّ . . » . ومع ذلك ما كاد السيد جوليادكين يقطع عشرة أمتار حتى أدرك أن كل ملاحقة باطلة لا طائل تحتها ولا خير منها ، فعاد أدراجه .

قال يخاطب غريمه بينه وبين نفسه : « لن تفلت منى . سوف تقع فى فخى عاجلا أو آجلا ... سوف يسأل الذئب عن دموع الحمل . . » . ووصل الى كرسيه فجلس عليه وهو يفيض حقدا باردا وتصميما قويا .

« لن تفلت منى ! » كذلك ردد السيد جوليادكين . لم يبق الأمر عنده أمر دفاع ، بل أصبح أمر هجوم .

لو رأى أحد السيد جوليادكين فى هذه اللحظة ، وقد احمر وجهه

من الغضب وأصبح لا يكاد يستطيع أن يسيطر على انفعاله ، لو رآه يغمس ريشته فى الحبر ويأخذ يكتب حانقا ، لقال حتما ان القضية لن تقف عند هذا الحد ، وان بطلنا لن يكتفى قط بحل مبتذل بسيط . ان قرارا جازما قاطعا قد قام فى أعماق نفسه . ولقد حلف ليضعنّه موضع التنفيذ لامحالة ... الحق أنه لما يعرف تماما أى سلوك يجب عليه أن يسلك ، أو قل انه لا يعرف ما الذى يجب عليه أن يفعله أصلا . ولكن لا ضير ... « لا ياسيدى ، ان الاغتصاب والوقاحة لا ينجحان فى هذا الزمان . الاغتصاب والوقاحة سوف يوصلانك الى القوة لا الى السعادة يا سيدى . ان جريشكا أوتريبييف وحده قد وصل الى أغراضه باغتصاب اسم ولقب. لقد خدع شعبا أعمى ، ولم يخدعه زمنا طويلا على كل حال . » .

ورغم هذه الاعتبارات قرر السيد جوليادكين ، حتى يرد ، أن ينتظر اللحظة التى تسقط فيها جميع الأقنعة من تلقاء ذاتها ، فتنكشف عندئذ حقيقة الناس والأشياء . وكان عليه أولا أن ينتظر ساعة انتهاء العمل ، فلا يشرع فى شىء قبل ذلك . هناك اجراءات معينة عليه أن يتخذها عند الخروج من المكتب . حتى اذا اتخذ هذه الاجراءات أصبح يعرف الخطة التى يجب عليه أن يتبعها لتحطيم هذا الصنم الوقح ، لسحق هذه الأفعى التى تقضم الحبة ، هذه الأفعى التى تحتقر الضعفاء . ومهما يكن من أمر، فان السيد جوليادكين لن يسمح أبدا بأن يعامل كخرقة بالية لا تصلح الا لتنظيف الأحذية المتسخة ؟ انه لن يسمح أبدا بهذا ، ولا سيما فى الظروف الراهنة . لولا هذه الوقاحة الأخيرة ، لكان يمكن لبطلنا أن يقرر ضبط نفسه وكبح جماحه ، ولكان يمكن أن يلتزم الصمت وأن يتجه الى المصالحه دون أن يصر على احتجاجات صاحبه كثيرة ... ولكان يمكن أن يكتفى بمناقشه قصيرة يؤكد بها حقوقه التى لا تجحد : كان يمكن عندئذ أن يقبل بعض التنازلات فى أول الأمر ، وأن يقبل تنازلات أخرى

بعد ذلك ، وأن ينتهى أخيرا الى قبول تسوية كاملة ، اذا اعترف أعداؤه صراحة بأنه على حق .

ويميناً انه ليكون مستعدا بعدئذ لمصالحة تامة ، حتى لقد يرق قلبه قليلا . ومن يدرى ، فقد يكون هذا بداية صداقة جديدة ، صداقة وطيدة حارة ، أقوى وأوسع من صداقة الليلة البارحة أيضا . وفى وسع هذه الصداقة الجديدة أن تمحو السيئات الناشئة عن هذا التشابه المشئوم بين شخصيهما محوا تاما ؛ وفى وسعها أن تحمل السعادة الى هذين الموظفين اللذين يستطيعان أن يعيشا عندئذ فى سلام وطمأنينة مائة سنة و ... أكثر من ذلك أن السيد جوليادكين قد أخذ يندم على تدخله دفاعا عن حقه تدخلا كان لا بد أن تكون له عواقب سيئة .

قال السيد جوليادكين لنفسه : « يكفى أن يتراجع ، يكفى أن يعترف أن هذا كله لم يكن الا سفاسف ، حتى أغفر له وأعفو عنه ... لا سيما اذا أعلن ذلك جهارا على رءوس الاشهاد . ولكننى لن أسمح أبدا بأن أعامل كخرقة بالية . اننى لم أسمح بذلك لأحد فى حياتى : لم أسمح به حتى لأشخاص أقوى منه ، فكيف أحتمل مثل هذه الاهانة من رجل فاسد مثله . لست خرقة بالية أيها السيد ، لا لست خرقة بالية . . » . ويمكن تلخيص النتيجة التى انتهى اليها السيد جوليادكين فى جملة هى التاليه : أنت ، أيها السد ، المسئول الآثم الوحيد عن حالة الامور هذه كلها . » .

لقد قرر السيد جوليادكين الآن أن يحتج ، أن يدافع عن نفسه ، بجميع الوسائل ، الى النهاية القصوى . ذلك طبعه . انه لا يستطيع الرضوخ للاهانة . انه لا يقبل أن يداس كما تداس خرقة بالية . انه لا يقبل هذا ، ولا سيما من شخص جدير بالاحتقار كهذا الشخص . قد يقبل مثل هذا من شخص يريد بل يعزم عزما أكيدا على أن يعامل السيد جوليادكين معاملة أتان ، ويتوصل الى ذلك بدون كبير مقاومة منه ، وبدون كبير خطر

على كل حال . هذا أمر كان السيد جوليادكين يقبله هو نفسه أحيانا . كان فى وسع الرجل أن يجعل من بطلنا خرقة بالية ، خرقة يرثى لها ، خرقة متسخة ، ولكنها خرقة يمكن أن يكون لها مع ذلك شيء من كرامة، ومن حماسة ، ومن عواطف : هى كرامة صغيرة طبعا، وهى طبعا عواطف فقيره مكبوتة فى الثنايا العميقة المتسخة من الخرقة البالية التعيسة أيضا ... ولكنها عواطف على كل حال ...

وكانت الساعات تجرى بطيئة بطئاً يبعث فى النفس الحزن واليأس . ودقت الساعه الرابعه اخيرا . فما هى الا لحظات حتى أخذ الموظفون ينهضون ويتركون المكتب وراء رئيسهم ليمضى كل منهم الى منزله . اندس السيد جوليادكين بين الجمهور . كانت عينه ترقب الشخص الذى كان عليه أن لا يدعه يفلت منه . ورأى بطلنا سميّه يتجه نحو حراس المعاطف . كان السيد جوليادكين الأصغر يترثر على عادته الكريهه مع الحارس بانتظار أن يأخذ معطفه . انها لحظة فاصلة . واستطاع السيد جوليادكين أن يشق لنفسه طريقا بين الجمهور ، لأنه لا يريد أن يكون بعيدا عن غريمه ، وطلب معطفه هو أيضا ؛ ولكن صديقه ، صديق الليلة البارحة ، أعطى معطفه قبله . لا شك أن صاحبه قد عرف كيف يتسلل الى الحارس ويتزلف اليه ويتملقه خفية ، بما عهد فيه من خسة وصغار .

ارتدى الغريم معطفه بسرعة ، وألقى على السيد جوليادكين نظرة ساخرة . ذلك تحد سافر واستفزاز مباشر على رءوس الأشهاد . ثم ألقى نظرة على ما حوله ، بالغطرسة المألوفة فيه ؛ وأراد أن يحتفظ بما حصل من تفوق على خصمه أمام جميع الناس ، فأسرع يختلط بالموظفين ، يقول لهذا كلمه ، ويونوس ذاك لحظة ، ويزجى الى الثالث ملاطفة ، ويتجه نحو الرابع بابتسامه ، ويصافح يدا من الأيدى ، ثم يهبط السلم خفيفا مرحا . هرع بطلنا يجرى فى أثره ، فما كان أشد اغتباطه حين استطاع

الفصل التاسع

كان جميع الناس متواطئون على السيد جوليادكين ، وكأن الطبيعة نفسها متواطئة عليه • ولكن السيد جوليادكين ظل واقفا لا يريد أن يعترف بالهزيمة• لا ••• انه لم يهزم ••• انه لم يغلب ••• ذلك شيء يحسه ••• وهو مستعد لأن يصارع ••• ولقد بلغ من القوة والحماسة فى حك يديه احديهما بالأخرى ، بعد انقضاء لحظة الذهول الأولى ، انه يكفى المرء أن يرى وضعه حتى يصبح على يقين من أنه لن يذعن بحال من الأحوال • ولقد كان الخطر واضحا مع ذلك • ان السيد جوليادكين يدرك هذا حق الادراك •

وكيف كيف السبيل الى تفاديه ؟ هذا هو السؤال • ولمعت فى رأسه فكرة فى لحظة من اللحظات : « أليس الأفضل أن يدع الأمور تجرى على أعنتها ، وأن يتراجع لا أكثر ولا أقل ؟ لماذا ؟ ولماذا لا ؟ أبتعد •••

أن يدركه عند آخر درجة من درجات السلم ! ••• وها هو ذا يمسكه من ياقة معطفه ••• بدا على السيد جوليادكين الأصغر غير قليل من الحيرة والارتباك ، ونظر فيما حوله نظرة مروعة ؛ ثم دمدم أخيرا يقول بصوت منطفىء :

ـ ما معنى هذا ؟

فقال بطلنا :

ـ أيها السيد ، اذا كنت رجلا محترما، فعليك أن تتذكر ما كان بيننا من علاقات الود والصداقة بالأمس •

ـ ها ••• نعم ••• بالمناسبة ، هل نمت نوما طيبا ؟

لم يستطع السيد جوليادكين أن ينطق بكلمة واحدة من شدة حنقه وغيظه • ثم قال :

ـ نعم ••• لقد نمت نوما طيبا جدا ••• ولكن اسمح لى أن أنبهك أيها السيد الى أن لعبتك مرتبكة ارتباكا فظيعا •

ـ من ذا الذى يدعى هذا ؟ ان أعدائى هم الذين يقولونه •••

كذلك أجاب الرجل الذى سمى نفسه للناس جوليادكين• وبحركة مفاجئة عنيفة تملص من قبضة بطلنا الضعيفة •

ولم يلبث أن وثب الى الشارع بسرعة ، وأخذ ينظر هنا وهناك ، فلما لمح عربة جرى نحوها مسرعا ، واختفى عن عينى السيد جوليادكين الأكبر • بقى بطلنا وحيدا ، مهجورا من جميع الناس ، فريسة غم شديد وحزن رهيب • نظر فيما حوله ، ولكنه لم يبصر أية عربة • أراد أن يركض ولكن ساقيه ترنحتا • استند بجسمه الى عمود من أعمدة الغاز ، منقلب الرأس ، فاغر الفم ، متقلص الظهر ، خائر القوى • ولبث على هذه الحال فى وسط الرصيف لحظات طوالا • كان يبدو للسيد جوليادكين أن كل شىء قد ضاع •

كأن الأمر لا يعنيني في شيء ... أترك القضية تجري من تلقاء ذاتها ، فلا أتدخل ... الأمر لا يعنيني وكفى ! ... ولعله يرضخ ويذعن هو أيضا ... يدور كمايدور الخذروف ، هذا الفاسق ، ثم يدور ويدور ، ثم يتوقف راضخا مذعنا ... نعم ، هو كذلك ، سأنتصر عليه بالاذعان. ولكن أين الخطر في الواقع ؟ أي خطر هنالك ؟ ليت أحدا يقول لي أين يوجد الخطر ! .. قضية تافهة .. قضية مضحكة .. لا أكثر » .

هنا توقف السيد جوليادكين . جمدت الكلمات على لسانه . أنب نفسه أشد التأنيب على هذه الخواطر . وسرعان ما اتهم نفسه بالحقارة والجبانة . ولكن هذا لا يقدم أموره خطوة واحدة . كان يحس احساسا واضحا بأنه لا بد في هذه اللحظة من اتخاذ قرار . وكان يحس أيضا بأنه مستعد لأن يدفع أي ثمن لمن يرشده الى حل . ولكن كيف يستطيع أن يجد هذا الحل بنفسه ؟ ثم ان وقته لا يتسع للبحث عن هذا الحل . وها هو ذا يستأجر عربة ويأمر سائقها بأن يقوده الى بيته ، حتى لا يضيع كثيرا من الوقت سدى . سأل نفسه : « والآن ، كيف حالك ؟ كيف حالك في هذه اللحظة يا ياكوف بتروفتش ؟ ما الذي ستفعله ؟ ما الذي تنوي أن تفعله الآن أيها الجبان ، أيها الرعديد ؟ لقد صنعت كل شيء حتى وصلت الى ما وصلت اليه ، وهاءنت ذا تأخذ تباكي وتتشكى ! » . هكذا كان السيد جوليادكين يستهزيء بنفسه بينما كانت رجات عربته العتيقة تهزه وتتقاذفه يمنة ويسرة . ان هذه الاستهزاءات المرة الكاوية التي تنكأ جروحه تحدث الآن في نفسه أقوى لذة بل أكبر متعة .

قال يخاطب نفسه : « تصور لحظة أن ساحرا ظهر أمامك الآن فجأة ـ ساحرا أو أي انسان آخر يملك قدرات فوق الطبيعة ـ فقال لك: اعطني اصبعا من أصابع يدك اليمنى يا جولياد كينَ فأسوي لك الأمور ، فلا يكون هنالك بعدئذ جولياد كين آخر ، وتعيش سعيدا بغير اصبع ...

ألا انني مستعد لأن أعطيه الاصبع التي يطلبها ... لسوف أعطيه اياها حتما ... لسوف أعطيه اياها دون أن تطرف لى عين ... » .

وصاح الموظف المسكين أخيرا يقول وقد أخذ منه اليأس كل مأخذ:
تبا لهذا كله ... لماذا هذه المصائب جميعها ؟ لماذا يجب أن يقع لى كل هذا ، لماذا يجب أن يقع لى هذا بعينه ، لا أى شىء آخر غيره ؟ وكان كل شىء يجرى على ما أحب قبل ذلك ... كنت راضيا وكنت سعيدا ... فهل كان لا بد أن يقع لى ما وقع ؟ ... مهما يكن من أمر فلن نصل الى شىء بالأقوال وحدها ، وانما يجب أن تقرن الأقوال بأفعال . » .

وبينا هو يهم أن يتخذ قرارا دخل الى مسكنه ، فتناول غليونه دون أن يضيع لحظة واحدة ، وأخذ ينشق بكل ما أوتى من قوة ، نافثا سحائب الدخان فى كل اتجاه هنا وهناك ، سائرا فى الغرفة جيئة وذهابا ، وقد تملكه انفعال شديد . وفى أثناء ذلك أخذ بتروشكا يعد المائدة . فما هى الا لحظات حتى كان بطلنا قد اتخذ قراره الحازم الذى لا رجعة عنه . فرمى غليونه ، وأسرع يرتدى معطفه ويخرج من المنزل قائلا لخادمه انه لن يتغدى اليوم فى البيت . وفيما كان يهبط السلم أدركه بتروشكا لاهثا وهو يمد اليه قبعته التى نسى بطلنا أن يأخذها من فرط تعجله . فتناول جوليادكين القبعة وأراد أن يقول بضع كلمات عرضا من أجل أن يبرر هذا النسيان حتى لا يظن بتروشكا الظنون فى تعليل اضطرابه ، ولكن بتروشكا لم يتنازل أن يلقى عليه نظرة واحدة ، بل عاد أدراجه . فلم يسع السيد جوليادكين الا أن يضع القبعة على رأسه مستغنيا عن أى تبرير ، وأسرع يهبط السلم وهو يدمدم بأن كل شىء يمكن أن يسوى على أحسن وجه . وكان يحس مع ذلك برعدات تسرى فى جسمه كله من الرأس الى القدمين . واستوقف حوذيا وأمره أن يمضى به الى منزل آندره فيليبوفتش .

قال لنفسه فجأة وهو يهم أن يشد حبل جرس منزل آندره فيليبوفتش : « ولكن أليس الأفضل أن أرجىء هذه الزيارة الى الغد ؟.. ثم ماعسانى قائلا له ؟ ليس ثمة شيء ذو بال أقوله له ... ماذا اقول له ؟ المسألة تافهة في الواقع ، المسألة تافهة لا قيمة لها ... هى مسألة تافهة تفاهة مطلقة ... هى مسألة صغيرة حقيرة ليست بذات شأن ... أو لا يكاد يكون لها شأن ... وما هى بالمسألة الخطيرة على كل حال ... »

وفجأة شد السيد جوليادكين حبل الجرس . فسمع صوت الجرس يرن فى داخل البيت ، ثم سمع وقع خطوات تتجه نحو الباب . لعن السيد جوليادكين نفسه على هذا التعجل وهذا التهور. وسرعان ماتذكر مشكلاته الأخيرة ومشاداته الأخيرة مع آندره فيليبوفتش ، التى كانت قد انتقلت الى المحل الثانى من اهتمامه ، بسبب وجود ما هو أشد منها لجاجة عليه . ولكن أوان الهروب كان قد فات ، فها هو ذا الباب يفتح . وشاء حسن حظ بطلنا أن يقال له ان آندره فيليبوفتش لما يعد من المكتب ، وانه لن يتغدى اليوم فى المنزل . قال صاحبنا يخاطب نفسه هاذيا من شدة الفرح: « أنا أعرف أين يتغدى.. لاشك أنه يتغدى قرب جسر اسماعيلوفسكى». وسأله الخادم هل من رسالة ينقلها منه الى مولاه ، فأجابه جوليادكين بقوله : « لا يا صديقى ، شكرا ، ليس هناك شيء ... سأعود مرة أخرى ... » . قال جوليادكين ذلك وأسرع يهبط السلم فرحا كل الفرح .

حتى اذا صار فى الشارع نقد الحوذى أجره وطلب اليه أن ينصرف فطالبه الحوذى بزيادة قائلا : « لقد انتظرت مدة يا سيدى ، ولم أرحم حصانى فى سبيل خدمتك » ، فكافأه السيد جوليادكين بخمس كوبكات مبتهجا ، ومضى يسير على قدميه .

قال لنفسه وهو فى الطريق : « المسألة حرجة ... ولا يسع المرء

أن يهملها • ولكننى اذا فكرت فى الأمر مليا أرى أنه من غير المفيد أن أقلق نفسى الآن • ما فائدة أن أجتر الحكاية نفسها فأعكر صفوى وأحنق نفسى ؟ ما فائدة هذا العذاب وهذا الاضطراب وهذا الألم أسببه لنفسى ؟ ما جدوى أن أمزق قلبى ؟ ما كان فقد كان ••• ولا حيلة لى فى العودة عنه ••• ولا فائدة من الرجوع اليه •• هلا فكرت قليلا : هذا انسان •• أقول هذا انسان حمل رسائل توصى به خيرا •• وهو فيما يقال من معدن طيب خليق بأن يجعله موظفا ناجحا ••• وسلوكه لا غبار عليه • وهو الى ذلك فقير ••• قاسى فى حياته آلاما كثيرة ، ولقى متاعب جمة من كل نوع • والفقر ليس بعيب • فما شأنى أنا فى الأمر ؟ ••• » •

« وما هى القضية فى الواقع ؟ لقد شاءت نزوة من نزوات الطبيعة أن يكون بينى وبين هذا الانسان تشابه كبير كتشابه قطرتى ماء ، حتى لكأنه نسخة منى حقا ؛ فهل يرفضون توظيفه لهذا السبب ؟ اذا كان القدر ، نعم اذا كان القدر الأعمى هو المسئول عن هذا التشابه ، فهل يداس الرجل كما تداس خرقة باليه ، وهل يمنع من حق العمل ؟ ••• أين العدالة فى هذا ؟ ••• انه رجل فقير مهجور أعزل ، ينفطر القلب لرؤيته • فالبر والاحسان والمحبة توجب حمايته وتأمر برعايته • نعم ، ذلك هو الأمر تماما • هل على رؤسائنا أن يفكروا فى القضية على نحو ما فكرت أنا فيها من قبل ؟ يا لغبائى ! يا لحماقتى ! ألا اننى حيوان كعشر حيوانات بلاهه ••• من حسن الحظ أن رؤساءنا قد أحسنوا عملا فضموا الفقير المسكين ••• لأفرض أننا توأمان ، نعم ، لأفرض أننا أخوان توأمان منذ الولادة ، وكفى ! ••• هل فى هذا شىء خارق للمألوف ؟ أبدا ••• ومن الممكن تعويد الموظفين الآخرين على هذه الفكرة ••• أنا واثق أنه اذا دخل الى مكتبنا شخص غريب لما رأى فى هذا التشابه ما يسىء الى الكرامة أو يجرح الشعور ••• حتى لقد يكون فى ذلك جانب يبعث على المحبة ،

وذلك على أساس الفكرة التالية : لقد أرادت مشيئة الله أن تخلق مخلوقين متشابهين تشابها كاملا فأحدهما « مثل » الثاني .. والرؤساء الكرام فهموا مشيئة الله فضموا التوأمين في كنفهم ومنوا عليهما بالرعاية والحماية .. »

واسترد جولیادكين أنفاسه ، ثم عاد يقول وقد خفض صوته قليلا :

« صحيح أنه كان من الأفضل أن لا يقع شيء من هذا أصلا ... لا تلك المصادفة التي تنير عاطفة المحبة ، ولا قصة التوأمين هذه ... ما كانت حاجتنا الى كل هذا ؟ لقد كان في الامكان أن يستغني عن القضية كلها أساسا ... رباه ! ما هذه الورطة التي أقحمنا فيها هؤلاء الجن ، هؤلاء الشياطين ! ويجب الاعتراف على كل حال أن سلوكه لا يدل على شيء من خلق كريم ... ثم انظر الى وجهه الباش الذي ينم عن النفاق ... انه لانسان ماكر حقا ... انسان متجسس ، عبد متزلف حقير ، هذا الجولیادكين ! ... انه لن يتورع عن تلطيخ شرفي بسلوكه الدنيء ، هذا الوغد ! .. يجب عليّ أن أراقبه ! يا لهذا العمل من سخرة ! ... ولكن هل هذا مفيد حقا ؟ انه حتما غير مفيد ... هو رجل نذل ما في ذلك ريب ... أما أنه نذل فهو نذل ... وسيظل نذلا . ولكن الآخر رجل شريف . طيب .. فليبق هو نذلا ولأبق أنا شريفا . وسيقول الناس : جولیادكين هذا نذل جبان فلنشح عنه ولا تخلطن بينه وبين الآخر ! أما جولیادكين ذاك فهو شريف فاضل دمث مسالم فيمكن الاعتماد عليه في العمل ، ويستحق ترقية من غير شك . هذه هي المسألة ... ولكن ... ماذا لو خلطوا بيننا ! هو لا يتورع عن شيء ... هو لا يتورع عن انتحال شخصية رجل آخر ... نعم هو لا يتورع عن ذلك أبدا ... وهو لا يتورع عن احالة ذلك الرجل الآخر الى خرقة بالية ... آه ... يا رب ! يارب ! ما هذه النازلة ! ... » .

وفيما كان السيد جولیادكين ممتلئاً بهذه الخواطر كان يضرب في

الارض على غير هـــدى ، لا يعرف الى أين تقـوده قدماه • ولم يثب الى رشده الا حين صار في شارع نفسكي • وكان لابد أن يثوب الى رشده فى الواقع ، لانه اصطدم بأحد المارة اصطداما عنيفا ، فتمتم ببضع كلمـات اعتذار دون أن يرفع رأسه وكان الرجل الذى اصطدم به قد ابتعد بعد أن نطق ببعض الشتائم • رفع السيد جوليادكين رأسه ونظر فيما حوله • فلاحظ عندئذ أنه على مقربة من المطعم الذى استراح فيه قبيل ذهابه الى تلك السهرة فى منزل أولسوفى ايفانوفتش • فسرعان ما أحس بقرصات فى معدته ، فتذكر أنه لم يتناول غداءه بعد ؛ واذ كان من جهة أخرى غير مدعوا الى الغداء عند أحد فقد أسرع بصعد درجات سلم المطعم وقد قرر أن يأكل لقمة على عجل •

الأسعار غالية قليلا ، ولكن غبنا يسيرا كهذا ليس من شأنه أن يوقف السيد جوليادكين ، فلا قيمة لمثل هذه السفاسف عنده فى لحظات كهـذه اللحظات • فى قاعة تتلألأ فيها الأنوار كان حشد كبير من الزبائن يزدحم حول البسطة التى مدت عليها ألوان من المقبلات ترضى أشد الأذواق رهافة • وكان القيم على البسطة غارقا فى العمـل لا يكاد يستطيع خدمة الزبائن جميعا ، فهو يسكب الشراب ، ويقدم الأطباق ، ويتقاضى الأثمان، ويرد البواقى • اتخذ السيد جوليادكين مكانه فى الصف ، حتى اذا جاء دوره مد يده الى فطيرة صغيرة فتناولها ، ثم مضى الى أحد الأركان يأكلها بشهية كبيرة مديرا للحضور ظهره • فلما فرغ من التهامها عاد الى البسطة فردّ الطبق • واذ كان يعرف الأسعار فقد أخرج قطعة من النقد بعشرة كوبكات ووضعها على البسطة وهو يبحث بنظره عن البائع ليدله على أن هذه الكوبكات العشرة هى ثمن فطيرة صغيرة أكلها •

فهمهم البائع يقول بين أسنانه :

ـ عليك روبل وعشرة كوبكات •

فدهش السيد جولیادکین دهشة شديدة .

ـ أتخاطبنى أنا ؟ يخيل الىّ أننى لم آخذ الا فطيرة واحدة .

فقال البائع مؤكدا :

ـ بل أخذت احدى عشرة فطيرة .

ـ ماذا تقول ؟ ... يخيل الى أنك على خطأ ... فاننى واثق تقريبا من أننى لم آخذ الا فطيرة واحدة .

ـ عددت الفطائر التى أخذتها . لقد أخذت احدى عشرة فطيرة . على الانسان حين يتناول طعامه بنفسه أن يعرف كيف يدفع ثمن ما أخذ . نحن لا نقدم هنا هدايا ! ...

صعق السيد جولیادکین .

وساءل نفسه : « أتراني سحرت ؟ »

وكان البائع فى أثناء ذلك ينتظر قرار بطلنا . وكان الناس قد أخذوا يتحلقون حوله . فدس يده فى جيبه وأخرج منها قطعة فضية بروبل واحد ، مقررا أن يدفع على الفور ، حتى لا يتعرض لارتكاب خطيئة ...

قال لنفسه وقد احمر وجهه حتى صار بلون الجنبرى : « طيب .. فلأدفع ثمن احدى عشرة فطيرة ما دام يصر على ذلك ... لا غرابة فى أن يأكل امرؤ احدى عشرة فطيرة ... هنيئاً مريئاً ... ومهما يكن من أمر فليس فى هذا ما يثير الدهشة أو يبعث على الضحك ... »

وفجأة ساور السيد جولیادکین حدس سريع . فما ان رفع عندئذ بصره حتى فهم كل شىء ، وأدرك سر السحر ... تبددت الشبهات كلها دفعة واحدة ... فعلى عتبة الباب المؤدى الى الغرفة المجاورة ، وراء ظهر

البائع ، أى أمام بطلنا تماما ، عند فرجة الباب الذى كان السيد جوليادكين يظنه حتى ذلك الحين مرآة ... هنالك كان يقف رجل قصير لا شك فى أنه السيد جوليادكين نفسه ... لا جولياكين الأصلى ، لا جولياد كين القديم ، بطل هذه القصة ، بل جولياد كين الآخر ، جولياد كين الجديد . وكان واضحا أنه مبتهج جدا . انه يبتسم ابتسامة وقحة ، ويتجه الى بطلنا باشارات من رأسه وغمزات من عينيه . وهو يتحرك فى مكانه متهيئا للهروب الى الغرفة المجاورة عند أول بادرة ، وللانسلال من هنالك الى الخارج عن طريق سلم الخدمة ، فتستحيل عندئذ مطاردته .. وكان يمسك بيده آخر قطعة من الفطيرة العاشرة ، وها هو ذا يلتهمها على مرأى من بطلنا مطقطقا بلسانه تعبيرا عن الغبطة والحبور ..

قال السيد جولياد كين لنفسه وقد احمر وجهه احمرارا شديدا ، واحترقت نفسه شعورا بالخجل والعار : « استغل الحقير التشابه بيننا ولم يستح أن يفعل هذا أمام الناس ... أتراهم أدركوا ذلك ؟ أتراهم يبصرونه ؟ يظهر أن أحدا لم يشعر بهذا الانتحال ... » . قذف السيد جولياد كين قطعة النقد الفضية على البسطة كما لو كانت تحرق أصابعه ، ثم انسل من خلال الحشد وخرج ، حتى دون أن يلاحظ الابتسامة الوقحة التى ظهرت فى وجه البائع ، وهى ابتسامة تعبر عن ظفره وتشهد بسيطرته الهادئة على نفسه .

قال جولياد كين لنفسه : « هو سعيد لأنه لم يذهب بكرامتى تماما . نعم ، يجب أن أشكر لهذا اللص وان أشكر للقدر أن الأمور قد سويت أخيرا . صحيح أن هذا البائع كان فظاً . ولكن يجب الاعتراف بأنه كان على حق . ان له روبلا وعشرة كوبات حقا . هذا طبيعى ... ما من أحد يعطى شيئاً بالمجان فى بلادنا . ومع ذلك كان فى وسعه أن يكون أكثر دماثة ، هذا المتحذلق ! ... » .

بهذا كان السيد جوليادكين يحدث نفسه وهو يهبط السلم . حتى اذا بلغ الدرجة الأخيرة من درجات المدخل توقف على حين فجأة متجمدا. صعد الدم الى وجهه ، وظهرت فى عينيه الدموع . كان فى ذروة الألم والشعور بالذل . وظل جامدا على هذه الحال قرابة نصف دقيقة ، ثم قرع الأرض بقدمه قرعة قوية ، وقفز الى الرصيف بوثبة واحدة ، وأخذ يركض كمجنون لا يلتفت الى وراء ولا يلوى على شىء . ركض نحو بيته فى شارع « الدكاكين الست » لاهثا دون أن يشعر بالتعب ، فما ان وصل حتى جلس على الديوان وتناول محبرة وريشة وأخرج ورقه وأخذ يكتب بيد ترتعش انفعالا (فعل ذلك قبل أن يخلع معطفه ، خلافا لعاداته اللطيفة ، وقبل أن يحشو غليونه) . واليكم الرسالة التى حررها .

السيد المحترم ياكوف بتروفتش ،

« ما كان لى أن أتناول القلم لولا أن الظروف الراهنة بالاضافة الى سلوكك يا سيدى تجبرنى على ذلك اجبارا . فصدقنى اذا قلت لك ان الضرورة وحدها هى التى تلزمنى بأن أدخل معك فى شروح كهذه ؛ لذلك أرجوك أولا أن لا تعد عملى هذا جوابا على ما بدر منك من اهانات، جوابا فكرت فيه مليا ثم عزمت عليه أخيرا ، بل نتيجة لا معدى عنها للظروف التى تحيط بمصيرنا المشترك » .

قال السيد جوليادكين لنفسه وهو يعيد قراءة ما كتب : « يبدو لى أن هذا جيد جدا . فهو محتشم ومهذب ، ولا يخلو مع ذلك من قوة وصلابة ... لا شىء فيه يؤذى الشعور أو يهين الكرامة فيما يخيل الى . ثم ان هذا من حقى ... »

واستأنف يتم كتابة رسالته :

« ان ظهورك المفاجىء الغريب فى تلك الليله العاصفة التى كنت أنا فيها ضحية هجوم وحشى وعدوان آثم من أعدائى الذين أترفع عن ذكر أسمائهم الآن احتقارا لهم ، كان نواة جميع أنواع سوء التفاهم القائمة بيننا الآن ...

« ثم ان اصرارك يا سيدى على أن تركب رأسك وعلى أن تتدخل عنوة فى حياتى ، العامة والخاصة ، أمر يتجاوز الحدود التى تفرضها أبسط مبادىء الأدب وأدق قواعد التعامل بين الناس فى هذه الحياة . من نافل القول أن أذكرك بما فعلت يا سيدى حين اغتصبت أوراقى وحين غششت وخادعت على حساب سمعتى ، بهدف الحصول على رضى رؤسائنا وهو شىء لا تستحقه البتة . ومن نافل القول أيضا أن أفيض فى الكلام على أسلوبك المهين المقصود الذى عمدت اليه للتهرب من مفاتحتك فى الامر مفاتحة كان لا بد منها .

« ولا أريد أخيرا أن أشير الى تصرفك الغريب فى المطعم ــ أقول الغريب حتى لا أقول الشاذ ــ ولست أحب طبعا أن أندب روبلا لا قيمة له عندى ، ولكنى لا أستطيع أن أكظم استيائى حين أتذكر تلك الطعنة التى وجهتها الى شرفى يا سيدى ، وذلك بحضور أشخاص لا شك فى أنهم أناس ينتمون الى بيئة راقية رغم أننى لم أتشرف بمعرفتهم ... » .

قال جوليادكين يخاطب نفسه : « أترانى لم أسرف ؟ أترانى لم أبالغ ؟ هذه الاشارة الى البيئة الراقية ، أليس لها وقع مهين ؟ ... ولكن لا بأس ... فلا بد من اظهار شىء من الحزم والصلابة . ومع ذلك أستطيع لتخفيف وقع ذلك فى نفسه أن أدس فى آخر الرسالة ملاطفة من الملاطفات تتملقه وترضيه . فلنر ماذا نستطيع أن نفعل من أجل هذا» .

« ما كنت لأسمح لنفسى أن أزعجك برسالتى هذه يا سيدى لولا

اقتناعى العميق بأن نبل عواطفك واستقامة خلقك سيمليان عليك الاجراءات التى ينبغى لك اتخاذها اصلاحا لما أفسدت حتى تعود الأمور الى ما كانت عليه فى الماضى •

« وانى ، والأمل يملؤنى ، لأسمح لنفسى أن أعتقد أنك لن ترى فى رسالتى هذه ما يؤذى شعورك أو يخدش كرامتك ، وأنك لن تضن علىّ برسالة تبعث الىّ بها مع خادمى شارحا الأمر •

« وبانتظار جوابك يشرفنى يا سيدى أن أكون خادمك المخلص جدا :

ى جوليادكين

ما ان فرغ جوليادكين من كتابة رسالته حتى قال لنفسه : « عظيم !• سويت المسألة ••• وصلنا فى الأمر الى مرحلة المراسلة • ذنب من هذا ؟ هو ذنبه طبعا ! انه هو الذى ألجأنى الى ضرورة مفاتحته كتابة • أنا على حق ••• »

وأعاد السيد جوليادكين قراءة رسالته مرة أخيرة، ثم طواها ووضعها فى ظرف ، ونادى بتروشكا • دخل الخادم متورم العينين من النعاس على عادته • وكان يبدو عليه أنه منزعج انزعاجا شديدا •

قال له مولاه :

— سوف تحمل هذه الرسالة يا صديقى ••• هل تفهم ؟

ولكن بتروشكا ظل أبكم لا ينطق •

— سوف تأخذ هذه الرسالة فتحملها الى القسم الذى أعمل فيه من المكتب ؛ وهناك سوف تسأل عن الحاجب المناوب ، وهو اليوم فاخرامايف ••• هل تفهم ؟

ـ أفهم •

ـ أفهم ••• ألا تستطيع أن تقول : نعم أفهم ياسيدى ؟ طيب ••• ستسأل اذن عن المستخدم فاخرا مايف ، فتقول له ، اسمع : ان مولاى يبعث اليك بتحياته ويرجوك ضارعا أن تبحث فى دفتر العناوين الموجود فى دائرتنا عن المكان الذى يسكن فيه الموظف جوليادكين •

ظل بتروشكا أخرس لا ينبس بحرف• وخيل الى السيد جوليادكين أنه رأى ابتسامة تلم بشفتيه •

ـ طيب • اذن ستسأله عن عنوان ذلك الموظف الجديد الذى يسمى جوليادكين •

ـ حاضر •

ـ ستسأله عن هذا العنوان، فمتى حصلت عليه مضيت تحمل الرسالة الى ذلك العنوان الذى سيذكره لك • هل تفهم ؟

ـ أفهم •

ـ فاذا وصلت الى المكان •• أقصد المكان الذى حملت اليه الرسالة، فرأيت أن السيد الذى عليك أن تسلمه الرسالة ••• أعنى جوليادكين هذا ••• مالك تضحك يا أبله ؟

ـ لست أضحك • ليس هناك ما يدعو الى الضحك • ذلك أمر لا يعنينى • لا شأن لى أنا • لا شىء فى نظرى بمضحك •

ـ طيب ••• فى هذه الحالة ، اذا رأيت أن ذلك السيد قد أخذ يسألك عن مولاك كيف حاله ، أقصد كيف صحته ••• أعنى اذا ألقى عليك أسئلة من هذا النوع ••• فلا تجبه بشىء ، وحسبك أن تقول له : « مولاى بخير ••• وهو يرجوك أن تبعث اليه بجواب مكتوب • » • هل فهمت ؟

ـ فهمت .

ـ الأمر واضح اذن . تقول له : « مولاى بخير ... صحته جيد
... وهو يتهيأ لزيارة بعض الأصدقاء ، وينتظر منك جوابا مكتوبا . »
... وهو يتهيأ لزيارة بعض الاصدقاء ، وينتظر منك جوابا مكتوبا . »
فهمت ؟

ـ اذن فاذهب . آه من هذا الأبله كم يتعبنى ! انه يقضى وقته مستهزئا ... مم يضحك ؟ ألا اننى فى مأزق رهيب ! أنا حقا فى مأزق رهيب ! على كل حال ، قد تكون الخاتمه حسنة ... ان هذا الوغد سينفق ساعتين كاملتين متسكعا في الطريق ... لا شك أنه سيتوقف فى مكان ما ... يستحيل على المرء أن يعهد اليه بمهمة . آه ... ما هذه المصيبة ، ما هذه المصيبة التى تسقط على رأسى ! ...

كان بطلنا شاعرا بجميع المصائب التى نزلت عليه ، فقرر أن يهدىء روعه قليلا ، خلال ساعتين على الأقل ، بانتظار عودة بتروشكا . وظل يضطرب فى الغرفة ساعة برمتها : دخن غليونا ثم تركه ، وحاول أن يقرأ ، واضطجع أخيرا على الأريكة وتناول غليونه مرة أخرى ، ثم استأنف طوافه المسعور فى الغرفة . ودّ لو يتأمل ، لو يفكر ، ولكنه كان عاجزا عجزا مطلقا عن تركيز ذهنه . كان وضع الانتظار هذا أشبه باحتضار . فقرر أن يغير خطته . قال لنفسه : « ان بتروشكا لن يعود قبل انقضاء ساعة . فأستطيع أن أضع المفتاح عند بواب العمارة ، وأن أستفيد من هذا الوقت فى القيام بتحريات ... فى القيام بتحريات أتولاها بنفسى . » . ثم لم يلبث ، لرغبته فى القيام بهذه التحريات على وجه السرعة دون أن يضيع لحظة من وقت ، لم يلبث أن تناول قبعته وخرج الى فسحة السلم فأغلق الباب بالمفتاح دورتين ، ومضى الى البواب فأودعه

المفتاح وأعطاه مع المفتاح « بقشيشا » عشر كوبكات • يجب أن نذكر فى هذه المناسبة أن السيد جوليادكين قد أصبح فى هذه الآونه الأخيرة كريما كرما لم يعهد مثله فيه • وخرج السيد جوليادكين الى الشارع وانطلق الى الهدف الذى رسمه لنفسه • سار أولا نحو جسر اسماعيلوفسكى فلما بلغه بعد نصف ساعة ، دخل بغير تردد الى فناء العمارة التى كان يعرفها حق المعرفة ، ورفع عينيه نحو نوافذ مسكن مستشار الدولة بيرنديف •••

كانت جميع النوافذ مظلمة الا ثلاثا تحجبها ستائر حمر • فقال بطلنا لنفسه : « ليس لدى أولسوفى ايفانوفتش مدعوون فى هذا المساء ، والأسرة كلها باقية فى المنزل • » •

لبث السيد جوليادكين لحظة طويلة فى فناء العمارة مترددا لا يدرى ماذا يفعل • وأوشك أن يتخذ قرارا لكنه غير رأيه فى آخر لحظة ، فحرك يده باشارة تدل على التململ ، وغادر المكان • قال لنفسه وهو فى الفناء : « لا ••• ما الى هنا يجب أن أجىء ! ما عسانى فاعلا هنا ؟ ••• الأفضل أن أمضى أقوم بتحرياتى بنفسى ••• » • فلما اتخذ هذا القرار اتجه نحو مكتبه • كان عليه أن يسير مسافة طويلة شاقة فى الوحل • وكان الثلج المبلل يتساقط أسناخاً كبيرة • ولكن بطلنا كان فى ذلك اللحظة لا يبالى العقبات • لقد تبلل حتى العظام ، وتلوث بالطين ، ولكنه لم يكن يعبأ بذلك كله • « المهم أن أبلغ الهدف المرسوم » ، كذلك كان يردد لنفسه • وكان السيد جوليادكين يقترب من غايته فعلا • فها هو ذا يبصر من بعيد أمامه تلك الكتلة القاتمة ، ذلك المبنى الضخم الذى تشغله الادارة العامه • قال لنفسه : « قف •• الى أين أنا ذاهب ؟ ما عسانى فاعلا هنا ؟ ••• هبنى عرفت العنوان ! ••• ان بتروشكا سيكون أثناء هذا الوقت قد عاد الى

البيت حاملاً جوابه ••• فأنا اذن أضيع وقتا ثمينا ••• لقد بددت وقتى سدى ! على كل حال ، لا ضير ••• ما زلت أستطيع أن أتدارك كل شيء ••• ولكن ألا يكون من المفيد حقا أن أذهب الى فاخرامايف ؟ ••• لا ••• لا داعى الى ذلك •• سأذهب اليه فى آن آخر •• اه •• لم يكن بى أية حاجة الى الخروج من البيت •• هذه خصلة فى طبعى •• دائما متعجل ، سواء أكان هناك ضرورة أم لم يكن هناك ضرورة •• دائما متعجل الى استباق الأحداث ••• همم •• كم الساعة الآن ؟ انها تقارب التاسعة ولا شك •• فماذا اذا عاد بتروشكا فلم يجد أحدا ؟ حقا لقد ارتكبت بالخروج حماقة ••• آه ••• ما كان أغنانى عن هذه المغامرة .! »

بعد هذا الاعتراف الصادق بأن سلوكه كان حماقه ، أخذ بطلنا يركض نحو مسكنه فوصل اليه لاهثا يكاد يختنق ، فأعلمه الخفير أنه لم ير حتى الآن أثرا لبتروشكا •

قال بطلنا لنفسه : « تماما ••• هذا ما توقعته ••• ومع ذلك فالساعة الآن هى التاسعة ! •• يا للوغد الدنيء ! •• انه لا ينفك يسكر ! رباه رباه ! ما هذه الأقدار! يا لهذا اليوم من يوم ! •• » •

وصعد السيد جوليادكين السلم ممتلىء الرأس بهذه الخواطر وهذه الشكاوى ، ففتح باب بيته ، وأشعل شمعة ، وخلع ملابسه ، ثم اضطجع على الديوان جائعا مرهقا مكدودا محطم الأعضاء ، ينتظر عودة بتروشكا • الشمعة تسكب ضياءها الشاحب على الجدران ••• لبث السيد جوليادكين زمنا طويلا يفكر وينظر حواليه ، الى أن نام آخر الأمر نوما كالرصاص ثقلاً •

ثم لم يصح من نومه الا فى ساعة متأخرة • كانت الشمعة قد ذابت تقريبا فهى الآن تدخن وتوشك أن تنطفىء • نهض السيد جوليادكين

بوثبة ، وشخف وانتفض ، فسرعان ما تذكر كل شيء ، نعم كل شيء . انه يسمع شخير بتروشكا قويا من وراء الحاجز . وهرع نحو النافذة . ما من ضياء فى الأفق . وفتح كوة من الكوى . ان كل شيء صامت . المدينة نائمة ، كأنها ميتة . لا شك أن الساعة هى الثانية ، وربما الثالثة ... وانطلقت ساعة الحائط تدق دقتين . أسرع السيد جوليادكين الى حجرة خادمه .

فاستطاع بعد جهود كثيرة أن يوقظه ويوقفه . وكانت الشمعة قد انطفأت أثناء ذلك . فأنفق السيد جوليادكين ما يزيد على عشر دقائق فى البحث عن شمعة أخرى وفى اشعالها . فلما عاد الى بتروشكا وجده قد نام من جديد .

« وغد دنيء ، خليع حقير .. هلا صحوت ؟ هلا قمت ؟ » كذلك أخذ يردد السيد جوليادكين وهو يحاول أن يوقظ بتروشكا . واستطاع بعد نصف ساعة من جهود متصلة أن يوقظه آخر الأمر . فنقله الى غرفته، فلاحظ عندئذ أنه منطفيء سكرا ، لا يكاد يستطيع الانتصاب على ساقيه :

ـ يا كسلان ، يا وغد ، يا لص ! هل تعرف أنك تطعن قلبى ، هل تعرف انك تقتلنى قتلا ؟ آه يا رب ! ترى ماذا صنع برسالتى يارب ! ماذا صنع بها ؟ ولماذا كتبت أنا هذه الرسالة ؟ ماذا كانت حاجتى الى كتابتها ؟ اندفعت مرة أخرى فى حماسة لا داعى اليها ! غرورى هو الذى حضنى! غرورى هو الذى ورطنى ... ماذا صنعت برسالتى يا لص ؟ لمن أعطيتها ؟

ـ ما أعطيتها لأحد ... ثم لم يكن معى رسالة ...

عض السيد جوليادكين يديه من شدة حنقه ؛ ثم قال لخادمه :

... استمع الى يا بطرس ! أنت سكران ؟

ـ سأسمع .

ـ الى أين ذهبت ؟ أجبنى !

ـ الى أين ذهبت ؟ ... ذهبت الى عند أناس طيبين ... ليس هذا عيبا ...

ـ رباه رباه ! ولكن قل لى الى أين ذهبت أولا؟ هل مررت بالادارة؟ .... استمع الىَ يا بطرس ! انت سكران ؟

ـ أنا ، سكران ؟ أبـ .. أبـ .. أبدا ... فلأمت اذا كنت أكذب !

ـ لا .. لا .. لا مانع أن تكون سكران .. أنا ألقيت عليك هذا السؤال عرضا ، بل حسن أن تكون سكران .. ليس عيبا أن تكون سكران يا بتروشكا .. ليس عيبا أبدا . لا شك أنك نسيت الآن مؤقتا .. ولكنك ستتذكر .. قل لى : هل تتذكر أنك ذهبت الى الموظف فاخرامايف ؟ هل ذهبت اليه ؟ نعم أم لا ؟

ـ لا .. لم أذهب اليه ... لم أضع قدمى عنده ... وهذا الموظف لا وجود له .. أنا مستعد لأن ..

ـ لا يا بطرس ، أقول لك : لا .. اسمع يا بطرس .. أنا لست غاضبا منك .. أنت ترى أننى لست غاضبا .. ما الذى حدث ؟ لا شك أن الجو بارد ورطب فى الخارج ، لذلك شربت قليلا ... لا مانع ... أنا لست غاضبا . أنا أيضا شربت قليلا يا أخى .. هيا ... ابذل بعض الجهد ... حاول أن تتذكر ، قل لى كل شىء يا أخى .. هل ذهبت الى الموظف فاخرامايف ؟

ـ طيب ... ما دام الأمر كذلك ... فأنا أحلف لك بشرفى أننى ذهبت اله .. وأنا مستعد لأن ..

ـ طيب •• طيب جدا يا بتروشكا ••• حسن جدا أنك ذهبت اليه •• أنا لست غاضبا •• أنت ترى أننى لست غاضبا •• هيا •• هيا (كذلك تابع بطلنا يخاطب خادمه ، مظهرا ثقته به ، مبتسما له ، رابتا على كتفه) هيا قل لى ، اعترف لى •• لقد شربت قليلا يا عفريت ••• قليلا فقط •• شربت بعشرة كوبكات لا أكثر•• آه منك ياشيطان • طيب •• لا بأس• أنت ترى أننى لست غاضبا • لست بزعلان يا أخى ، لست بزعلان أبدا •••

ـ لا •• أنا لست شيطانا •• أؤكد لك •• وأنا ذهبت الى أناس طيبين •• أنا لست شيطانا •• ولم أكن شيطانا فى يوم من الايام ..

ـ ولكن لا •• يا بتروشكا •• اسمعنى يا بطرس •• أنا لم أقصد سوءا • واضح أننى لم أقصد سوءا • ليس شتيمة أن يوصف امرؤ بأنه شيطان • أقول لك هذا لأطمئنك • أنت تعلم يا بتروشكا أنه يقال لأحد الناس فى بعض الأحيان انه شيطان أو لئيم أو خبيث من قبيل المدح لا الذم •• معنى هذه الصفات عندئذ هو أنه حاذق ، هو أنه لا يستطيع أحد أن يخدعه • بعض الناس يحبون هذا النوع من التعابير • هيا هيا ليس هذا بشىء • هيا قل لى الآن يا بتروشكا ، قل لى باخلاص وصدق ، دون أن تخفى شيئا ، هل ذهبت الى الموظف فاخرامايف ، وهل أعطاك العنوان المطلوب ؟

ـ نعم أعطانى العنوان • انه رجل طيب • ثم لقد قال لى : «مولاك رجل شريف ، رجل شهم جدا • أبلغه تحياتى •• أبلغ مولاك تحياتى وقل له اننى أحبه وأحترمه • هو رجل شهم يا بتروشكا ، وأنت كذلك يا بتروشكا ، أنت فتى شهم حقا » • هذا ما قاله لى ••

صاح السيد جوليادكين بصوت مختنق :

ـ آه يا رب يا رب ! والعنوان •• العنوان يا يهوذا ؟

ـ العنوان ؟ أعطانى العنوان ••

ـ أعطاك العنوان ؟ طيب •• فأين يسكن اذن جوليادكين هذا ••• أين يسكن هذا الموظف جوليادكين ؟

ـ قال لى : «جوليادكين يسكن فى شارع « الدكاكين الستة » ، على اليمين فى هذا الشارع ، بالطابق الثالث • هناك يسكن جوليادكين ••• »••

أعول جوليادكين صائحا وقد خرج عن طوره من فرط الحنق :

ـ يا لص ، يا مجرم •• عنى انما تتكلم أنت ، عنى أنا • أما أنا فأكلمك عن شخص آخر ، عن جوليادكين آخر يا لص !

ـ كما تحب • أنا لا فرق عندى • لك ما تشاء •

ـ والرسالة ؟ ماذا فعلت بالرسالة يا قليل الحياء ؟

ـ الرسالة أعطيتها ، أعطيتها ••• وقال لى : « بلغ مولاك تحياتى • ان مولاك رجل شهم •• أبلغه سلامى ••• » •

ـ من قال لك هذا ؟ أهو جوليادكين ؟

صمت بتروشكا لحظة ، ثم ابتسم كاشفا عن جميع أسنانه ، وتفرس فى مولاه محدقا •

قال جوليادكين وهو يختنق حنقا :

ـ اسمع يا لص •• أجبنى •• ماذا فعلت ؟ ما صنعت بى ؟ لقد قتلتنى يا شقى ، قتلتنى •• دققت عنقى •• ذبحتنى يا يهوذا !

قال بتروشكا بلهجة حازمة وهو يتراجع خلف الحاجز :

ـ كما يحلو لك •• أنا لا فرق عندى •

ـ تعال هنا •• ارجع الى هنا يا لص •

ـ لا لن أرجع ، لا داعى الى الرجوع . أفضل أن أذهب الى عند ناس طيبين .. ناس طيبين يعيشون عيشة شريفة .. ناس طيبين لا يغشون ولا يزيفون .. لا يزدوجون .. لا يصبح أحدهم اثنين .. لا يصبح مثلين ..

هنا أحس السد جوليادكين بأن يديه وقدميه تجمدت كالجليد .

أصبح لا يستطيع أن يتنفس . وتابع بتروشكا يقول :

ـ تماما .. لا يزدوجون .. لا يصبح أحدهم اثنين .. لا يصبح أحدهم مثلين . لا يسيئون الى الله ولا الى البشر الشرفاء .

ـ أنت سكران يا حقير .. نم الآن يا لص . وغدا أؤدبك .

كذلك دمدم جوليادكين بصوت لا يكاد يسمع . أما بتروشكا فكان يجمجم بأقوال لا تفهم .

سمعه بطلنا يضطجع على سريره . لقد صرت نوابض السرير . تثاءب بتروشكا تثاؤبا طويلا ذا صوت ، وتمطى ، وغط أخيرا فى نوم عميق شاخرا .

ان السيد جوليادكين أقرب الى الموت منه الى الحياة . ان سلوك خادمه وتلميحاته الغريبة ـ وهى فى الحق أغمض وأبعد من أن تسبب هذا الغضب كله لدى السيد جوليادكين، لاسيما وأنها صادرة عن سكران ـ قد قلبت نفسه رأسا على عقب . لا شك أن الأمر أخذ يجرى مجرى سيئا .

دمدم السيد جوليادكين يقول لنفسه بينما كان جسمه كله يرتعد بتأثير احساس غريب مزعج : « ماذا دهانى حتى أيقظته هكذا فى قلب الليل ؟ ماذا دهانى حتى مضيت أتشاجر مع رجل سكران ؟ ماعسى ينتظر

من رجل سكران ؟ انه يكذب فى كل لحظة • ولكن الى ماذا كان يلمح هذا اللص ؟

« آه ••• يا رب ! ولكن قل لى يا جوليادكين ! لماذا كتبت هذه الرسالة ؟ انك أنت قاتل نفسك • ألم يكن فى وسعك أن تصمت ؟ هل كان حتما عليك أن تخطىء ؟ أما من وسيلة لديك للاستغناء عن ارتكاب الخطأ تلو الخطأ ؟ انك على مسافه اصبعين من ضياعك ؟ أوشكت أن تصير الى خرقة بالية ، وهأنت ذا لا تزال تنهض محاولا أن تؤكد غرورك • لقد أساءوا الى شرفك ، فما بالك لا تحاول أن تنقذ شرفك يا قاتل نفسه ؟ ••• » •

بهذا كان السيد جوليادكين يخاطب نفسه جالسا على أريكته لايجرؤ من رعب أن يتحرك • وفجأة جذب عينيه شيء سرعان ما رأى أنه جدير بأكبر انتباه وأعظم اهتمام ؟ فاضطرب اضطرابا شديدا ومدّ يده الى هذا الشيء وهو يمتلىء أملا وخوفا وحيرة • ترى ألم يكن هذا سرابا ؟ ألم يكن مجرد وهم من أوهام الحواس ؟ ألم يكن ثمرة كاذبة من ثمرات الخيال ؟ ••• لا لم يكن هذا سرابا • لم يكن هذا وهما • هى رسالة ، رسالة حقا ، رسالة مرسلة اليه شخصيا • تناول السيد جوليادكين الرسالة، خافق القلب حتى ليكاد قلبه ينخلع •

قال لنفسه : « لاشك أن هذا اللص هو الذى أتى بها • لا شك أنه وضعها على الطاولة ثم نسيها • نعم لا شك أن هذا هو ما حدث ، لا شك أن هذا بعينه هو ما حدث ••• » •

كانت الرسالة من الموظف فاخرامايف ، وهو زميل شاب كان فى الماضى صديقا لبطلنا •

« لقد تنبأت بهذا كله ، كما أتنبأ الآن بما تضمه هذه الرسالة » . قال جوليادكين هذا لنفسه وأخذ يقرأ :

عزيزى السيد ياكوف بتروفتش ،

ان خادمك سكران ، ولا يمكن أن يتفاهم المرء مع سكران . لذلك أوثر أن أرد عليك كتابة . وأسارع فأؤكد لك أن المهمة التى كلفتنى بها، أعنى ايصال الرسالة الى الشخص المرسلة اليه بواسطتى ، ستنفذ بأمانة فى الموعد المطلوب . وهذا الشخص الذى تعرفه أنت حق المعرفة هو الان أحد أصدقائى . لن أسميه لأننى لاأحب أن أسىء الى انسان برىء كل البراءة . ان هذا الشخص هو الآن واحد من رفاقنا فى بنسيون كارولين ايفانوفا ، يسكن فى الغرفة التى كان ينزلها ، أيام كنت واحدا منا ، ضابط المدفعية ذاك الآتى من تامبوف . وأذكر لك عرضا أنك سنطيع أن تلقى هذا الشخص حيثما يوجد أناس شرفاء مخلصون ، وتلك من الخصال التى لا يوصف بها جميع البشر . ثم اننى قد عقدت النية جازما على أن أقطع كل صلة بك منذ هذا اليوم . فانه ليستحيل بعد الآن أن نحتفظ بما كان بيننا فى الماضى من لهجة الود وعلاقات الصداقة .

« لذلك أرجوك ، ياسيدى ، أن تبعث الىّ فور استلام هذه الرسالة بما لى عليك من دين ، وهو مبلغ روبلين هما ثمن موسى الحلاقة المستوردة من الخارج التى بعتك اياها دينا منذ سبعة أشهر . آمل أن تتذكر هذا من عهد سكنانا معا عند كارولين ايفانوفنا التى أحترمها من كل قلبى . والسبب الذى يدعونى الى سلوك هذا المسلك معك هو أنك فى رأى جميع الناس العقلاء قد فقدت كل معنى من معانى الشرف والكرامة ، وأن صحبتك أصبحت خطرا على أخلاق الناس الأسوياء الأبرياء . ان فى الحياة أشخاصا يعيشون بعيدين عن مبادىء الحق والخير ، فكل كلمة من

كلماتهم كذب وكل موقف من مواقفهم نفاق مشبوه . أما الدفاع عن شرف كارولين ايفانوفنا الفاضلة التى لا غبار على سلوكها ، والتى هى فتاة بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة ، رغم أنها تقدمت فى السن ، والتى هى سليلة أسرة أجنبية محترمة ، فسيبقى هنا لك أناس يتولونه فى كل زمان ومكان ؛ وقد رجانى بعض أصدقائى أن أذكر لك ذلك فى رسالتى ، وأنا أتحمل تبعة ما يقولون .

« ومهما يكن من أمر فستعلم بهذا الأمر فى حينه اذا كنت لم تعلمه بعد . وقد بلغنى من ذلك المصدر نفسه على كل حال أن المجد يكللك فى هذه الآونة الأخيرة فى مختلف أحياء العاصمة ، لذلك افترض أنك أصبحت تعرف منذ الآن رأى الناس فيك . ولا يسعنى فى ختام رسالتى هذه ، يا سيدى ، الا أن أبلغك أن الشخص الذى تعرفه والذى أغفل ذكر اسمه فى رسالتى عن عمد حياءً يحظى بتقدير عظيم من جميع كرام الناس ؛ فهو يجمع الى دماثة الخلق وبشاشة الطبع نشاطا كبيرا وهمة فعساء فى العمل ، لذلك يقدره رؤساؤه وسائر خيار القوم الذين يعيش بينهم . انه مخلص لما يقول ، وفى للصداقة ، لا يسمح لنفسه يوما أن يغتاب أولئك الذين تربطه بهم صلات الصداقة على علم جميع الناس .

« وفى الختام ، أظل خادمك المخلص .

ن . فاخمارايف

حاشية : يجب عليك أن تصرف خادمك . انه سكير ، ولا شك أنه يسبب لك متاعب كثيرة . استخدم فى مكانه أوستاس الذى كان يخدمنا فى الماضى وهو الآن بغير عمل . ان خادمك ليس سكيرا فحسب ، بل هو لص أيضا . ففى الاسبوع الماضى باع كارولين ايفانوفنا رطلا من قطع

السكر بسعر بخس ، وهذا يحمل على الاعتقاد بأنه قد اختلس هذا السكر من بيتك قليلا قليلا كلما سنحت فرصة .

« أذكر لك هذا حرصا منى على مصلحتك . فلست كبعض الناس الذين لا يهمهم الا أن يهينوا وأن يخدعوا من يحيطون بهم ، ولاسيما الشرفاء الذين لا يسيئون الظن بل يسارعون الى التصديق وتنطلى عليهم الأكاذيب ؛ لست كبعض الناس الذين لا ينفكون يغتابون هؤلاء ويسيئون اليهم خفية ، بدافع واحد هو الغيرة منهم وشعورهم بالعجز عن أن يكونوا مثلهم .

ن.ف.

ظل بطلنا ساكنا على أريكته لحظة طويلة بعد قراءة رسالة فاخرامايف . ان ضياء جديدا ينفذ الآن الى الضباب الكثيف العجيب الذى يلفه منذ يومين . أخذ يرى رؤية واضحة ... أراد أن ينهض ، أن يسير بضع خطوات عسى أن ينعش فكره ويجمع خواطره ويركزها على نقطة وحيدة ، ويتخذ هكذا فى الهدوء قرارا .

ولكنه ما ان همّ أن يقوم حتى عاد يتهاوى على مكانه نفسه مهدود القوى عاجزا .

« لقد تنبأت بكل شىء .. هذا أكيد .. ولكن ماذا يريد أن يقول فى رسالته ؟ ما هو المعنى الحقيقى الذى يكمن فى هذه الرسالة ؟ الحق أننى أعرف هذا المعنى . ولكن الى أين يقودنا هذا ؟ لو قد قال لى بوضوح افعل كيت أو كيت .. لو قد أعلن لى بوضوح : 'يطلب منك هذا أو يطلب منك ذاك ، اذن لأطعت ... ألا ان المسألة أخذت تجرى مجرى مزعجا .

« آه ••• ليتنى فى الغد ••• وددت لو أصل الى حل العقدة بأقصى سرعه ممكنة • اننى أعرف الآن ماذا يجب علىّ أن أفعل • سأقول لهم ما يلى : اننى موافق على آرائكم ، ولكننى أرفض أن أضيع شرفى •• اما الآخر •• فسنرى •• ثم كيف أمكن لهذا الآخر ، لهذا الشخص المشكوك فيه ، أن يكون له فى هذه المسالة ضلع ؟ ما الذى أقحمه فى هذه القضية ؟ آه •• تعال أيها الغد ! انهم الان يغتابوننى ويتواطئون علىّ ويحاولون أن يدهوروننى •• المهم ألا اضيع الوقت سدى •• يستحسن فيما اظن ان أكتب رسالة على الفور ، أن اظهر بعض التسامح ، أن أقدم بعض التنازل •• ثم أبعث بالرسالة فى أول ساعة من ساعات الصباح ، وأتخذ من جهتى ما يجب أن أتخذه من اجراءات • نعم ، ذلك ما ينبغى أن أفعله •• سأشن حملة مضادة وسيرون النتائج ، هؤلاء الطيور ••• والا فلسوف يجروننى فى الوحل وينتهى أمرى •• » •

تناول السيد جوليادكين ورقا وقلما ، وحرر الرسالة التالية جوابا على رسالة السكرتير الحكومى فاخرامايف :

عزيزى السيد نستور اجناتيفتش !

« قرأت رسالتك بدهشة عميقة وحزن صادق • فقد أدركت أنك حين كنت تلمح الى أشخاص أشرار منافقين انما كنت تقصدنى أنا • اننى لأشعر بمرارة صادقة حين أرى أن النميمة سرعان ما مدت جذورها الطويلة الكثيرة فأفسدت هدوئى وأساءت الى شرفى وسمعتى • وانه ليحزننى ويحز فى نفسى أن أدرك أيضا أن الشرفاء من الناس ، أن أولئك الذين يملكون أنبل المشاعر وأسمى الأفكار ، ويتصفون باستقامة الخلق والطبع ، يتخلون عن مؤازرة الشرف والفضيلة ويتزاحمون بكل قواهم وبكل ما أوتوا من مزايا حول الغدر المؤذى الذى ما ينفك ينتشر ويمتد

بمزيد من القوة فى هذا الزمان القاسى الفاسد ، وا أسفاه ! أما عن دينك علىّ ، فاننى أرى أن من واجبى المقدس أن أرد اليك هذين الروبلين • وأما عن تلميحاتك ، يا سيدى العزيز ، عن تلميحاتك المتصله بشخص من الجنس اللطيف ، وكذلك عن النيات والأهداف والمطالب التى تنسبها اليه ، فاننى أعلن لك يا سيدى أنها ما تزال غامضة فى ذهنى لم أستطع الى فهمها سبيلا ، فاسمح لى ، يا سيدى العزيز، أن أربأ بسمعتى المحترمة وبعواطفى الرفيعة أن تلطخ • وانى مع ذلك لمستعد أن نتكاشف فى الأمر بالتخاطب كلاما متى شئت ؟ فذلك فى نظرى خير من تبادل الرسائل • وانى لمستعد أيضا لقبول أية خطوة فى سبيل المصالحة شريطة أن تتوافر النية الصادقة المخلصة من الطرفين •

« ومن أجل ذلك أرجوك ياسيدى أن تبلغ الشخص المذكور موافقتى على أن يقوم بينى وبينه حديث شخصى خاص ؟ وأنا أدع له أن يحدد لاجتماعنا الزمان والمكان اللذين يناسبانه •

« وقد قرأت بكثير من المرارة يا سيدى ما ألمعت اليه من أنه كانت لى معك مواقف تزعم أن فيها اهانة لك أو اساءة اليك • وكأنك تعتب علىّ أننى خنت صداقتنا القديمة وأننى اغتبتك وقلت فيك سوءا • اننى أعتقد أن مرد هذه الاتهامات الى سوء تفاهم ، أو قل الى سعايات دنيئه والى الغيرة والكره لدى أولئك الدين يحق لى ، واعيا كل الوعى ، أن أعدهم من أعدائى الألداء العتاة • ولا شك عندى فى أن هؤلاء يجهلون أن البراءة تحمل قوتها فى ذاتها ، وأن الدناءة والوقاحة والاستهتار المنير لدى بعض الناس لا بد أن تلقى عقابها احتقارا عاما فى يوم من الأيام ؟ وسيهلك هؤلاء الناس يومئذ جزاء ما جنت أيديهم من سيئات وما حملته قلوبهم من شر • لذلك أرجوك يا سيدى أن تبلغ هؤلاء الأشخاص أن أطماعهم

الغريبة ورغباتهم الدنيئة العجيبة في أن يغتصبوا بالقوة المكان الذي يحتله غيرهم حقا من حقوقه ، لا يستحقون الا الاستغراب والاحتقار والاشفاق، ولا يستحقون خاصة الا أن يحجزوا في مستشفى من مستشفيات المجانين .

« وأضيف الى هذا أن محاولات من هذا القبيل ممنوعة بحكم القوانين ، وذلك في رأيي أمر سليم له ما يسوغه ، لأن على كل انسان أن يقنع بالمكان الذي خصص له . ان لكل شيء حدودا ، واذا كان الأمر في الحالة الراهنة أمر مزاح ، فانني أؤكد لك أنه مزاح كريه يدل على سوء ذوق صاحبه ، بل يدل على سوء خلقه . وفي وسعي أن أؤكد لك ، يا سيدي العزيز ، أن المعاني التي عبرت لك عنها منذ هنيهة بشأن المكان المخصص لكل انسان ، مشتقة من أنبل مبادىء الأخلاق .

« وفي الختام ، يشرفني أن أبقى خادمك المطيع :

ى . جوليادكين

الفصل العاشر

لاشك في أن أحداث اليومين الاخيرين قد أحدثت في نفس السيد جوليادكين اضطرابا عميقا • كان نومه في تلك الليلة قلقا • والحق أنه لم يستطع أن يغمض جفنيه أكثر من خمس دقائق • لكأن روحا خبيثا قد نثر على سريره شوكا • قضى ليلته بين اليقظان والوسنان ، يتقلب على سريره بغير انقطاع من جنب الى جنب ، ويئن ويدندن ، فما يكاد يغفو لحظة حتى يستيقظ • انه نهب غم شديد وخوف هائل ، ماتنفك تحاصره ذكريات غامضة ورؤى عجيبة •

انها ليلة « كوابيس » لا ينقصها شيء ••• فتارة يتراءى له وجه أندريه فيليبوفتش في ظلام سرى ، متجهما قاسيا ، عنيف النظرة ، لايرحم، وعلى شفتيه تقريع خشن بارد يهم أن ينطلق ••• فيريد السيد جوليادكين أن يقترب منه محاولا أن يبرىء نفسه بطريقة من الطرق ويحاول أن يبرهن له على أنه ليس كما يصوره أعداؤه ، وأنه انسان كسائر الناس ، بل وأنه يملك عدا ذلك مزايا كثيرة كبيرة فطر عليها ••• وفيما هو كذلك

اذا بوجه آخر يتراءى له على حين فجأه، وجه يعرفه بسهولة من فرجة فمه الوقحه ، واذا بهذا الوجه يدمر جميع محاولات بطلنا فى لحظه واحدة ، متوسلا الى ذلك بحيلة من الحيل الحقيرة الدنيئه ، فهو ياخذ يلطخ سمعة بطلنا على مرأى منه ومسمع ، وهو ياخذ يسىء الى كرامته ، ويجره فى الوحل ، ويغتصب فى آخر الامر مكانه فى الوظيفة وفى المجتمع ... وتارة يشعر بطلنا بأكال فى جمجمته ، نتيجة لطمة بالاصبع أصابه بها أحدهم ؟ والمشهد يجرى على مرأى من الناس ؟ وربما فى مكاتب الادارة نفسها ؟ وهو عاجز عن دفع الاهانة ... وفيما يحفر بطلنا فى دماغه محاولا أن يفهم سبب عجزه عن الاحتجاج على مثل هذه الاهانة ؟ اذا بذكرى اللطمة تتخذ شكلا جديدا ، شيئاً بعد شىء .

فهو الآن ذكرى جبانة من الجبانات تحاصر ذهنه ، جبانة تافهة أو ذات بال ... وهو لا يعرف تماما هل الأمر أمر شىء شهده أو أمر شىء حدثوه عنه . ولكن لعل هذه الجبانة قد صدرت عنه هو ، ولعلها تصدر عنه كثيرا ، مرة تلو مرة ، لأغراض حقيرة وأهداف مخجلة ... أو لعلها تصدر عنه مصادفة بغير سبب ، عن حياء أو عن عجز ... فلماذا صدرت عنه هذه الجبانة ، نعم لماذا ؟ ... الحق أن السيد جوليادكين كان يعرف حق المعرفة لماذا .

وهنا يحمر السيد جوليادكين وهو نائم ، ويحاول أن يسكت خجله، فيؤكد متمتما « أن عليه أن يظهر شيئا من قوة الارادة ، أن عليه أن يظهر كثيرا من قوة الارادة ... نعم .. عليه ذلك .. ولكن ما معنى قوة الارادة الآن ؟ ...» . ولكن الشىء الذى يحنق السيد جوليادكين حنقا شديدا الآن هو أن ذلك الشخص الكريه نفسه يعود الى الظهور فى تلك اللحظة نفسها . هل دعى الى ذلك ؟ هل جاء من تلقاء نفسه ؟ أليس الأمر

مدبرا ؟ المهم أنه يظهر مرة أخرى بفرجة فمه الكريهة ، ويأخذ يدمدم هو أيضا قائلا بابتسامة وقحة : « ما قوة الارادة هذه ؟ هل نملك شيئا من قوة الارادة أنا وأنت يا ياكوف بتروفتش ؟ ... » .

ورأى جوليادكين نفسه بعد ذلك فى صحبة أناس عرفوا بذكائهم ورقة شعورهم ورهافة ذوقهم . ورأى نفسه لامعا مرموقا بتهذيبه الراقى وبديهته الحاضرة . لقد ملك على الحفل قلوبهم . حتى لقد استطاع أن يفتن عقول عدد من أعدائه الذين كانوا حضورا فى الحفل ، فسره ذلك سرورا عظيما . كان سيد السهرة غير منازع ... وبلغ السيد جوليادكين ذروة المجد حين سمع رب البيت يمدحه لأحد المدعوين على انفراد ... فطار صوابه فرحا بذلك . ولكن سرعان ما ظهر ذلك الشخص الكريه القاسى مرة أخرى على حين فجأة . فما هى الا لحظة حتى كان السيد جوليادكين الأصغر يقلب الوضع رأسا على عقب . فذهب ما حصله بطلنا من انتصار ومجد أدراج الرياح . ان سميّه يكسف نجمه ويمرغه فى الوحل . وأسوأ من ذلك أنه يجعله فى نظر الناس نسخة هو أصلها اللامع ، ويبرهن جازما على أن بطلنا ليس ذلك الرجل الذى قد توهم به المظاهر ، وأن من الواجب ابعاده اذن من كل مجتمع لامع راق . وقد جرى هذا المشهد بسرعة بلغت من الشدة أن بطلنا لم يتسع وقته لأن يفتح فمه بكلمة . كان شبيهه الدنىء قد استولى على عقول المدعوين استيلاء كاملا ، فاذا هم ينأون عن السيد جوليادكين المسكين باحتقار شديد . لم يستطع أحد منهم أن يقاوم سحر الغاصب . لقد استأثر بهم جميعا ، واحدا بعد آخر ، من ألمعهم الى أتفههم . كان هذا الشخص المزيف الصلف يعرف كيف يتملق الناس للوصول الى مآربه . كان من النعومة والحذق فى التملق أن مخاطبه ما يلبث أن يرق قلبه وتهتز عاطفته فاذا هو يأخذ ينشج ساكبا دموع الانفعال دليلا على عمق رضاه وقوة انشراحه . وذلك

كله يتم فى لحظة كومض البرق . ان ما يتصف به تأثير هذا الشخص الخبيث الماكر من سرعة لأمر يذهل العقل . فما ان يفرغ من الالتفاف على أحد الناس وأسره بالزلفى حتى تراه ينتقل الى آخر ، فما هى الا بضع كلمات من تملق تكافئها ابتسامة ودود ، اذا هو يثب بساقيه القصيرتين الصلبتين نحو ثالث ، وهكذا دواليك : مزيد من عبارات التزلف وجديد من مظاهر الود ؟ فما يكاد المرء ينشق نسمة هواء حتى يكون صاحبنا قد التفت على رابع فظفر به . لكأن الأمر سحر .. ان جميع الناس يستقبلونه باشين فرحين ، ويعطفون عليه ويميلون اليه ، ويحملونه الى السحب . وهم جميعا يعلنون على رءوس الأشهاد أنه بآدابه الرفيعة وروحه الفكهة وفكره النقاد يتفوق على السيد جوليادكين الأصلى تفوقا عظيما . لقد أُذل بطلنا المسكين ، بطلنا البرىء ، وأهانه خصمه وسامه سوء العذاب . ان الناس الآن ينبذون هذا الانسان الذى يفيض قلبه رحمة ومحبة لأخيه الانسان ، ويرهقونه ، ويمطرونه بوابل من اللطمات بأطراف سباباتهم .

ويسرع بطلنا المسكين هاربا الى الشارع وهو يرتعد خوفا ورعبا وحنقا . وها هو ذا يبحث عن عربة . انه يريد أن يطير فورا الى صاحب السعادة يشكو اليه أمره ، فان لم يجده فليطر الى آندره فيليبوفتش . ولكن ما من حوذى يرضى أن يقله وا أسفاه ... فالحوذيون جميعا يقولون له : « لا يا سيدى ... يستحيل علينا أن نقل رجلين متشابهين تشابها مطلقا ... وما ينبغى لرجل شريف يريد أن يعيش حياة شريفة، ما ينبغى أن يكون له مثل ... » . وينظر السيد جوليادكين حواليه وهو يهذى من فرط الغيظ ، فيلاحظ أن الحوذيين وبتروشكا الذى كان منضما اليهم هم جميعا على حق ما فى ذلك ريب . ذلك أن شبيهه الدنىء كان على مسافة خطوتين منه ، يتهيأ لمقارفة وقاحة جديدة على عادته المقيتة .

نعم ، ان هـذا الدجال الكريه الذى يتظاهر فى كل مناسبة بأدبه الجم وعواطفه النبيلة سيرتكب الآن فعلا حقيرا لا يدل حتما على شيء من حسن التهذيب ورهافة الذوق .

فما كان من بطلنا المسكين ــ السيد جوليادكين الأصلى ــ الا أن فر هاربا وقد امتلأ قلبه شعورا بالعار والحزن ... انه يركض الآن قدما على غير هدى لا يدرى أين يذهب . ولكنه كلما خطا خطوة وكلما قرعت قدمه أسفلت الرصيف مرة ، انبجس الى جانبه عدو جديد كأنه يخرج من بطن الأرض ، انبجس جوليادكين جديد ، انبجس ذلك الدجال نفسه رهيبا حقيرا باعثا على التقزز والاشمئزاز كما كان . ويأخذ هؤلاء الأشخاص ، المتشابهون جميعا ، يأخذون يركضون واحدا وراء آخر ، فكأنهم سرب من الأوز يطارد بطلنا ويلاحقه . أصبح بطلنا لا يعرف الى أين يهرب . أصبح لا يعرف كيف ينجو من هؤلاء الجوليادكين الذين يجرون وراءه . تقطعت أنفاس بطلنا المسكين . وسرعان ما حاصره هؤلاء الاشخاص المتشابهون من كل جهة . انهم ألوف . انهم مبثوثون فى كل مكان . انهم يجتاحون جميع شوارع العاصمة . وهـذا رجل من رجال الشرطة يرى نفسه مضطرا أمام هذا التراكم الفاضح الى أن يمسك بتلابيبهم فيقبض عليهم ويحبسهم فى مركز مجاور من مراكز الشرطة . واستيقظ بطلنا وقد تجمد من الخوف والذعر وتخدرت أعضاؤه ... فاذا ... فاذا هو يرى أن الواقع ليس خيرا من المنام .. ان حلقه يختنق .. خيل اليه أن أحدا يريد أن يلتهم قلبه .. وأصبح السيد جـوليادكين عاجزا عن احتمال هذا العذاب مزيدا من الاحتمال .

« لا .. لن يتم هذا » ، كذلك أعول يقول عن اقتناع ، وهو ينتفض ناهضا على سريره ، فما ان صاح هـذه الصيحة حتى استيقظ من نومه تماما ..

الوقت يبدو ضحى • الضوء يغمر الغرفة على غير عادة • أشعة كبيرة من الشمس تسلل من زجاج النوافذ الذى تشقق جليده عن أشكال كأشكال الأزهار ، وتنتشر فى الحجرة • دهش السيد جوليادكين • انه لم يألف ان تزوره الشمس قبل الظهر ، ولا يذكر أنها خالفت هذه القاعدة ا دراما له فى يوم من الأيام ، اذا صدقت ذاكرته • وما ان راودته هذه الدهشة حتى سمع ساعة الجدار ينفلت نابضها الذى يؤذن بأنها ستدق • فقال لنفسه وهو يترقب دقات الساعة مغموما : « ها •• سنعرف الآن كم الساعة » • فما كان أشد دهشته حين لم تدق الساعة الا دقة واحدة • صاح بطلنا وهو ينب عن سريره قائلا : « ما هذا ؟ » • وكأنه لم يصدق أذنيه ، فها هو ذا يهرع الى ما وراء الحاجز ، حتى دون أن يتدثر بشىء : كان عقرب الساعة يشير فعلا الى الواحدة ••• ألقى السيد جوليادكين نظرة على سرير بتروشكا ••• فلم يجد أثرا لخادمه لا على السرير ولا فى الغرفه • كان السرير مرتبا • ولم يجد السيد جوليادكين حذاءى خادمه ، وذلك دليل على أن الخادم قد خرج • مضى السيد جوليادكين نحو باب المدخل مسرعا ، فوجده مقفلا ، فأخذ يردد بصوت خافت وقد تملكه انفعال شديد وأخذت أعضاؤه جميعها ترتعش : « ولكن أين بتروشكا ؟ » • وانه لكذلك اذا بفكرة مفاجئة تومض فى ذهنه كالبرق ، فيسب نحو الطاولة ، فيفتشها وينبش كل ركن من الأركان • نعم ، لقد صدق ظنه • ان الرسالة التى كتبها فى الليل الى فاخمارايف قد اختفت •• وبتروشكا غائب •• وعقرب الساعة يشير الى الواحدة •• ثم ان الرسالة التى تلقاها أمس من فاخمارايف تشتمل على نقاط غامضة هاهى ذى تتضح الآن •• لم يبق أى شك فيما يتصل بخادمه بتروشكا : لقد رشوه •• لقد رشوه حتما •• رشوه ما فى ذلك ريب •

« ها •• هذه هى عقدة القضية كلها اذن » ، كذلك صاح السيد

جوليادكين وهو يلطم جبينه . أصبح الآن يرى الأمور رؤية أوضح . « اذن فى مغارة هذه الألمانية الغادرة انما تدبر جميع المؤامرات . الآن فهمت . فحين حثتنى نحو جسر اسماعيلوفسكى انما كانت تقوم اذن بمناورة تضليل ، فهى تموه الأمور ، وتحرف انتباهى ، وتمد الفخاخ فى أثناء ذلك . يا لها من ساحرة غدارة ! نعم ، هذه هى المسألة . كل شىء يصبح واضحا تماما متى نظرنا الى الأمور من هذه الزاوية . وظهور هذا الوغد يصبح واضحا أيضا . الأشياء مترابطة . كانوا يدخرونه منذ زمن طويل ، كانوا يهيئونه ويعدونه للخروج فى اللحظة المناسبة. نعم ، أصبح لكل شىء تعليل ... أصبح كل شىء مفهوما .. هذه هى المسألة اذن . طيب .. لا ضير .. لم يضع بعد كل شىء ، لم تفت كل فرصة .. ما يزال فى الوقت متسع .. » . وهنا ، فى هذه اللحظة تماما ، تذكر بطلنا مذعورا أن الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد الظهر : « ما عسى يكون الحال اذا كان وقتهم قد اتسع منذ الآن ل ... » ، كذلك قال السيد جوليادكين لنفسه وأفلت من صدره أنين . فقال يطمئن نفسه : « لا ... انهم يكذبون ... لما يتسع وقتهم بعد .. سوف نرى على كل حال .. » . ثم أسرع يرتدى ملابسه ، وتناول ورقة وريشة ، فحرر الرسالة التالية :

السيد المحترم ياكوف بتروفتش !

اما أنا واما أنت . يستحيل أن نكون كلانا فى وفت واحد معا ! لذلك أعلن لك أن دعواك الغريبة ، المضحكة ، المستحيلة التحقيق فى الوقت نفسه ، أعنى أن تظهر بمظهر الأخ التوأم لى وأن تستغل هذا الظرف ، فذلك لن يزيد فى آخر الأمر على أن يلطخ شرفك بالعار وعلى أن يضيعك . لذلك أناشدك ، فى سبيل مصلحتك أن تنسحب ، وأن تخلى المكان للناس الشرفاء العقلاء حقا ! والا رأيتنى مضطرا الى اتخاذ اجراءات

قصوى . وعلى هذا أضع قلمى منتظرا جوابك ... وأظل تحت تصرفك فى جميع الأمور ـ ومنها المسدسات .

ى . جوليادكين

فلما انتهى بطلنا من رسالته فرك يديه بقوة ، ثم ارتدى معطفه على عجل ، ولبس قبعته ، وفتح بات بيته بالمفتاح ، ومضى نحو مكتبه .

حتى اذا بلغه تردد عن الدخول . كانت الساعة هى الثانية والنصف . لقد فات الأوان . غير أن حادثا لا يدل ظاهره على أن له قيمة لم يلبث أن ذهب بتردده . ففى ركن من مبنى الادارة ظهر شخص لاهث أحمر الوجه يمشى ملامسا الجدار مشية فأر ثم يتسلل الى درجات المدخل ، ويتسلل من هناك الى الدهليز . انه كاتب المحكمة أوستافياف . ان السيد جوليادكين يعرفه حق المعرفة . فهو رجل يمكن الانتفاع به ، مستعد لكل شىء فى سبيل عشرة كوبكات .

ان السيد جوليادكين لا يجهل هذا الوتر الحساس فى أوستافياف الذى لا شك أن تغيبه القصير الذى حمله عليه ظمأ قاهر قد زاد ميله الى النقود الرنانة . واذ قرر بطلنا أن يبذل كل ما يجب أن يبذله من تضحيات ، وثب الى درجات المدخل وتوغل فى الدهليز يلاحق أوستافياف وناداه ، ثم انتحى به ركنا مظلما وراء مدفأة ضخمة ، وقد لاح فى وجهه السر ، حتى اذا صار الرجلان هنالك أخذ السيد جوليادكين يسائله :

ـ هيه يا صديقى ... ماذا يحدث فوق ؟ هل أدركت ما أريد أن أقول ؟

ـ أنا أصغى اليك يا صاحب النبالة ، وأتمنى لصاحب النبالة صحة جيدة .

ـ حسن جدا يا صديقى ، حسن جدا ، سأكافئك يا صديقى . والآن قل لى يا صديقى ماذا يجرى هنالك فوق !

قال كاتب المحكمة وهو يخفى بيده قليلا فمه الذى أوشك أن ينفرج :

ـ ما هو السؤال الذى تشرفنى بالقائه على ؟

ـ أنا ؟ طيب .. اسمع .. أسألك عن .. ولكن اياك أن يذهب بك الظن الى أشياء خارقة .. بالمناسبة : هل آندره فيليبوفتش هنا ؟

ـ نعم هو هنا .

ـ والموظفون الآخرون ؟

ـ هم هنا ، كالعادة .

ـ وصاحب السعادة .

ـ صاحب السعادة أيضا .

قال كاتب المحكمة ذلك ، وعاد يغلق فمه بيده . وخيل الى بطلنا أن أوستافياف يتفرس فيه بنظرة غريبة تفيض استطلاعا وتعجبا .

ـ اذن يا صديقى لا شىء خارقا يحدث هنالك فوق ؟

ـ لا .. لا شىء البتة .

ـ طيب يا صديقى ، ألم يأت أحد على ذكرى بشىء ؟ ... هه ؟ ولو عرضا .. أأنت تفهم عنى يا صديقى ؟

ـ لا .. حتى الآن لم أسمع شيئا .

ومرة أخرى وضع كاتب المحكمة يده على فمه ، وشفع هذه الحركة

بنظرة غريبة ألقاها على مخاطبه . وكان السيد جوليادكين يتفرس هو أيضا فى وجه أوستافياف ، محاولا أن يلتقط أية علامة تكشف عما يخفيه رأس الرجل من أفكار . لا شك فى أن هناك سرا . ثم ان لهجة أوستافياف قد تغيرت . فبينما كان الحديث يجرى فى أول الأمر بتودد ظاهر ولطف واضح أصبحت لهجة أوستافياف الآن خشنة متكبرة . كان يبدو أنه غير حافل بمصالح السيد جوليادكين .

قال بطلنا لنفسه : « هذا من حقه . ما أنا عنده ؟ لعله أخذ مكافأة من الطرف الآخر .. فتغيب من أجل أن .. هذه قوة قاهرة .. يجب على أن أعطيه أنا أيضا .. » .

وأدرك السيد جوليادكين أن ساعة الكوبكات قد دقت .

ـ خذ .. هذا لك .. يا صديقى .

ـ أشكر لك كرمك من كل قلبى يا صاحب النبالة .

ـ سأعطيك المزيد .

ـ أنا تحت أمرك يا صاحب النبالة .

ـ سأعطيك اليوم مزيدا ، وسأعطيك أيضا حين تسوى هذه القضية كلها . هل تفهم ؟

وكان كاتب المحكمة ، المتصلب كأنه وتد ، يتفرس فى السيد جولياديكن صامتا .

ـ والآن تكلم .. هل سمعت شيئا يتناولنى ؟

ـ يخيل الى أننى حتى الآن .. أقصد .. حتى الآن لم أسمع شيئا .

كان أوستافياف يجيب على الأسئلة مقطرا كلامه كما كان يفعل السيد جوليادكين ، محتفظا بهيئة السر ، محركا حاجبيه ، مطرقا الى الأرض ، باحثا عن التعبير المناسب ؛ أى أنه كان يجهد بجميع الوسائل أن يستحق المكافأة الموعودة ، معتقدا أن المال الذى تلقاه قد أصبح منذ الآن ملكا له لا يمكن أن ينازع فيه •

سأله السيد جوليادكين :

ـ ولم يتخذ أى قرار حتى الآن ؟

ـ حتى الآن •• لم يتخذ أى قرار •

ـ طيب •• اسمع •• قد نعرف شيئا بعد قليل •

ـ سنعرف شيئا بعد قليل ما فى ذلك ريب •

قال السيد جوليادكين لنفسه : « الأمور تجرى مجرى سيئا •• » وأردف يخاطب صاحبه :

ـ خذ •• خذ هذا لك أيضا يا صديقى •

ـ شكرا من كل قلبى يا صاحب النبالة •

ـ هل كان فاخمارايف موجودا مساء أمس ؟

ـ نعم •• كان موجودا •

ـ ولم يكن أحد معه ؟ •• حاول أن تتذكر يا صديقى •

غرق كاتب المحكمة دقيقة طويلة بين ذكرياته ، ولكنه لم يظفر بطائل : لم يستطع أن يتذكر شيئا خاصا •

ـ لا •• لم يكن هناك أحد غيره •

ـ هممم ..

وأعقب ذلك صمت .

ـ اسمع يا صديقى .. خذ هذا لك أيضا . والآن قل لى الحقيقة.. الحقيقة كلها .

ـ أنا تحت أمرك .

لقد تأنس أوستافياف الآن . وهذا ما كان يتمناه بطلنا .

ـ والآن قل لى يا صديقى : كيف يعاملونه الآن ؟

ـ معاملة عادية ، معاملة جيدة جدا .

بهذا أجاب كاتب المحكمة وهو يلتهم مخاطبه بعينيه التهاما .

ـ ماذا تعنى بقولك جيدة جدا ؟

ـ أعنى .. أقصد ..

ومرة أخرى أخذ أوستافياف يحرك حاجبيه . الحق أنه أصبح يشعر بأنه محاصر فى طريق مسدود محاصرة ما تنفك تضيق ، فهو لا يعرف بماذا يجيب ليخرج من هذه الطريق .

قال جوليادكين لنفسه : « الامور تجرى مجرى سيئا » .

ـ ألا تعتقد أنه يدبر شيئا مع فاخمارايف ؟

ـ طبعا ... كالعادة .

ـ فكر جيدا .

ـ يقال انهما يدبران شيئا .

ـ ماذا يدبران ؟ قل .. أسرع ..

وعاد كاتب المحكمة يضع يده على فمه من جديد .

ـ أليس ثمة رسائل مرسلة الىّ من هناك ؟

ـ لقد ذهب الخفير ميخايف فى هذا الصباح الى فاخمارايف ... نعم ... فى البنسيون الألمانى . لذلك سأمضى أسأله بعد قليل اذا شئت.

ـ نعم اذهب يا صديقى . قدم لى هذه الخدمة ... أرجوك ... ناشدتك الله .. أقول هذا هكذا .. فلا يذهبن بك الظن الى أى شىء غير عادى . قلت هذا عرضا .. اتفقنا اذن يا صديقى .. اسأله .. حاول أن تعرف هل يدبر شىء ضدى هناك . ماذا يهيىء هو ؟ ذلك هو ما يهمنى أن أعرفه . اذهب وسأعرف كيف أكافئك بعد ذلك يا صديقى ..

ـ أنا تحت أمرك يا صاحب النبالة. ان ايفان سيميونوفتش هو الذى حل محلك فى المكتب هذا الصباح .

ـ ايفان سيمونوفتش ! ها .. نعم .. هل هذا ممكن ؟

ـ آندره فيليبوفتش هو الذى أمره بأن يحل محلك ..

ـ أهذا ممكن ؟ ولكن لماذا ؟ حاول أن تعلم يا صديقى .. ناشدتك الله .. حاول أن تعلم يا صديقى .. حاول أن تعلم ، وأنا سأعرف كيف أكافئك يا عزيزى . ذلك هو ما يهمنى .. ولكن اياك خاصة أن يذهب بك الظن يا صديقى الى ...

ـ تحت أمرك .. تحت أمرك .. سأذهب اليه حالا .. ولكن أليس فى نية صاحب النبالة أن يدخل المكتب اليوم ؟

ـ لا يا صديقى .. لا .. لقد جئت الى هنا عابرا ، لا لشىء غير أن

ألقى نظرة يا صديقى .. اذهب وسأعرف كيف أكافئك فى المستقبل ؛ هيا يا رئيسى .

ـ تحت أمرك ..

قال كاتب المحكمة ذلك ثم اندفع يصعد السلم وقد امتلأ همة ونشاطا . وبقى السيد جوليادكين وحده .

قال لنفسه : « الأمور تجرى مجرى سيئاً ، سيئاً جداً ، آه ! ان وضعنا معرض للخطر . ماذا يعنى هذا كله ؟ ترى ماذا كان المعنى الدقيق لتلك التلميحات التي قالها هذا السكير ؟ من هو الممسك بالأسلاك فى هذه القضية ؟ .. آ .. الآن عرفت من هو الممسك بالأسلاك . الآن فهمت القضية كلها . لا شك أنهم علموا .. و .. عندئذ أحلوه محلى .. لقد أحلوه هناك ، وبعد ذلك ؟ ان آندره فيليبوفتش هو الذى أحل ايفان سيميونوفتش محلى . فلأى غرض ؟ لا شك أنهم علموا .. هذا من فعل فاخمارايف ... لا بل هو من فعل غيره .. ان فاخمارايف غبى ، قليل الذكاء ، بليد ! انهم هم أطلقوا على هذا الكلب المسعور ، للأسباب نفسها .. هم الذين دفعوا تلك الالمانية العوراء الى رفع شكوى علىّ . ولقد تنبأت دائما على كل حال بأن هناك أسبابا خفية تحملهم على تدبير هذه المكيدة كلها ، وأن ثمة شيئا يحاك وراء هذه النرثرات التى تشبه ثرثرات العجوز الشمطاء ... لقد قلت لكريستيان ايفانوفتش ، قلت له انهم آلوا على أنفسهم أن يغتالونى ، بالمعنى المجازى لهذه الكلمة طبعا ، وانهم يستخدمون فى سبيل ذلك كارولين ايفانوفنا . ان المرء يشعر بأن هناك يد معلم فى هذه القضية يا سادة . لا ... ليس هو فاخمارايف . سبق أن قلت ذلك : ان فاخمارايف غبى ، أما ... أنا أعرف من يدبر هذا كله لهم .. انه ذلك الوغد الحقير ، ذلك الدجال المخادع . وهذا مايفسر

تأثيره فى الناس ونجاحه بينهم . الحق أن من المهم أن أعرف دوره وامتيازاته على وجه الدقة .. وأن أعرف على أى قدم يعامل هناك ؟ ولكن لأى سبب أخذوا ايفان سيميونوفتش ؟ ما حاجتهم الى ايفان سيميونوفتش؟ ألم يكن فى وسعهم أن يجدوا أحدا غيره ؟ النتجة واحدة على كل حال ، سواء أأخذوه أم أخذوا غيره . الشيء المحقق أننى أشتبه منذ زمن طويل فى ايفان سيميونوفتش هذا . اننى أراقبه منذ مدة طويلة . يا له من عجوز رهيب ، عجوز يبعث على الاشمئزاز والتقزز ! يظهر أنه يقرض بالربا وأنه جنى أرباحا كبيرة كأرباح يهودى ! ولكن الدب هو الذى يدبر ذلك كله من وراء ! هو روح المؤامرة . كذلك بدأت المسألة .. بدأت من جسر اسماعيلوفسكى .. نعم لقد انطلق كل شيء من هناك ! » .

جعد السيد جوليادكين خده كأنه عض قشرة ليمونة . لا شك أن ذكرى مزعجة قد استيقظت فى ذاكرته . قال لنفسه : « أوه .. على كل حال .. ليس لهذا كله كبير شأن . لنعد الى أعمالنا . لماذا تأخر أوستافياف ؟ لا شك أن أحدا قد استوقفه . أحسب أن من حقى أن أمكر أنا أيضا ، وأن أنصب بعض الشباك . يكفى أن أعطى أوستافياف بضعة نقود أخرى ... فينحاز الى جانبى . ومع ذلك يجب أن أعرف هل هو حقا فى جانبى .. لعلهم رشوه هو أيضا .. ربما كان ضالعا فى المؤامرة منذ الآن ! ان هيئته هيئة لص ، لص عريق . انه يخفى لعبته هذا الوغد! ما ينفك يقول لك : « لا .. لا يوجد شيء قط .. أشكرك من كل قلبى يا صاحب النبالة .. لك كل امتنانى .. » . آه ... يا له من لص عريق ! » .

وفجأة سمع السيد جوليادكين وقع خطوات . فأسرع يلطو وراء المدفأة . نزل أحدهم على السلم ، وخرج الى الشارع . تساءل بطلنا :

« من عساه يخرج فى هذه الساعة ؟ » • وبعد بضع لحظات سمع مرة أخرى وقع خطوات على السلم • فلم يستطع أن يصبر ، بل جازف فمدّ أنفه •• لكنه لم يلبث أن سحبه كأن ابرة وخزته• ان الرجل الذى كان هابطا على السلم ليس الا ذلك الوغد الحقير ، ذلك النصاب المغتصب، ذلك الفاجر المكار ! كان يتقدم بخطاه القصيرة المعهودة ، بمشيته الوقحة المكردحة ، رافعا قائمتيه القصيرتين عاليا ، كمن يريد أن يضرب بهما أحدا • دمدم بطلنا يقول : « سافل •• دنىء » • ولكن بطلنا لم يفته ان يلاحظ أن « السافل الدنىء » كان يتأبط المحفظة الخضراء الضخمة ، محفظة صاحب السعادة • قال السيد جوليادكين لنفسه : « وهذه مهمه خاصة أخرى » ، قال ذلك وقد احمر وجهه غضبا ، وأقعا مزيدا من الاقعاء • وما كاد الوغد يختفى ، دون أن يخطر بباله أن يكون بطلنا حاضرا ، حتى سمع بطلنا وقع خطوات على السلم مرة ثالثة •• انه كاتب المحكمة • لقد شعر السيد جوليادكين بذلك فورا • وما هى الا لحظة حتى ظهر خلفه وجه مدهش هو وجه كاتب آخر من كتاب المحكمة اسمه بيسارنكو • صعق السيد جولیادكين من ذلك • قال لنفسه : « لماذا يقحم فى هذه القضية ! آه من هؤلاء الهمج ! •• لا حرمة عندهم لشىء ! ••• » •

ثم قال يخاطب بيسارنكو :

– هيه يا صديقى ، هل من جديد ؟ من ذا أرسلك يا صديقى ؟

– جئت من أجل قضيتك الصغيرة • حتى الآن ما من نبأ جديد • وسنبلغك متى جاءنا نبأ جديد •

– وأوستافياف ؟

ـ يستحيل أن يتغيب يا صاحب النبالة . لقد قام صاحب السعادة بجولة على المكاتب مرتين . ثم ان وقتى لا يتسع أنا أيضا ...

ـ شكرا يا عزيزى شكرا ، ولكن قل لى ....

ـ ليس فى وقتى متسع ، أحلف لك ... انهم ينادوننا فى كل لحظة ... ابق هنا لحظة .. فاذا علمنا شيئا جديدا يتصل بقضيتك ... أبلغناك ...

ـ طيب يا صديقى طيب . اقتراحك جيد جدا يا صديقى العزيز . والآن شىء آخر : اليك هذه الرسالة يا صديقى ، وسأكافئك يا عزيزى .

ـ تحت أمرك .

ـ حاول أن توصلها الى السيد جوليادكين .

ـ جولیادکین ؟

ـ نعم الى السيد جولیادکین یا صدیقی .

ـ حاضر . متى انتهيت من الأعمال المستعجلة ، سأحمل الرسالة اليه . أما أنت فابق هنا الى حين . ما من أحد يمكن أن يراك هنا ...

ـ ولكن ياصديقى لاتصدق هذا .. أنا لا أبقى هنا حتى لا يرانى أحد . لاياصديقى ، لن أنتظر هنا ، بل فى الشارع الصغير ، على جانب . يوجد هناك مقهى . فسأنتظر فيه فاذا بلغك شىء فلا تتأخر عن نقله الى . هل فهمت ؟

ـ طيب ، فهمت . والآن دعنى أنصرف .

ـ وسأكافئك يا عزيزى

كذلك هتف جوليادكين يقول لكاتب المحكمة الذى تملص وابتعد. قال بطلنا لنفسه وهو يخرج من وراء المدفأة : « ان هذا الوغد يصبح أكثر وقاحة .. آ .. ان وراء الأكمة ما وراءها .. هذا واضح . فى أول الأمر لم يكن هناك الا شيء من كتمان ... على كل حال ربما كان مستعجلا حقا . لا شك أنه مشغول كثيرا . اذن لقد تفقد صاحب السعادة المكاتب مرتين .. لماذا ؟ .. لا بأس .. قد لا يكون لهذا كبير شأن . ننتظر فنرى ... » .

وهم السيد جوليادكين أن يفتح الباب ليخرج ، ولكنه سمع فى هذه اللحظة فرقعة عربة تقف أمام المدخل . انها عربه صاحب السعادة . ولم يكد السيد جوليادكين يتوب الى رشده حتى كان باب العربة قد فتح ، فاذا برجل ينزل من العربة ويصير على درجات المدخل بوثبة واحدة . ولم يكن هذا الرجل الا جوليادكين الأصغر نفسه ، الذى كان قد غادر الوزارة منذ عشر دقائق . تذكر بطلنا عندئذ أن منزل صاحب السعادة قريب من الوزارة ، على مسافة خطوتين منها .

قال بطلنا لنفسه : « هى مهمة خاصة . ذلك واضح لاريب فيه» . ولكن الدجّال كان قد فتح باب المدخل بعد أن أصدر الى الحوذى بعض الأوامر . انه ما يزال يتأبط المحفظة الضخمة الخضراء ، محفظة صاحب السعادة ، مع أوراق أخرى . وحين فتح الباب أوشك أن يصدم بطلنا ، ولكنه تظاهر بأنه لم يلاحظ وجوده ، فكان هذا اهانة جديدة لبطلنا . واندفع يصعد السلم راكضا .

قال بطلنا لنفسه : « الأمور تجرى مجرى سيئا ... ان وضعى معرض للخطر ... أما هذا ... آه يا رب ! ... » وظل بطلنا ساكنا فى مكانه نصف دقيقة . ثم لم يلبث أن اتخذ قرارا ، فاذا هو يجرى

صاعدا السلم ملاحقا سميَّه . كان قلبه يخفق خفقانا شديدا . وكان يحس برعدات تسرى فى جميع أعضائه . « لا بأس ... من لم يجازف بشىء لم يظفر بشىء . ثم اننى فى هذه القضية كلها لست الا مشاهدا . » ... كذلك كان يردد السيد جوليادكين وهو يخلع قبعته ومعطفه وجرموقيه فى حجرة المدخل .

كان الغسق يرين على جو المكتب ، حين دخل السيد جوليادكين . لم يبصر لا آندره فيليبوفتش ولا أنطون أنطونوفتش . كانا كلاهما فى اجتماع بمكتب المدير . وكان المدير من جهته يستعجل الذهاب الى صاحب السعادة فيما يظهر . وكان معظم الموظفين ، ولا سيما الشباب منهم ، قد استغلوا فرصة هذا الغياب وهذه العتمة ، فقعدوا عن العمل واستسلموا للفراغ بانتظار ساعة اغلاق المكاتب . وقد تألفت منهم جماعات ترثر وتتمازح وتضحك . حتى أن بعض الموظفين الشباب ، وهم أدناهم رتبا ، قد أخذوا يلعبون قرب النافذة لعبة « الطرة والنقش » فى غمرة هذه الفوضى العامة . وهذا بطلنا الذى يعرف شئون الادارة حق المعرفة ، ويرغب فى التقاط بعض المعلومات النافعة ، يقترب من عدد من الموظفين هم الذين بينه وبينهم مودة ، محاولا أن يسلم عليهم . فما كان أشد دهشته وأقساها حين لاحظ ما فى لهجة أجوبتهم من غرابة وتهرب ! .. لقد بدا له وضعهم باردا جافا بل قاسيا . لم يمد أحد له يده . واكتفى بعضهم برد التحية مختصرة ثم ابتعد عنه ، ولم يزد بعضهم الآخر على أن رد التحيه بحركة صغيرة من الرأس . حتى أن أحد زملائه أشاح بوجهه عنه دون أن يرد التحية أصلا . ثم كانت الاهانة الكبرى ، وهى أن عددا من الصبيان السعاة المغترين الذى ليس لهم رتب البتة والذين لا يجيدون شيئا غير لعبة « الطرة والنقش » وغير التسكع فى الأماكن المشبوهة على حد تعبير السيد جولیادکین قد تجمعوا حوله ثم أحاطوا به احاطة تامة فلا

يستطيع أن يخرج من النطاق الذى أحكموا ضربه عليه ، وأخذوا يتفرسون فيه باستطلاع وتعجب واحتقار .

ذلك نذير سيئ . لقد أدرك السيد جوليادكين ذلك ، فقرر أن لا يوليه أى انتباه . غير أن حادثا لم يكن فى الحسبان قط ، جاء يفسد عليه خططه فجأة ، ويبدد آماله كلها جملة .

فمن جمع الشبان الموظفين الذين تحلقوا حول بطلنا فى هذه اللحظة المشئومة ، لم يلبث أن ظهر له سميُّه على حين بغتة . كان السيد جوليادكين الأصغر مرحا فرحا نشيطا على عادته . نعم ، كان كثير الحركة ، متواثب الخطى ، ساخر اللهجة ، شديد التملق ، حاضر البديهة ، سريع الجواب ، خفيف الساقين ، على عهده به ، على ما كان دائما ، ولا سيما أثناء تلك الجلسة التى ما يزال بطلنا يحتفظ منها بذكرى كاوية جدا . انه يدور ويطير مبتسما ابتسامة تكشف عن أسنانه ، ابتسامة تحيى الجميع . فما هى الا ثوان حتى كان فى وسط الجماعة يصافح الأيدى ويربت على الأكتاف ، يمسك بذراع هذا بينما هو يشرح لذاك المهمة التى عهد بها اليه صاحب السعادة . تكلم عما قام به من مساع وما بذله من نشاط وما حصل عليه من نتائج . حتى لقد مضى به الأمر الى حيث قبَّل أحد الموظفين على شفتيه ، وهو خير أصدقائه ولا شك ... الخلاصة أن كل شئ جرى على نحو ما رآه السيد جوليادكين فى منامه . وبعد هذه الأنواع من الرياء المتصنع والسلام الكاذب والتقبيل المتملق مع جميع الناس ، بدا للسيد جوليادكين الأصغر ، على حين فجأة ، أنه نسى أن يحيى أقدم أصدقائه ، عن سهو بدون شك ، فسرعان ما مد يده الى بطلنا مسلما ، وسرعان ما تناول بطلنا هذه اليد ، عن سهو بدون شك أيضا ، لأنه كان قد استطاع خلال ذلك الوقت كله أن يلاحظ مكائد هذا الرجل الدجال ، أقول سرعان ما تناول بطلنا هذه اليد التى مُدت اليه فجأة على غير توقع ، تناولها

بشراهة ، وصافحها بقوة ، وأقبل يرد التحية بعاطفة قوية وصداقة خالصة. لقد صافح بطلنا يد صاحبه باندفاع روحي وحنان قلبي . أتراه فعل مافعل لأن هذه البادرة من صديقه الوقح قد خدعته ، أم لأنها فاجأته سرعتها ، أم لأنه شعر في هذه اللحظه بعجزه لا أكثر من ذلك ولا أقل ؟ من الصعب على أن أقطع في هذا برأي . وانما المهم أن السيد جوليادكين ، بكامل صحوه وملء ارادته ، قد صافح مصافحة قوية ، على مرأى من الناس ، يد ذلك الانسان الذي كان يعد عدوه اللدود .

فما كان أشد الذهول والحنق ، والهول والعار الذي شعر به بطلنا حين رأى خصمه ، حين رأى عدوه اللدود يغير موقفه فجأة . لقد أدرك الدجال الكريه الخطأ الذي ارتكبته ضحيته المسكينة البريئة ، فاذا هو ينتزع يده من يد بطلنا بحركة مفاجئة فظة متعجرفة، وببرود كامل لاتخالطه أية عاطفة من عواطف الرحمة الانسانية ، ثم اذا هو ينفض يده كمن يريد أن يطهرها من رجس علق بها نتيجة لملامسة تثير الاشمئزاز والتقزز ، واذا هو يشفع هذه الحركة ببصقة على الارض وبحركة كريهة وقحة ، واذا هو يزيد على ذلك فيخرج منديله ويأخذ يمسح به أصابع يده التي صافحها بطلنا . وكان المغتصب الدنيء يشفع هذه الحركات كلها بنظرات يجيلها حوله على عادته ، كأنه يريد أن يتخذ من الحضور شهودا على سلوكه الحقير ، وهو يتفرس في الأعين كأنه يريد أن ينفخ فيها الكره والاحتقار للسيد جولیادكين . غير أن هذا الموقف المستفز المتحدي الذي وقفه هذا الشخص المقيت بدا أنه أثار استنكار الحضور واستياءهم ، فقامت هنا وهناك دمدمات واحتجاجات . وسمع السيد جوليادكين هذه الضجة . ولكن الدجال لم يلبث أن طلع على الحضور بمزحة فكهة موفقة ، فاذا بالمزحة تحطم وتبدد آخر آمال بطلنا . لقد مالت كفة الميزان مرة أخرى الى جهة عدوه القاسي الحقير .

« انظروا الى فوبلاس الروسى ، الى فوبلاسنا القومى . اسمحوا لى أن أقدم اليكم ، أيها السادة ، الفتى فوبلاس . . » . كذلك دوى صوت الغاضب رنانا وقحا على عادته المألوفة ، وهو يتطاير وسط الموظفين مشيرا الى جوليادكين الأصلى ، الواقف ساكنا متجمدا . ثم أضاف الى ذلك يقول بلهجة ألفة لا نطاق ، وهو يتقدم نحو الشخص الذى يستهزىء به : «هيا تتعانق يا حبيبى . . » . ووجدت مزحة هذا الشخص الدنيء صدى حسنا لدى بعض المشاهدين ، لا سيما وأنها تومىء ايماء مباشرا وقحا الى حادث يبدو أن جميع الناس يعرفونه .

أحس بطلنا بيد أعدائه ثقيلة على كتفيه . فلم يلبث أن اتخذ قرارا ، فاذا هو ، وقد اتقدت عيناه ، واصفر وجهه ، وانفرجت شفتاه فى جانب ، يتملص من الجمهور على نحو من الانحاء ويتجه نحو مكتب صاحب السعادة بخطى مترنحة صغيرة . فلما وصل الى حجرة المدخل وجد نفسه وجها لوجه أمام آندره فيليبوفتش الذى كان خارجا من مكتب المدير . كان فى الحجرة عدد من الأشخاص ليس لهم أى شأن بهذه القضية ، ولكن ذلك لم يؤثر فى صاحبنا ، فسرعان ما عزم أمره ، وجمع شجاعته (وهو يكاد يدهش من جرأته ويغبط نفسه عليها) ، واتجه الى آندره فيليبوفتش الذى بهتته هذه الهجمة التى لم تكن فى الحسبان .

سأله آندره فيليبوفتش دون أن يصغى الى كلامه المضطرب :

ـ ها ... هذا أنت ... ماذا تريد ؟

فقال بطلنا بصوت واضح رصين وهو يحدق الى مخاطبه صامدا :

ـ آندره فيليبوفتش ... أريد ... هل أستطيع أن ألتمس حديثا خاصا مع صاحب السعادة يا آندره فيليبوفتش ؟ .

ـ ماذا تقول ؟ ... طبعا ... لا .

ونظر آندره فيليبوفتش الى بطلنا من رأسه حتى قدميه :

ـ أقول لك ذلك يا آندره فيليبوفتش لأنه يدهشنى أنه لما يحسر أحدا حتى الآن القناع عن وجه الدجال الحقير !

ـ كيف ؟

ـ أقول : الحقير ، يا آندره فيليبوفتش !

ـ من تعنى ؟

ـ أعنى شخصا بعينه ياآندره فيليبوفتش ، أعنى شخصا بعينه ياآندره فيليبوفتش ... وأنا على حق ... أعتقد يا آندره فيليبوفتش أن رؤساءنا لا بد أن يشجعوا مثل هذه المبادرات (أضاف جوليادكين ذلك خارجا عن طوره) ... وأنا على يقين من أنك تفهم معنى مبادرتى هذه الكريمة الشريفة .. ان علينا كما يقال أن نعد رئيسنا أباً لنا يا آندره فيليبوفتش . وأنا أحب أن يكون هذا الرئيس العادل بمثابة أب لى أضع مصيرى بين يديه يتصرف فيه كما يشاء . سوف أقول له ... (هنا أخذ صوت السيد جوليادكين يرتجف ، واحمر وجهه ، وسقطت دمعتان من عينيه) ...

بُهت آندره فيليبوفتش من أقوال السيد جوليادكين ، وبلغ من الدهشة والذهول أنه تراجع خطوتين على غير شعور منه ، وأخذ ينظر حواليه خائفا قلقا .

كان يصعب على المرء أن يتصور لهذا المشهد مخرجا ... ولكن باب مكتب صاحب السعادة فتح فجأة ، وظهر صاحب السعادة فى العتبة يصحبه عدد من الموظفين . هب جميع الحضور واقفين . ونادى صاحب

السعادة آندره فيليبوفتش • وترك الرجلان الحجرة سائرين جنبا الى جنب متحدثين فى شئون تتصل بالعمل • وتبعهما الآخرون • فلما بقى السيد جوليادكين وحيدا استرد شعوره وثاب الى رشده ، ثم مضى يلطو خاضعا طائعا تحت جناح أنطون أنطونوفتش الذى كان يسير فى آخر الموكب مهدم الهيئة متجهم الوجه •

قال السيد جوليادكين لنفسه شاكيا : « آ ••• لقد أخطأت مرة أخرى ••• غلطت مرة أخرى ••• على كل حال ، لا ضير •• » • ثم قال يخاطب أنطون أنطونوفتش مدمدما بصوت ناعم مرتجف من الانفعال بعض الارتجاف :

– آمل أن لا ترفض أنت على الأقل أن تستمع الى كلامى وأن تنظر الى حالتى بعين الاعتبار • اننى حتى الآن لا أستطيع أن أفهم أقوال آندره فيليبوفتش • فهلا شرحتها لى يا أنطون أنطونوفتش اذا كان ذلك فى وسعك !

فأجابه أنطون أنطونوفتش بلهجة قاسية وهو يفصل كلماته :

– سيُعرف كل شىء فى حينه •

أدرك السيد جوليادكين أن رئيس دائرته لا يحب أن يواصل الحديث معه • وأضاف أنطون أنطونوفتش قوله :

– على كل حال ، ستكون على علم بالأمر قريبا • ستبلغ رسميا فى هذا اليوم نفسه •

– ماذا تعنى بقولك « رسميا » يا أنطون أنطونوفتش ؟ لماذا تقول : « رسميا » ؟

كذلك سأل السيد جوليادكين خائفا وجلا •

ـ ليس لنا أن تناقش فى قرارات رؤسائنا يا ياكوف بتروفتش •••

ـ ما علاقة الرؤساء بهذا الأمر يا أنطون أنطونوفتش ؟ ما شأنهم فى هذه القضية؟ اننى لاأرى أى داعٍ الى ازعاج رؤسائنا ياأنطون أنطونوفتش؟ أتراك تقصد حوادث الأمس يا أنطون أنطونوفتش ؟

ـ لا •• ليس الأمرَ أمْر ما جرى بالأمس • ان فى قضيتك شيئاً آخر يعرج !

ـ ما الذى يعرج يا أنطون أنطونوفتش ؟ يخيل الىَّ يا أنطون أنطونوفتش أنه ما من شىء يعرج !

قاطعه أنطون أنطونوفتش يقول بلهجة خشنة :

ـ مع من كان فى نيتك أن تتآمر ؟

فقد السيد جوليادكين رباطة جأشه ، وارتعش ، واصفر وجهه اصفرارا شديدا • قال :

ـ طبعا يا أنطون أنطونوفتش ••• اذا لم يُستمع الا الى وشايات الأعداء ، دون الاصغاء الى أقوال المتهم ، فمن الطبيعى عندئذ •••

كذلك تمتم السيد جوليادكين بصوت مختنق ، وأردف يتم كلامه :

ـ نعم من الطبيعى فى هذه الحالة يا أنطون أنطونوفتش أن يُدان برىء وأن يتألم ظلما وعدوانا •

ـ ها •• وما قولك فى فعلك الدنىء مع فتاة شريفة أوشكتَ أن تدنس سمتعها ؟ فتاة غمرتك أسرتها الكريمة السخية التى يجمع الناس على احترامها بأنواع الخيرات •••

ـ عن أى فعل تتكلم يا أنطون أنطونوفتش ؟

– ها ••• ولا شك أنك تريد أن تنكر أيضا الأذى الذى ألحقته بفتاة أخرى ، متواضعة المركز الاجتماعى طبعا ، ولكنها من أسرة أجنبية محترمة !

– اسمح لى يا أنطون أنطونوفيتش ••• اصغ الى كلامى من فضلك يا أنطون أنطونوفتش !

– وما قولك فى موقفك الدنىء من شخص آخر ، فى وشاياتك عليه ، فى اتهاماتك اياه بأفعال أنت وحدك مقترفها ؟ هـه ؟ ما قولك فى هذا ؟

تمتم بطلنا مبهورا لاهثا :

– أنا يا أنطون أنطونوفتش ؟ ولكننى لم أطرده أبدا من بيتى ••• لم آمر بتروشكا أبدا ••• أقصد لم آمر خادمى أن يطرده •• لقد أكل من خبزى يا أنطون أنطونوفتش ••• استفاد من ضيافتى (أضاف السيد جوليادكين ذلك بصوت أجش يفيض انفعالا ، وكانت ذقنه ترتعش ، وامتلأت عيناه مرة أخرى بالدموع)

أجاب أنطون أنطونوفتش ساخرا :

– تلك حكايات يا ياكوف بتروفتش !

فهزت لهجته الساخرة السيد جوليادكين هزا عميقا •

– اسمح لى يا أنطون أنطونوفتش أن ألقى سؤالا أخيرا : هل صاحب السعادة على علم بهذه القضية كلها ؟

– طبعا ••• والآن دعنى ••• لا أملك من الوقت ما أضيعه معك • سوف تُبلَّغ اليوم كل ما يتصل بك •

ـ ناشدتك الله يا أنطون أنطونوفتش ••• أتوسل اليك ••• دقيقة واحدة أخرى •••

ـ سيتسع وقتك لقص كل شيء •

ـ لا لا يا أنطون أنطونوفتش ••• أنا ••• استمع الىّ •• أرجوك يا أنطون أنطونوفتش ••• أنا لا آناصر الأفكار الهدامة ••• أنا أتحاشى الأفكار الهدامة • أنا مستعد كل الاستعداد لأن أسلم بأن ••• حتى لقد أعلنت رأيى قائلا •••

ـ طيب طيب ••• لقد سمعت هذا ••

ـ لا لا • هذا لم تسمعه يا أنطون أنطونوفتش • لا ••• أقصد هنا شيئا آخر يا أنطون أنطونوفتش ، شيئاً حسنا ، حسنا جدا ، يسرُّ سماعه •• لقد أعلنت رأيى يا أنطون أنطونوفتش ، وشرحته قبل الآن • اليك رأيى الذى أعلنته وشرحته : قلت ان الله قد شاء أن يخلق شخصين متماثلين تماثلا كاملا مطلقا ، فأحدهما عين الآخر تماما ، وان رؤساءنا الكرام الذين يملكون البصيرة الصادقة قد أدركوا مشيئة الله ، فشملوا برعايتهم وحمايتهم التوأمين كليهما ••• هذه فكرة حسنة يا أنطون أنطونوفتش ••• أنت ترى أنها فكرة حسنة يا أنطون أنطونوفتش • اننى بعيد عن الأفكار الهدامة ، كما ترى • وأعتقد أن قلوب رؤسائى تفيض محبة ورأفة كقلوب الآباء • هذا هو رأيى : فهناك من جهة أولى رؤساء تفيض قلوبهم كرما ورأفة ، وهناك من جهة أخرى شاب يحتاج الى عمل ••• كن لى عونا وسندا يا أنطون أنطونوفتش • دافع عنى واحمنى يا أنطون أنطونوفتش • أنا لم أفعل سوءا يا أنطون أنطونوفتش • أرجوك ••• دعنى أقول كلمة أخرى يا أنطون أنطونوفتش ••

رأى أنه قد أصبح فى الدهليز الكبير وسط سائر الموظفين . انها ساعة انصراف الموظفين واغلاق المكاتب . لم يكن السيد جوليادكين قد شعر بذلك أبدا ، لا ولا فهم ما هى الظروف التى جعلته الآن موجودا فى الدهليز ، لابسا معطفه منتعلا جرموقيه حملا قبعته بيده . كان الموظفون جامدين ساكنين ينتظرون فى وضع يدل على الاحترام . ذلك أن صاحب السعادة كان واقفا فى أسفل السلم ينتظر عربته ، ويتحدث فى كثير من الحماسة مع اثنين من مستشارى الدولة ومع آندره فيليبوفتش . وعلى بضع خطوات من تلك الجماعة كان يقف أنطون أنطونوفتش مع اثنين أو ثلاثة من الموظفين يبتسمون وهم يرون صاحب السعادة ضاحكا ممازحا ، وكان سائر المستخدمين المحتشدين فى أعلى السلم يبتسمون هم أيضا ويرصدون كل ضحكة جديدة يطلقها صاحب السعادة . كان هنالك رجل لا يبتسم: انه البواب الضخم فيدوستش . انه واقف وقفة التأهب العسكرى ، قابض على مقبض الباب ، ينتظر بفارغ صبر أن ينال نصيبه اليومى من المتعة . وكانت متعته هى هذه : أن يفتح أحد مصراعى الباب عريضا بدفعة واحدة ثم يدع لصاحب السعادة أن يمر وقد حنى هو ظهره كالقوس احتراما واجلالا ... أما الشخص الذى كان يشعر بأكبر فرح أثناء هذا الانتظار العارض ، فلا شك أنه ذلك العدو الكريه الفاجر اللدود ، عدو السيد جوليادكين .

كان فى هذه اللحظة لا يعرف أحدا من سائر الموظفين . كان فى هذه اللحظة لا يتواثب بينهم ولا يدور ، على عادته المقيتة الحقيرة . كان لا يحاول أن ينتهز الفرصة المواتية للتحبب اليهم وكسب مودتهم . هو الآن أبصار وأسماع كله .. انه متجمع على نفسه فى وضع غريب ، ليرهف السمع من غير شك . انه يلتهم صاحب السعادة بعينيه ؟ ولا تظهر

ولكن أنطون أنطونوفتش كان قد ابتعد • أما بطلنا فقد أصبح لا يعرف أين هو ، ولا يعرف ماذا يسمع ، ولا ماذا يصنع ، ولا ماذا يُصنع به ، ولا ماذا سيصنع به ••• لقد اضطربت نفسه اضطرابا عميقا مما سمعه ومما وقع حتى الآن ••

أخذ يبحث فى جمهرة الموظفين عن أنطون أنطونوفتش ، بنظرة ضارعة متوسلة • كان يريد أن يبرىء نفسه فى نظره • كان يريد أن يقول له بضع كلمات أخرى ، كلمات جميلة بريئة طاهرة ، كلمات يمكن أن تدل على نبل نياته •

وفى أثناء ذلك كان شعاع جديد يتسلل شيئا فشيئا الى قلب هذا الاضطراب فى عواطف بطلنا ، شعاع جديد رهيب يكشف له فجأة عن آفاق فسيحة لأحداث ليست فى الحسبان ، أحداث لم يكن بطلنا قد تصور أنها ممكنة حتى الآن •

وفى هذه اللحظة صدمه أحدهم فى خاصرته •

فالتفت فرأى أمامه بيسارنكو •

ـ هذه رسالة لك يا صاحب السعادة •

ـ ها ••• لقد أوصلت اذن رسالتى ؟

ـ لا بل جىء بهذه الرسالة الى هنا فى الساعة العاشرة من الصباح • ان الخفير سرجى ميكايف هو الذى حملها من السكرتير فاخمارايف •

ـ طيب يا صديقى ، طيب جدا ، سوف أكافئك يا عزيزى •

قال السيد جوليادكين هذه الكلمات ودس الرساله فى جيب ردنجوته عاقدا أزراره بكثير من العناية • ونظر حواليه ، فما كان أشد دهشته حين

على وجهه الا بضع جعدات تشنجية من حين الى حين نكشف عما فى قرارة نفسه من حركات عميقة خفية .

قال بطلنا لنفسه : « يا للوغد ! انه يصطنع هيئة من له حظوة ! يا له من لص ! ... وددت لو اعرف اسباب نجاحه بين الناس . انه لا يملك شيئا ، لا فكرا ولا ثقافة ولا خلقا ولا ارادة ولا عاطفة ... انه محظوظ هذا الفاسق ! رباه رباه ! ما أعجب ما يمكن أن يحصل عليه انسان من نجاح سريع ومن ثقة كبيرة ! ولسوف يمضى فى هذا الطريق قدما . يمينا انه سوف يمضى في هذا الطريق قدما ، هذا الوغد ... لسوف يحقق هدفه . ان الحظ معه ، هذا اللص ! ليتنى أعرف بماذا كانوا يتهامسون منذ هنيهة ! ما هى الأسرار التى بينه وبين الآخرين ؟ بماذا كانوا يتهامسون خفية ؟ رباه ! ماعساى أصنع ؟ ما عساى أفعل ؟ ... أأمضى أقول له : « لقد تبت ... اننى أعترف بخطئى .. فى زماننا هذا لابد لرجل شاب من أن يعمل يا صاحب السعادة .. ولست أشعر بخجل من هذه المصادفة التى تبعث الاضطراب فى النفس . أعدك بأن لا أرفع صوتى بعد الآن باحتجاج . أعدك بأن أحتمل بعد الآن كل شىء طائعا صاغرا صابرا . ترى أهذا ما يجب أن أفعله ؟ ... لا .. ان هذا لا يجدى مع شخص فاجر كهذا الشخص . ليس للكلمات من تأثير فى نفسه . يستحيل رد عقل غبى كعقله الى سبيل الصواب والرشاد . ولكن فلنحاول . قد تواتينى فرصة مناسبه . لماذا لا أجرب حظى ؟ ... » .

أحس السيد جوليادكين ، وهو فيما هو فيه من حيرة واضطراب وقلق أنه لا يستطيع أن يلبث فى مكانه هذا على هذه الحال . أحس أن اللحظة الحاسمة تقترب ، فلا بد له أن يكاشف أحدا بالأمر . وشيئاً فشيئا أخذ يشق لنفسه طريقا الى المكان الذى يقف فيه ذلك الرجل الدنىء العجيب الذى كان رفيقه فى ذات مساء .

ولكن قرقعه عربة تقف لم تلبث أن سمعت فى هذه اللحظة نفسها. انها العربة التى كان صاحب السعادة ينتظرها منذ مدة طويلة . شد فيدوستش الباب ، وفتح الطريق لصاحب السعادة منحنيا كالقوس . وأسرع الموظفون الآخرون نحو الباب فى الوقت نفسه . فانفصل السيد جوليادكين عن سميّه فى غمرة هذا الاندفاع .

انسل السيد جوليادكين فى صفوف الجمهور مرددا لنفسه دون أن يحول بصره عن الرجل الذى يريد أن يدركه « لا ... لن تفلت منى ». وتبعثر الجمهور أخيرا ... فأصبح بطلنا حرا طليقا ، فأسرع يطارد عدوه .

الفصل الحادى عشر

تقطعت أنفاس السيد جوليادكين فى صدره . كان يطير ، كأن له جناحين ، ملاحقا عدوه الذى يبتعد سريعا .. ان بطلنا يشعر بحماسة عظيمة وحميا شديدة. ومع ذلك فان كل شىء يحمل على الاعتقاد ، رغم هذا الاندفاع القوى ، أن فى وسع ذبابة أن تقلبه على الأرض بسهولة اذا هى لطمته بجناحها لطمة صغيرة ، هذا اذا وجد ذباب فى بطرسبرج فى مثل هذا الفصل من السنة . كان السيد جوليادكين يحس بأنه عاجز عن مواصلة السير ، وكان يحس فى الوقت نفسه أن قوة غريبة مستقلة عن جسمه استقلالا تاما كانت تجره جرا ، فلولا هذه القوة الغريبة عن جسمه لما استطاع أن يخطو أيسر خطوة ، لأن ساقيه كانتا تصطكان وترفضان أن تسعفاه . وظل يتابع جريه متقطع الأنفاس وهو يردد لنفسه كالآلة : « ما يزال يمكن أن يسوى كل شىء على أحسن وجه ، نعم على أحسن وجه ، أو على أسوأ وجه ...

« ومهما يكن من أمر فقد ضاعت قضيتى ، ما فى ذلك ريب ••• لقد دمرت •• دمرت تماما •• هذا أكيد •• محقق •• لا عفو ولا غفران •• ليس فى الامكان اجراء أى تغيير •• » • ومع ذلك ففى اللحظة التى استطاع فيها بطلنا أن يمسك بحافة معطف عدوه ، أحس كأنه يبعث بعثا جديدا دفعة واحدة • لكأنه حقق نصرا عظيما • لقد نادى العدو الحقير عربة ، وهم أن يركبها ، فصاح بطلنا يقول : « سيدى ، سيدى ، آمل منك أن ••• » • فأجابه عدوه القاسى الذى وضع احدى قدميه فى العربة :

ـ لا ••• لا تأمل منى شيئا ، أرجوك •••

فلما حاول أن ينقل الى العربة قدمه الثانية ، حركها فى الهواء مضطربا ، ولم يستطع أن يحافظ على توازنه الا فى كثير من العناء ، وكان فى الوقت نفسه ، يحاول أن يتملص من تشبث جوليادكين به ، ولكن بطلنا تمسك بمعطف خصمه بكل ما وهبته الطبيعة من قوى •

ـ ياكوف بتروفتش ، عشر دقائق فقط ••

ـ آسف •• ليس فى وقتى متسع •

ـ أرجوك يا ياكوف بتروفتش ، أرجوك ، أتوسل اليك ••• من فضلك يا ياكوف بتروفتش •• من فضلك •• هى مفاتحة صريحة ••• بلا مواربة •• بلا لف ولا دوران •• لحظة واحدة يا ياكوف بتروفتش•

ـ ليس فى وقتى متسع يا صديقى العزيز جدا •

كذلك أجاب الدجال المرائى المنافق •

وكان تلطفه المتصنع يكشف عن مودة وفظاظة كلتاهما جارحة •

وأردف يقول :

ـ دع هذا ليوم آخر .. صدقنى .. سيسرنى أن أستمع بقلب مفتوح .. احلف لك .. أما اليوم فمستحيل فعلا .

قال السيد جوليادكين لنفسه : « ما أجبنه ! » . ثم أعون يقول وقد فاض قلقا وخوفا :

ـ ياكوف بتروفتش ، ياكوف بتروفتش ، أنا لم أكن عدوك فى يوم من الايام . ان ألسنة سوء قد انهمننى ظلما .. أما انا فمستعد لأن .. ياكوف بتروفتش ، هلا دخلنا لحظة الى هذا المقهى فتكاشفنا بصراحة ، بقلب مفتوح على حد تعبيرك الصحيح جدا . سنتكلم لغة صريحة رفيعة .. وسوف ترى : سوف يصبح كل شىء واضحا . نعم يا ياكوف بتروفتش ، سوف ترى ، سوف يتضح كل شىء حتما .

ـ فى هذا المقهى ؟ موافق .. ولم لا أوافق ؟ لندخل هذا المقهى . ولكنى أضع شرطا ، شرطا واحدا ، يا عزيزى ، هو أن يتضح كل شىء آخر الأمر ، مرة واحدة . نعم ، مرة واحدة الى الأبد ، يا صديقى اللطيف .

كذلك قال جوليادكين الأصغر وهو ينزل من العربة ويلطم كتف بطلنا بدون حياء . وأضاف يقول :

ـ آه منك أيها الرفيق القديم ، اننى مستعد فى سبيلك لأن أسير فى هذا الطريق الضيق ، كما اقترحت علىّ هذا فى المساء الأول ، هل تتذكر ؟ ... آه ما أخبث هذا الياكوف بتروفتش ! انه يصنع بى مايشاء (هذا ما أضافه الرفيق المنافق المرائى ، وهو يبتسم ابتسامه خفيفه، ويدور حول بطلنا ويلتف) .

كان المقهى يقع فى زقاق صغير بعيد عن الشوارع الكبرى بالعاصمة. فلما دخلاه كان خاليا خلوا كاملا ، الا من المانية سمينة ظهرت لهما وراء البسطة حين سمعت رنين فتح الباب . مضى السيد جوليادكين ورفيقه الشرير الى الغرفة المجاورة حيث كان هناك صبى بدين حليق شعر الرأس يتحرك حول المدفأة محاولا أن يؤجج النار بقبضة من نشارة . وجىء للزبون بقدحين من الشكولاته تنفيذا لطلب السيد جوليادكين .

قال جوليادكين الأصغر لصديقه وهو يغمز غمزة خبيثة :

ـ امرأة بضة شهية .. هه ؟

فاحمر وجه بطلنا وحاذر أن يجيب .

ـ ها ... معذرة .. لقد نسيت تماما .. أنا أعرف ذوقك . نحن من عشاق الألمانيات النحيلات الرشيقات يا سيدى . نعم يا عزيزى الشهم ياكوف بتروفتش ، نحن ، أنا وأنت ، ميالون الى الالمانيات النحيلات ، شريطة أن لا يعوزهن شىء من فتنة واغراء طبعا : نستاجر فى بيوتهن غرفا ، ثم نغويهن ، وفى مقابل أطباق الطعام الصغيرة التى يقدمنها لنا ، وفى مقابل صحون الحساء بالبيرة وصحون الحساء باللبن التى نطعمها عندهن ، نعطيهن قلبنا وبضع سندات .. هذه طريقتنا فى العمل . آه منك أيها الناوى الذى يسحر قلوب النساء ويفتن عقولهن ! آه منك يا فوبلاس !

قال السيد جوليادكين الأصغر هذه الغمزات واللمزات الموجعة الوقحة مصحوبة بابتسامات لطيفة ومداعبات . وكان هذا المنافق يبسط عواطف الصداقة ويعرب عن فرحته بوجوده مع السيد جوليادكين . ولكن بطلنا لم يكن من الغباء والسذاجة وقلة الخبرة بحيث تنطلى عليه هذه الأحابيل ، فلما لاحظ صاحبه المقيت الكريه ذلك أسرع يبدل أسلوبه

ويلعب بأوراقه مكشوفة . فما ان نطق الدجال الحقير بتلك الكلمات الدنيئة حتى بادر يضع يده على كتف جاره طويلا غير متحرج أى تحرج، رافعا الكلفة الى حد يثير الحفيظة ويبعث على السخط والحنق ؟ ثم لم يكفه ذلك فاندفع فى أمازيح أخرى غليظة بذيئة ، ثم أراد أن يكرر فعلته الكريهة التى فعلها أمس حين قرص وجه بطلنا ، رغم ما أظهره بطلنا من مقاومة وأعلنه من احتجاج واستياء . فغلى الدم فى عروق بطلنا ازاء هذه الوقاحة . ومع ذلك كبح جماح نفسه ولزم الصمت .. كان ينتظر ساعته .

أجاب بصوت مضطرب بعض الاضطراب ، ولكنه ما يزال مسيطرا على نفسه :

ـ هذه مزاعم أعدائى .

وفى هذه اللحظة نفسها ألقى بطلنا نظرة قلقة نحو الباب . كان يخشى أن لا يندفع مخاطبه الذى كان واضح المرح والارتياح فى مزاحة مزعجة ثقيلة فى مكان عام ، مزاحة لا يمكن احتمالها فى مجتمع محترم على كل حال .

أجاب الدجال على قول السيد جوليادكين وهو يضع قدحه الذى أفرغه فى جوفه بشراهة لا حياء فيها :

ـ فى هذه الحالة أوافق . فى هذه الحالة أوافق ، ولم يبق ما يقوله أحدنا للآخر .. كيف صحتك الآن يا ياكوف بتروفتش ؟

قال بطلنا بهدوء ووقار :

ـ لن أقول لك الا شيئا واحدا يا ياكوف بتروفتش ، هو أننى لم أكن عدوك فى يوم من الأيام .

ـ همم ... هذا شيء يجب التثبت منه ! وبتروشكا ؟ ما اسم ذلك القرد ؟ بتروشكا ، أليس كذلك ؟ نعم هو كذلك . كيف هو الآن ؟ أحسب أن حالته جيدة ! أهو على ما كان عليه دائما ؟

قال السيد جوليادكين مدهوشا بعض الدهشة :

ـ حالته حسنة ، مثلما كان دائما يا ياكوف بتروفتش . لا أدرى ماذا يجب ان اقول يا ياكوف بتروفتش ... ولكنني من جهتي ... بكل صدق وبكل صراحة .. أخيرا أنت تعرف يا ياكوف بتروفتش .

قال السيد جوليادكين الاصغر بصوت شجي معبر ، مصطنعا هيئة انسان حزين اعمق الحزن ، نادم أشد الندم ، هيئة انسان جدير بالاشفاق والرثاء والرحمة :

ـ ولكنك تعلم أنت نفسك يا ياكوف بتروفتش ، تعلم أنت نفسك أن هذا الزمان صعب .

ثم أضاف وقد عقد النية واضحة على أن يتملق بطلنا :

ـ انظر يا ياكوف بتروفتش ، سوف أستشهدك أنت نفسك : انك رجل ذكي تستطيع أن تحكم حكما منصفا .. هل الحياة سهلة ؟ ... لا يا ياكوف بتروفتش .. ليست الحياة لعبا .. انك تعرف ذلك حق المعرفة يا ياكوف بتروفتش .

بهذا ختم الماكر المنافق كلامه بلهجة سيد ذكي مثقف ، أهل لأن يناقش أخطر مشكلات الحياة وأرفع مسائل الوجود .

قال بطلنا بحماسة :

ـ سوف أخاطبك من جهتي يا ياكوف بتروفتش بلغة صريحة

جريئة لا احاول ان الف وأن ادور . ساقول لك يا ياكوف بتروفتش ، بكل صدق واخلاص واستقامه وشرف ، انني بريء كل البراءة ... نعم يا ياكوف بتروفتش ، اؤكد لك ذلك . ثم انك تعرفه بنفسك يا ياكوف بتروفتش . المسألة ، في حياتنا نحن ، يا ياكوف بتروفتش مساله سوء تفاهم متبادل — وكل شيء ممكن في هذه الحياة — سوء تفاهم فاقمته احكام المجتمع ، احكام اناس رعاع عمي عبيد .. أنا أكلمك بصراحة يا ياكوف بتروفتش : اعود فاقول لك ان كل شيء ممكن في هذه الحياة ... وأضيف الى ذلك أننا اذا ارتضينا أن ننظر الى القضية كلها نظرة صادقه رفيعة سامية ، كان في وسعي أن أؤكد لك ، بغير خجل زائف ، أنه يكاد يسرني أن أعترف لك ببعض ما ارتكبت من أخطاء وما وقعت فيه من ضلالات ... نعم ، ولسوف يبهجني أن أكشف عن هذه الأخطاء والضلالات . أنت انسان ذكي شريف . وانك لتدرك بنفسك حق الادراك كل ما اعترفت لك به . نعم أنا أؤكد لك أنني مستعد لأن أبوح بكل شيء ، لأن أعترف بكل شيء ، اعترافا شريفا صادقا لا يخالطه حياء كاذب ولا خجل زائف .

هكذا ختم بطلنا كلامه وقد لاحت في وجهه رفعة ونبالة ووقار .

— مصير ! قدر ! ياكوف بتروفتش ... دعنا من هذا كله الآن . ولنستعمل هذه اللحظات القصار التي تهيأت لنا في حديث أمتع وأفيد . ذلك أليق بزميلين ... ثم انك لم تتح لي أن أقول كلمتين طوال هذه المحادثة .. وليس الذنب في هذا ذنبي يا ياكوف بتروفتش .

فقاطعه بطلنا يقول بحماسة :

— ولا هي ذنبي ، ولا هو ذنبي ... أشهد على ذلك قلبي يا ياكوف بتروفتش ... قلبي يؤكد لي أنني غير مسئول عن هذه القضية كلها .

ثم أضاف يقول بلهجة المصالحة :

ـ فلنحمل القدر تبعة ذلك كله •

وكان صوته ما ينفك يزداد ضعفا •

قال المنافق بصوت رقيق عذب :

ـ ماذا بك ؟ وكيف حالك عامةً في هذه الأيام ؟

قال السيد جوليادكين بصوت أرق وأعذب أيضا :

ـ أعاني من سعال قليل •

ـ يجب أن تحاذر• هذا أوان الأمراض المعدية • ماأسرع مايصاب المرء بالتهاب في الحلق في هـــذه الأيام ! أنا من جهتي لا أكتمك أنني ألبس قميصا داخليا من صوف •

ـ أنت على صواب يا ياكوف بتروفتش • ما أسرع ما يصاب المـرء بالتهاب في الحلق !

وأضاف بطلنا بعد صمت قصير :

ـ ياكوف بتروفتش ، انني أدرك الآن أخطائي ••• وأتذكر بكثير من الحنان تلك اللحظات الجميلة التي سعدت بقضائها معك في مسكني الذي أصفه بأنه متواضع ولكنني أتجرأ فأصفه أيضا بأنه مضياف •

فأجابه مخاطبا بلهجة فيها شيء من العتب ، المسوَّغ على كل حال :

ـ ليس هذا ما عبرت عنه في رسالتك •

(والواقع أن السيد جوليادكين الأصغر كان في هذه اللحظة ، في هذه اللحظة فقط ، صادقا كل الصدق منصفا كل الانصاف) •

ـ كنت مخطئا يا ياكوف بتروفتش ••• اننى أرى اليوم بوضوح أننى كنت مخطئا حين كتبت لك تلك الرسالة اللعينة • اننى أستحى أن أنظر اليك الآن يا ياكوف بتروفتش •• أقسم لك •• اسمع •• أعد الىّ تلك الرسالة •• سوف أمزقها أمامك يا ياكوف بتروفتش •• اقرأها معكوسة ، معكوسة تماما ، أقصد حملها معانى صداقة ومودة ، افهم كل كلمة من كلماتها على غير معناها ، افهم كل كلمة من كلماتها بضد معناها • لقد أخطأت خطأ كاملا ، خطأ قاسيا يا ياكوف بتروفتش •

قال الصاحب المرائى وقد لاح فى وجهه ذهول وعدم اكتراث :

ـ ماذا تقول ؟

ـ أقول اننى قد أخطأت خطأ كاملا يا ياكوف بتروفتش ، واننى مستعد ، بغير حياء زائف أو خجل كاذب ، لأن •••

ـ آ •• نعم •• صحيح •• لقد أخطأت أنت •• صحيح جدا •

كذلك قال جوليادكين الأصغر بلهجة خشنة •

قال بطلنا بوقار وصدق دون أن يدرك الازدواج الرهيب فى سلوك صاحبه الوقح :

ـ حتى لقد خطرت ببالى فكرة يا ياكوف بتروفتش •• نعم خطرت ببالى الفكرة التالية : « لقد خلق الله انسانين متماثلين تماثلا مطلقا •• » •

ـ آ •• أهذه هى الفكرة ؟

قال الشخص الحقير ذلك ثم نهض متناولا قبعته • ونهض السيد جوليادكين أيضا • انه لم يدرك المناورات الوقحة التى يقوم بها عدوه • كان يبتسم فى نبل ومودة • كان البرىء يحاول أن يلاطف عدوه ، أن يواسيه ، أن يعقد بينه وبينه صلات صداقة جديدة •••

صاح الدجال فجأة يقول :

ـ وداعا يا صاحب السعادة •

ارتجف بطلنا حين رأى فى وجه عدوه ذلك التعبير المسعور الساخر، المعربد •

ومن أجل آن يتخلص السيد جولیادكين من هـذا الشعور وضع فى اليد التى مدها اليه الشخص الكريه • وفى هذه اللحظة •• اللحظة تجاوزت وقاحة السيد جولیادكين الأصغر كل الحدود . ذا يقبض على الأصبعين ، ويضغطهما ، نم ما يلبث آن يكرر مزاحة امام بطلنا مرة أخرى بسرعة • هنا نفدت مدخرات جميع الصبر ، •

أعاد جولیادكين الأصغر الى جيبه المنديل الذى مسح به يديه ، ـ رج •• واسترد السيد جولیادكين أخيرا صوابه ، فاسرع يلحق بعدوه • ولكن عدوه كان قد انسل على عادته ، فأصبح فى الحجره الأولى• انه الآن واقف قرب البسطه ، مرتاحا ، يلتهم بعض الفطائر فى غير اضطراب ، ويتحدث مع الالمانية بائعة الفطائر بلطف وأدب •

قال بطلنا لنفسه : « لا داعى الى فضيحة أمام سيدة •• » • واقترب هو أيضا من البسطة منفعلا أشد الانفعال •

قال جولیادكین الاصغر :

ـ حقا ان هده المراه اللطيفه لا بأس بها •• ما رأيك ؟

وعاد يكرر مزاحاته البذيئة معتمدا على صبر بطلنا •

كانت الألمانية السمنة تنظر الى زبونها بعنين شهباوين لاتعبران عن

شيء ، مع ابتسامه تودد وتلطف • وكان واضحا انها لا تفهم الروسيه • نفد صبر بطلنا ، وأصبح من فرط استيائه من كلمات الدجال الوقحة لا يستطيع كبح جماح نفسه ، فاسرع نحو صاحبه ملتهب الوجه حنقا ، يريد أن يمزقه اربا وأن يجهز عليه مرة واحدة • ولكن الشخص الجبان كان قد ابتعد على عادته فى الكيد والحيلة • لقد وثب فجأة فأصبح الآن على درجات المدخل • ذهل السيد جوليادكين ولكنه لم يلبث أن أفاق من ذهول اللحظة الأولى ، فهرع يجرى وراء الشخص الذى أهانه جريا سريعا • ولكن خصمه لم يلبث أن ركب عربة كانت واقفة فى الشارع • لا شك أن حوذى العربة كان متواطئا مع الرجل المخادع الدجال •

وفى هذه اللحظه نفسها اطلقت الالمانية البدينه ، وقد رأت زبونيها يهربان ، اطلقت صرخه حادة وهزت جرس الباب بكل ما أوتيت من قوة فالتفت السيد جوليادكين الى خلف وهو يركض ، ورمى اليها مالا ثمن ما شرب هو وصاحبه ، وتابع ركضه نحو العربة دون أن ينتظر أن ترد اليه البقية ؟ واستطاع رغم تأخره أثناء ذلك أن يدرك خصمه من جديد ، وقد تحركت العربة •

تشبث السيد جوليادكين بجناح العربة بكل قواه ، وظل يجرى معها على هذه الصورة محاولا أن يتسلق الى داخلها ، حيث كان عدوه يجهد أن يصده بكل ما أوتى من قوة أيضا • وفى أثناء ذلك كان الحوذى يستحث فرسه الضعيفه الهزيلة بضربات من سوطه والزمام والقدم ، وكذلك بشتائم وسباب ؟ فاذا بالفرس الضعيفة الهزيله تأخذ تعدو عدوا سريعا على غير توقع ، عاضة زمامها رافسه بقائمتيها • واستطاع بطلنا أخيرا أن يصعد الى العربة ، فأصبح أمام عدوه وجها لوجه ، مديرا ظهره لمقعد الحوذى • تداخلت ركب الرجلين ، وأمسك السيد جوليادكين

ايفانوفتش . فتملكه اضطراب لا يوصف ، وهمَّ أن يلاحق عدوه الدجال ولكنه توقف فى الوقت المناسب لحسن الحظ . ودفع للحوذى أجره ، وخرج الى الشارع ، وأطلق ساقيه للريح يجرى قدما ولا يلوى على شىء . الثلج ما يزال يتساقط أسناخا كثيفة . والجو مظلم رطب يملؤه الضباب . ان السيد جوليادكين يطير طيرانا ، فيصدم المارة ، ويقلب الفلاحين والنساء والأطفال ، ويتلقى بدوره صدمات تلو صدمات ... ومن حوله ، ووراءه ، ترتفع صرخات ، وتعلو صيحات ذعر ، ويقوم عياط وشياط ... ولكن السيد جولیادكين لا يريد أن يرى شيئا ، ولا يريد أن يفهم شيئاً .. فلما صار قريبا من جسر سيميونوفسكى استرد صوابه وثاب الى رشده بعد أن صدم بائعتين وما تعرضان ، فقلبهما على الأرض ، وانقلب معهما فى الوقت ذاته . قال لنفسه : « ما هذا بشىء ... كل أمر يمكن أن يسوى على أحسن نحو . » . ودس يده فى جيبه باحثا عن روبل يعوض به للبائعتين ما فقدتاه من فطائر وتفاح وجوز وغير ذلك من بضائع انسفحت على الارض . غير أن نورا جديدا ظهر فى دماغه عندئذ على حين فجأة . لقد مست يده الرسالة المغلفة التى حملها اليه كاتب المحكمة فى ذلك اليوم .

وسرعان ما تذكر السيد جولیادكين أن هناك ، غير بعيد عن المكان الذى هو فيه ، مطعما حقيرا يعرفه حق المعرفة . فأسرع يمضى الى المطعم ثم أسرع يجلس الى احدى موائده التى تضيئها شمعة ملطخة ، دون أن يضيع من وقته لحظة واحدة .

كان لا يشعر بما حوله ، حتى أنه لم ينتبه الى الخادم الذى جاء يسأله عن طلبه ؟ فض غلاف الرسالة بسرعة ، وأخذ يقرأ مشدوه الفكر مذهول اللب أعمق الذهول :

بيده اليمنى ياقة الفراء المهترىء من المعطف الذى كان يرتديه خصمه العانى الدنى ..

العربة تعدو بسرعة شديدة . والخصمان المتماسكان صامتان لا يتكلمان . الشارع محفر فالمركبة تهتز، ويوشك بطلنا أن ينكسر ظهره فى كل لحظة . وعدوه ، من جهته ، لا يعترف بأنه غلب ، فهو يستميت فى سبيل أن يدحرج السيد جوليادكين الى الوحل . ومن تمام المصيبة ان الجو كان رهيبا . فالثلج يتساقط أسناخا كبيرة ، ويتسرب الى داخل معطف صاحبنا . ولم يكن فى وسع المرء أن يرى شيئاً من شدة كثافة الثلج والضباب . كان يستحيل على المرء أن يعرف الشارع الذى تجرى فيه العربة سريعة سرعة شديدة . وفجأة شعر السيد جوليادكين بذلك الشعور الذى يحس صاحبه أنه « سبق له أن رأى ما يراه الآن » ... فظل بضع لحظات يحاول أن يتذكر .

ترى ألم يوجس هذا كله فى الليلة البارحة ، فى الحلم مثلا ؟ ... وأخذ قلقه يزداد شدة بغير انقطاع . هو الآن فى ذروة القلق . انه يحتضر . أراد أن يصرخ وهو متشبث بعدوه الذى لا يرحم ... ولكن صرخته فنيت على شفتيه ... ثم جاءت لحظة نسيان كامل . شعر السيد جوليادكين شعورا غامضا بأن كل ما يقع له أمر لا سبيل الى فهمه ... أمر لا فائدة منه .. أمر لا طائل تحته .. أمر لا شأن له به .. باطل وسخف أن يحتج .. وفى هذه اللحظة ، حدثت رجة شقية فغيرت وجه الأشياء .. سقط بطلنا كسقوط كيس طحين ، وتدحرج فى الوحل وهو يردد لنفسه أن كل شىء باطل ، وأنه أخطأ حين تحمس .

فلما نهض أبصر أن العربة كانت تقف فى فناء منزل من المنازل .

وأدرك من أول نظرة أنهم الآن فىفناء المنزل الذى يسكنه أولسوفى

« أيها الانسان النبيل ، العزيز على قلبى الى الأبد ،

« أنت يا من تتألم فى سبيلى !

« اننى اتألم ، اننى اتعذب ، اننى أموت عذابا ، فانقذنى .. ان رجلا محتالا ، رجلا تماما ، رجلا معروفا بغروره وتفاهته قد أحاطنى بشباكه . نصب لى فخا ، فوقعت فى الفخ . لقد ضعت . ولكننى أكرهه وامقته .. أما أنت .. لقد باعدوا بيننا .. وحجزوا الرسائل التى كنت أكتبها اليك. وذلك كله من صنع الانسان الدنىء الذى استغل ميزته الوحيدة ، وهى أنه يشبهك .

« أنا أعلم على كل حال أن فى وسع انسان غير جميل أن يفتن بسمو فكره وكرم عواطفه ورفعة أخلاقه وآدابه .

« لقد سقطت .. انهم يزوجوننى رغم ارادتى .. وان أبى ، نعم ، أبى ، مستشار الدولة ، أولسوفى ايفنوفتش ، هو الذى يقود الامر كله . أهى الرغبة فى أن يستفيد من مكانتى فى المجتمع ، ومن علاقاتى بعليه القوم ؟ » .

« ولكننى قد عزمت أمرى ، وسأحتج بكل ما أوتيت من قوة معتمدة على جميع الوسائل الممكنة . انتظرنى هذا المساء ، ابتداء من الساعة التاسعة فى فناء المنزل ، تحت نوافذ مسكننا تماما . سيقام احتفال راقص عندنا . وسيأتى ضابط ملازم جميل . سأنسل من الاحتفال ، وأجىء اليك ، فنهرب معا . ان فى بلادنا وظائف كافية ينفع المرء فيها وطنه . وفوق هذا كله يجب أن تتذكر يا صديقى أن البراءة تستمد قوتها من ذاتها . الى اللقاء . انتظرنى فى الفناء هذا المساء مع عربة . سآتى أحتمى بذراعيك فى الساعة الثانية تماما .

« وسأظل لك حتى الممات .

كلارا أولسوفيفنا

بعد أن قرأ بطلنا هذه الرسالة ظل برهة طويله مشدوه العقل ذاهلا عن نفسه . ثم أخذ يذرع الحجرة جيئة وذهابا مضطرب النفس قلقا ممتقع اللون ، ممسكا الرسالة بيده .

ومن تمام سوء الحظ انه لم يلاحظ ان الانظار جميعها اصبحت متجهه اليه . كانت ملابسه فوضى ، وكان انفعاله ظاهرا ؛ وكان كل ما يراه الناس فيه ، من مشيته فى القاعة او كل ركضه في أرجائها ، الى حركات يديه ، الى الكلمات الغريبه القليله التي كانت نقلت من شفتيه على غير شعور ، كل ذلك كان لا يهيىء الناس لان ينظروا اليه نظرة حسنه . حتى الخادم كان يتأمله مرتابا محاذرا .. فلما ثاب الى رشده ، لاحظ أنه كان في وسط القاعة ، وأنه كان يحدق فى رجل عجوز قصير وقور المظهر تحديقا غير لائق ، أو تحديقا لا محل له في أقل تقدير . كان الشيخ القصير قد فرغ من تناول غدائه ، وانحنى أمام الآيقونه ، فهو الآن جالس على كرسيه لا يحول بصره عن السيد جوليادكين . أجال السيد جوليادكين عينيه فى أرجاء القاعة حائرا قلقا . فرأى عندئذ أن جميع الأعين كانت مصوبة اليه ، وهى أعين تفيض احتقارا وعداوة . وهذا ضابط متقاعد يرتدى بزة ذات ياقة حمراء ، يأخذ يصيح طالبا أن يؤتى بجريدة « رسول الشرطة » .

ارتعش السيد جوليادكين . واحمر وجهه احمرارا شديدا . وخفض عينيه بحركة آلية ملاحظا أن مظهره غير لائق ولا محتشم . ما كان لرجل محترم أن يرتضى لنفسه أن يرتدى هذه الملابس في بيته

فكيف بين الناس ! كان حذاءاه وسرواله وكل الجانب الايسر من ردنجوته ، كان ذلك كله ملطخا بالوحل . وكانت الثنية اليمنى من سرواله منزوعة . وكان الردنجوت ممزقا فى مواضع عدة . فما ان رأى السيد جوليادكين ذلك كله حتى تملكه خوف كاو ، فأسرع يجلس الى المائدة التى كان جالسا اليها حين قراءة الرسالة . فلم يلبث أن رأى الخادم مقبلا عليه . كان فى وجه الخادم وقاحة وشراسة . فاضطرب بطلنا وتحير وتفرس فى المائدة ، فرأى عليها أطباقا وسخة ، ومنشفة ملطخة ، وسكينا وشوكة وملعقة .

تساءل بطلنا : « من ذا أكل هنا ؟ أنا ؟ أهذا ممكن ؟ آه ... كل شيء ممكن . لقد تغديت دون أن أشعر . فما الذى يجب أن أفعله الآن ؟ » . ورفع عينيه ، فرأى الخادم واقفا أمامه يهم أن يتكلم .

— كم الحساب يا صاحبى ؟

كذلك سأل بطلنا الخادم . فسمع من حوله قهقهات صاخبة . حتى لقد سمح الخادم لنفسه أن يبتسم . ففهم السيد جوليادكين على الفور أنه ارتكب غلطة فاحشة ، أنه قارف خطيئة كبيرة . فاضطرب أشد الاضطراب ودس يده فى جيبه باحثا عن منديل . كان فى حاجة الى أن يفعل شيئا ما، الى أن يقوم بحركة ما ، رجاء أن يغطى اضطرابه . ولكن ما كان أشد دهشته وما كان أشد دهشة الحضور أيضا حين لم يخرج من جيبه منديل وانما خرجت زجاجة فيها الدواء الذى وصفه له كريستيان ايفانوفتش منذ بضعة أيام . وهذه فكرة تلمع فى رأسه « جميع الأدوية فى صيدلية واحدة » ؛ وارتعش وهو لا يكاد يستطيع أن يكظم صيحة ذعر . لقد أضاء فكره فجأة . ان السائل الذى تضمه الزجاجة كئيب اللون قاتم الحمرة ، تلألأ حزينا أمام بطلنا . وفجأة أفلتت الزجاجة من يديه وتحطمت .

أطلق السيد جوليادكين صرخة ، ووثب وثبة الى وراء . ان أعضاءه كلها ترتجف . وان العرق يتقاطر على جبينه وصدغيه . « لا شك أن حياتى فى خطر » . كذلك قال لنفسه . وكان يسود الغرفة صخب شديد وصياح قوى . أحاط الناس بالسيد جوليادكين . كلموه . أمسكوا بذراعيه ، بكتفيه . ظل هو ساكنا صامتا ، لا يرى شيئا ولا يسمع شيئا ولا يحس بشىء .. وأخيرا انتزع نفسه من مكانه ، وأسرع يخرج من المطعم . أرادوا أن يستبقوه . ولكنه أبى ومضى فى طريقه يصدم كل ما يلقاه أمامه . فلما صار فى الشارع ارتمى فى عربة من العربات خائر القوى على غير وعى ، وأمر الحوذى أن يقوده الى بيته . وفى الدهليز صادف ميخايف ، خفير الادارة ، حاملا اليه رسالة عمل ... تمتم بطلنا يقول له مصعوقا ، بصوت كامد شاك : «أعرف مضمون الرسالة ياصاحبى ... أعرف كل شىء .. هى تبليغ رسمى » . قال ذلك وتناول الرسالة وأعطى الخفير عشرة كوبكات . وكانت الرسالة تتضمن مذكرة رسمية فعلا . انها مذيلة بتوقيع آندره فيليبوفتش ، وهى تأمر السيد جوليادكين أن يسلم ايفان سيميونوفتش جميع الملفات والاوراق التى فى عهدته .

فلما دخل السيد جوليادكين بيته رأى بتروشكا منهمكا فى تكديس ملابسه وخرقه وأسماله . ما من شك البتة . ان بتروشكا يستعد لترك مولاه ويتهيأ لمغادرة البيت .

لا شك فى أن كارولين ايفانوفنا قد أغرته ، وأنه ذاهب اليها يحل محل أوستاش .

الفصل الثاني عشر

دخل بتروشكا مترنحا . كان غير عابىء ، وكان في وجهه تعبير غريب عن مرح وفرح ، وعن شعور فظ غليظ بالانتصار .

واضح أنه كان قد وضع خطته . انه يتصرف الآن تصرف انسان حر طليق ، غريب كل الغرابة عن المكان الذى هو فيه ؟ أو قل انه يتصرف تصرف خادم لواحد من الناس ليس هو جوليادكين حتما .

قال بطلنا لاهثا :

– هأنذا يا عزيزى ! كم الساعة الآن يا صديقى ؟

ذهب بتروشكا الى ما وراء الحاجز دون أن يجيب ، ثم عاد يقول هادئا بلهجة طليقة :

– قريبة من السابعة والنصف .

ـ آ ••• طيب ••• جيد جدا يا صديقى الشهم • اذن اسمح لى أن أقول لك يا صديقى •• أخيرا •• أظن أن كل شىء قد انتهى بيننا الآن •

لم يجب بتروشكا بكلمة واحدة •

ـ طيب •• أما وقد انتهى بيننا كل شىء ، فقل لى بصراحة ، قول صديق لصديق ، أين كنت يا عزيزى الطيب ؟

ـ أين كنت ؟ عند أناس طيبين •

ـ أعرف يا صديقى أعرف • لقد كنت راضيا دائما عن خدماتك يا عزيزى ، وسأعطيك شهادة بذلك ••• اذن ستعمل بعد اليوم عندهم ؟

ـ والله يا سيدى •• أنت نفسك تعرف : ما من انسان شريف يفعل فعلا سيئا •• هذا معروف •

ـ نعم ، أعرف يا صديقى الشهم أعرف • الشرفاء قلة فى هذا الزمان • ويجب علينا أن نقدرهم حق قدرهم يا صديقى • كيف الحال هناك الآن ؟

ـ كما كانت دائما •• أما أنا يا سيدى فلا أستطيع أن أبقى فى خدمتك بعد اليوم • وأنت تعرف ذلك جيدا على كل حال •

ـ أعرف يا عزيزى أعرف • أنا أعرف همتك ونشاطك وحماستك فى العمل • لقد لاحظت فيك هذه المزايا دائما ، وقدرتها حق قدرها دائما يا صديقى • اننى أقدرك كثيرا يا صديقى • لقد قدرت دائما الناس الطيبين الشرفاء ، ولو كانوا خدما •

ـ والله هذا شىء معروف • أنت تعلم أن شباننا مثلنا ليس لهم نظير ••

هكذا . أما أنا يا سيدى فأجد أن من الصعب أن أعيش بدون أناس شرفاء . هذا أكيد .

ـ حسن جدا يا صديقى الشهم ، حسن جدا . أنا متفق معك فى الرأى .. طيب .. اليك أجرك وشهادتك .. والآن فلنتعانق ياصديقى الشهم ولنفترق .. ولكننى سأطلب منك خدمة صغيرة أخرى ، خدمة صغيرة أخيرة ، يا عزيزى (قال السيد جوليادكين ذلك بلهجة وفورة). ان كل شىء يمكن أن يقع فى هذه الحياة يا عزيزى . الشقاء موجود فى كل مكان يا صديقى الطيب ، حتى فى المساكن المذهبة . ما من أحد يستطيع أن يفلت منه . يخيل الىّ ياعزيزى أننى كنت دائما لطيفاً معك ، أليس كذلك ؟

ظل بتروشكا صامتا لا يجيب .

ردد جوليادكين يقول :

ـ لقد كنت لطيفا معك دائما ياعزيزى .. قل لى بالمناسبة ياعزيزى: كم بقى لى من ملابس ؟

ـ ملابسك كلها موجودة : ستة قمصان ، ثلاثة أزواج أجربة ، أربع صدرات ، صديرة من صوف ، وهناك أيضا سروالان داخليان . أنت تعرف هذا كله على كل حال . أما أنا يا سيدى ، فلا آخذ منك شيئا البتة فى يوم من الأيام .. اننى أحافظ على كل ما يخصك .. وبالنسبة اليك يا سيدى .. على كل حال .. من المؤكد .. لست ألوم نفسى على شىء يا سيدى ، لست ألوم نفسى على أى شىء .. أنت تعرف ذلك يا سيدى .

ـ أنا أصدقك يا صديقى ، أصدقك .. ما عن هذا أردت أن أتكلم .. اسمع يا صديقى ..

ـ هذا معروف يا سيدى •• جميع الناس يعـرفونه •• حين كنت في خدمة الجنرال ستولينـاكوف •• كان يمنحني اجازة كلما ذهب الى ساراتوف التي يملك فيها أطيانا •

ـ لا يا صديقي •• ما عن هذا أريد أن أكلمك •• أنا لا الومك على شيء •• لا تعبيء رأسك هكذا يا صديقي العزيز •

ـ هذا معروف تماما : ان اناسا من طبقتنا يسهل اتهامهم •• انت تعرف ذلك بنفسك يا سيدى •• أما انا فقد أرضيت دائما أسيادى ، وزراء كانوا او جنرالات او أعضاء في مجلس الشيوخ أو كونتات •• لقد خدمت في كل مكان : خدمت في منزل الامير سفنتشانكين ، وفي منزل الكولونيل بيربوركين ، وفي منزل الجنرال نيدوباروف ، وكان يأخذني معه الى أملاكه •• هكذا ••

ـ صحيح يا صديقي •• هذا حسن جدا ، حسن جدا • والآن فقد جاء دورى أنا للسفر •• لكل انسان طريقه يا عزيزى ، وما من أحد يعرف الطريق التي رسمها له القدر • طيب •• ساعدني الآن في ارتداء ثيابي يا صديقي •• ضع بزتي الرسمية مع باقي الأشياء •• وكذلك السراويل ، والمفارش ، والأغطية ، والمخدات •

ـ هل يجب أن أجعل هذا كله في رزمة ؟

ـ نعم يا صديقي ، هذا ما يجب أن تفعله •• تحزم جميع الأشياء في رزمه • من ذا الذى يعلم ما يخبيء لنا المستقبل ؟ والآن يا صديقي ، انزل فاستدع لي عربة •

ـ عربة ؟

ـ نعم يا صديقي عربة • استأجرها لوقت طويل ، واحرص على أن

تكون العربة واسعة . ولكن اياك أن تذهب بك الظنون يا صديقى الى تصور أشياء ...

ـ هل تسافر الى بعيد ؟

ـ لا أعرف يا صديقى .. حقا لا أعرف .. ومن المستحسن أن تضع فى العربة لحافا . ما رأيك يا صديقى ؟ اننى أعتمد عليك يا عزيزى ...

ـ أأنت مسافر فورا ؟

ـ نعم يا صديقى نعم ..

ـ أفهمك يا سيدى . فى الكتيبة التى كنت فيها حدثت هده المغامرة نفسها لملازم أول . خطف ابنة أحد كبار الملاكين .

ـ خطف ؟ ماذا تقول ؟ ولكن يا عزيزى ...

ـ نعم ، خطفها وتزوجا فى أبرشيه مجاورة . أعد كل شيء سلفا . ولقد لاحقوهما ولكن الأمير ، نعم الأمير المتوفى ، قد تدخل وسوّى كل سيء .

ـ اذن تزوجا .. ولكن كيف علمت يا صديقى الشهم بما عقدت عليه النية ؟

ـ الأمر معروف . الاشاعات تسرى سريعة على هذه الأرض . نحن على علم بكل شيء ، نعم بكل شيء .. طبعا ، ما من انسان معصوم من الزلل ، مبرأ من الخطايا .. ولكن يجب أن أقول لك يا سيدى ... اسمح لى أن أقول لك ، لأننى خادم طيب .. ما دامت الأمور قد وصلت الى هذه المرحلة الآن ، فيجب أن أقول لك يا سيدى ان لك عدوا ، ان

لك منافسا ، نعم يا سيدى ، ان لك منافسا خطرا يا سيدى .. نعم يا سيدى .

ـ أعلم ذلك يا صديقى ، أعلم . أنت نفسك تعلم يا صديقى ... طيب .. على كل حال أنا أعتمد عليك . ماذا نفعل الآن يا صديقى ؟ بماذا تنصحنى ؟

ـ والله يا سيدى ، أما وقد اخترت هذا الحل فيجب عليك أن تشترى أشياء كثيرة .. مفارش ، مخدات ، لحافا آخر لشخصين ، غطاء جيدا .. وهذه الأشياء كلها تستطيع أن تجدها عند الجارة .. هناك ... تحت .. وعندها أيضا فراء ثعلب جيد . فى وسعك أن تراه وأن تشتريه فورا . ليس عليك الا أن تنزل اليها .. هو معطف جميل مغطى بالساتان وله فروة ثعلب .

ـ طيب طيب يا صديقى ، أنا موافق، وأنا أعتمد عليك اعتمادا كاملا يا صديقى . وأنا موافق أيضا على شراء الفروة يا عزيزى . ولكن أسرع أرجوك ، أسرع ، أسرع؛ أنا مستعد لشراء المعطف، ولكن أسرع أرجوك .. لقد اقتربت الساعة من الثامنة . يجب أن نسرع يا صديقى أرجوك يا صديقى ، أسرع .

ترك بتروشكا كدسة الملابس والأغطيه والمخدات وغير ذلك من الأثواب التى كان بسبيل جمعها وهرع يخرج من الغرفه .

وأخرج السيد جوليادكين الرسالة مرة أخرى ، ولكنه لم يستطع أن يقرأ .

فأمسك رأسه المسكين بين يديه وأسند ظهره الى الحائط شارد اللب. انه لا يستطيع لا أن يفكر ولا أن يقوم بأية حركة . كان لا يدرى هو

نفسه ماذا يحدث فى نفسه ... فلما لاحظ أخيرا أن الدقائق تجرى ، وأن بتروشكا والمعطف لم يحضرا ، قرر أن ينزل ، ففتح باب المدخل ، فسمع ضجة .. انها أصوات كلام ومناقشة وصياح تحت .. هن الجارات يثرثرن ويعولن ويشتجرن . ان السيد جوليادكين يعرف حق المعرفة بصدد أى شىء كن يختصمن . وسمع أيضا صوت بتروشكا ، ثم سمع وقع خطوات تصعد السلم .

« آه .. يا رب ... يا رب ... لسوف يصعدون الى هنا بالعالم كله .» كذلك تنهد بطلنا يقول وهو يعض يديه حزنا وكمدا ، ثم أسرع عائدا الى غرفته وارتمى على الديوان داسا رأسه فى المخدة .

أصبح لا يعرف ماذا يفعل . وظل على هذه الحال دقيقة كاملة ، ثم نهض بوثبة واحدة دون أن ينتظر بتروشكا ، فدس قدميه فى جرموقيه وارتدى معطفه ووضع قبعته على رأسه ، وتناول محفظته واندفع يهبط السلم ، فلما صادف بتروشكا على السلم تمتم يقول له : « لست فى حاجة الى شىء يا عزيزى . سأفعل كل شىء بنفسى . لست فى حاجة اليك الآن . مايزال يمكن أن يسوى كل شىء على خير وجه ... » . ووصل الى فناء المنزل ، وأسرع الى الشارع . كان قلبه يوشك أن يتوقف عن الخفقان .. وهو ما يزال مترددا : ما عساه يصنع ؟ ما الذى يجب عليه أن يقرره ؟ على أى شىء يجب أن يعقد عزمه فى هذه اللحظة الحاسمة ؟ وصاح أخيرا يقول وقد استبد به الكمد واليأس : « ماذا يجب أن أفعل ؟ لكأنه لم يكن فى الامكان الاستغناء عن هذا كله ! .. »

كان ما يزال يجرى قدما بخطى قصيرة لا يلوى على شىء . وتابع يخاطب نفسه : « نعم .. ما كان أغنانى عن هذا كله ! لولا هذه القصة ، نعم لولا هذه القصة لكان يمكن أن يسوى كل شىء ... كان يمكن أن

يسوى كل شىء دفعة واحدة ، كان يمكن أن يسوى كل شىء بضربه قويه محكمه واحدة .. قطعت يدى اذا لم يمكن ان يسوى عندئذ كل شىء ، وانا أعرف حق المعرفه كيف كان يمكن ان يسوى عندئذ كل شىء . كنت سانفرد بهذا الرجل فاقول له : « اسمح لى أن أصرح لك يا سيدى .. أن المرء ، على وجه العموم ، نعم على وجه العموم ، لايتصرف هكذا .. نعم يا سيدى نعم .. ما من أحد يتصرف هذا التصرف . الاغتصاب لا ينجح هنا .. وانت امرؤ محتال دجال يا سيدى ، أنت رجل لا قيمة له ولا فائدة منه للوطن . نعم ، هل فهمت هذا الكلام ؟ وكان فى وسعى أن أضيف الى ذلك ... ولكن فيم أضيف الى ذلك شيئا ..ذلك كل شىء . ماذا أقول ؟ يا لى من أبله ! يا لى من أبله ؟ أأكون اذن قاتل نفسى ؟ لا لا .. بلى بلى .. انت امرؤ مستهتر .. ما العمل الان ؟ ما عساى أصبح ؟ لأى شىء أصلح ؟ نعم ، لأى شىء تصلح يا جولیادكين؟ ياجوليادكين الدنىء ! والان ؟ يجب استئجار عربة . لقد طلبت منى عربة . اذن لا بد أن تكون العربة مهيأة . فاذا لم يكن هنالك عربة تبللت أقدامنا الصغيرة ؟ من ذا الذى كان يمكن أن يتصور هذا ؟ آه ... يا آنسة .. يا آنسة .. ان سلوكك مشين .. ان سلوكك معيب .. ما هذا كله الا ثمرة تربية سيئة .. نعم لقد فهمت كل شىء منذ رأيت ما يجرى .. لا شك فى أن هذا كله نتيجة مباشرة لتربية غير أخلاقية.. كان ينبغى أن تستعمل معها الشدة والقسوة منذ طفولتها .. وكان لابد لها من سوط تجلد به من حين الى حين .. ولكنهم بدلا من ذلك كانوا يحشون فمها بأنواع المربيات والحلوى ! .. وهذا العجوز الذى لا ينفك يتباكى أمامها ويقول لها : آه يا حبيبتى الغالية .. انك فى غاية اللطف والظرف ، انك فى غاية الحسن والجمال .. يمينا لأزوجنك بكونت .... وها هى ذى الآنسة تخرج من الظل وتلقى بأوراقها قائلة : الكم لعبتى،

ايها الساده ، فاعجبوا بى ما شاء لكم أن تعجبوا .. انهم بدلا من أن يلزموها البيت وضعوها فى مدرسه داخليه لدى امرأة فرنسية ، مهاجرة، امراة لا يعرف لها أصل يقال لها مدام فالبالا .. فلا غرابة اذا هى لم تسر فى الطريق القويم ! انحنوا لها أيها الناس ! وما هى النتيجة ؟ هى ما ترون : « انتظرنى فى عربة ، فى الساعة كذا ، تحت نوافذ بيتنا ، وأنا أعتمد عليك لتغنى لى أغنية عاطفية اسبانية ... اننى أنتظرك . أنا أعرف انك تحبنى . سوف نمضى معا . سوف نعيش فى كوخ ... »

« ولكن هذا مستحيل .. نعم يا سيدتى ، هذا مستحيل استحالة مطلقة .. هذا شىء تمنعه القوانين .. ليس من حق انسان أن يختطف فتاة عفة طاهرة من بيت أبيها دون موافقة أهلها. وفيم هذا على كل حال؟ فيم هذا ؟ ما كان عليك الا أن تتزوجى الرجل الذى هيأه لك القدر وكفى ! أنا ... ماذا أنا ؟ أنا موظف .. وأنا مهدد بفقد وظيفتى بسبب ذلك كله . نعم يا آنسة .. اننى أعرض نفسى للمثول أمام المحاكم بسببك . فاعلمى هذا يا آنسة .. ان الألمانيه هى التى تدبر هذه المكائد .. كل المصائب مصدرها هذه الألمانية الشمطاء .. انها هى التى تضع النار فى البارود . يشون بانسان ، ويسلطون عليه أقاويل ثرثارة نمامه بايعاز من آندره فيليبوفتش ، وتنجح المكيدة . لولا أن الألمانية وراء هذا كله ، أكان يتدخل بتروسكا فى هذه القضية ؟ ما شأنه فى هذا الأمر ؟ ما علاقته بهذه المسألة ، هذا الوغد الحقير ؟! .. لا يا آنسة ، لا أستطيع أن أفعل فى سبيلك شيئا ، لا أستطيع قطعا ! .. معذرة هذه المرة يا آنسة .. أرجو أن تسامحينى .. والحق أنك أنت سبب البلاء كله ، يا آنسة، لا الألمانة ! أنت سبب البلاء رأسا . الألمانية الساحرة امرأة طيبة ، الألمانة الساحرة بريئة من الذنب آنسة .. هذه هى الحقيقة . أنت وضعتنى فى أسوأ ورطة آنسة .. رجل أصبح من ضياعه قاب قوسين .. انه يهوى

الى العدم .. ولا يملك أن ينقذ نفسه .. ثم تجيئن أنت تحدثينه عن زواج . كيف يمكن ان ينتهى هذا كله ؟ كيف يمكن ان يسوى هذا كله ؟ ليتنى أعلم ذلك ... » .

وفيما كان جوليادكين يستطرد على هذه الصورة وقد استبد به الحزن والكمد ، عاد فجأة الى الواقع ، فلاحظ أنه قد أصبح فى شارع ليتانيايا . كان الجو رهيبا : مطر وثلج وجليد يذوب . كل شيء يشبه تماما تلك الليلة التى لا تنسى ، تلك الليلة التي بدأت فيها جميع مصائب بطلنا فى الظلام . وراح السيد جوليادكين يجتر خواطره : « الزواج ؟ ألا انها نهاية العالم .. أين عساى واجدا عربة ؟ ها .. هاهى ذى عربة ... هناك عند الناحية فيما أظن .. فلأذهب الى هناك لأرى عن كثب . آه .. يارب يارب ! .. » .

اتجه السيد جوليادكين بخطاه المترنحة صوب ناصية الشارع ، حيث حسب أنه أبصر عربة . قال لنفسه : « لا لا .. هذا ما يجب أن أفعله : سأذهب الى هناك ، فأخر ساجدا عند قدميه ، قائلا له : أنظر الى حالتى.. اننى أضع مصيرى بين يديك ، بين يدى رؤسائى .. أتوسل اليك يا صاحب السعادة ، أناشدك الله أن تدافع عنى ، أن تحمينى . هذه هى المسألة .. فعلْ يحرمه القانون .. لا تتركنى .. لا ترهقنى .. اننى ألجأ اليك كما يلجأ ابن الى أبيه .. أنقذ كرامة انسان شقى ، وشرفه وسمعته . انقذنى من هذا الرجل العاتى المنحط الذى لا خلاق له . نحن ، أنا وهو ، شخصان اثنان يا صاحب السعادة .. هو يعيش على هواه ، وأنا من جهتى أحيا حياة بسيطة هادئة يا صاحب السعادة لا أسيء الى أحد ولا أوذى أحدا ، أؤكد لك يا صاحب السعادة أننى لا أنال أحدا بسوء قط .. أنا لا أشبهه ، أنا لا يمكن أن أشبهه ! فأضرع اليك يا صاحب السعادة ، رحماك يا صاحب السعادة ، غيّر لى وظيفتى فتنتهى

هذه المشكلة ، ينتهى هذا الاحتيال الوقح وهذا الاغتصاب الدنىء .. حتى لا يكون هذا قدوة سيئة للآخرين يا صاحب السعادة . اننى أعدك أبا يا صاحب السعادة . ان الرؤساء الذين يملكون صدرا رحبا وذمة سامية لا بد أن يشجعوا مثل هذه المبادرات . بل ان فى مبادرتى هذه لروحا فروسية . اننى أتوجه اليه كتوجهى الى أب .. أضع مصيرى بين يديه ، وأعده بأن لا أعترض على ما يتخذه من قرار ، أنصاع لارادته وأمحى أمامه .. هذه هذه المسألة .. » .

ـ قل لى يا عزيزى .. أأنت حوذى ؟

ـ نعم .

ـ أأنت حر طوال السهرة ؟

ـ هل المسافة طويلة ؟

ـ أنا أستأجر العربة للسهرة ، للسهرة كلها . لا تسأل عن المكان الذى أقصد اليه . ليس لهذا من قيمة .

ـ هل فى نيتك الخروج من المدينة ؟

ـ نعم يا صديقى . هذا ممكن . لا أدرى أنا نفسى بعد . لا أستطيع أن أقطع بذلك يا عزيزى . ومن الممكن أن يسوى كل شىء على خير وجه يا صديقى الشهم . وهذا أفضل يا صديقى .

ـ طبعا هذا أفضل يا سيدى . أنا أتمنى ذلك لجميع الناس .

ـ هو كذلك يا صديقى ، هو كذلك . شكرا يا عزيزى . فما هو الأجر الذى تطلبه يا صديقى الطيب ؟

ـ أأنت مسافر حالا ؟

ـ نعم حالا . أقصد ... سوف نذهب أولا الى مكان ما ننتظر فيه

برهة .. يجب أن ننتظر برهة .. برهة قصيرة يا عزيزى ..

ـ اذا كنت تكترى العربة لليلة كلها، فالأجر ستة روبلات. يستحيل أن أرضى بأقل من هذا فى مثل هذا الجو .

ـ طيب طيب يا صديقى . اتفقنا. وساعطيك مكافأة أيضا ياعزيزى. طيب . والآن هيا بنا يا صديقى .

ـ اجلس .. بل انتظر لحظة . سارتب بعض الترتيب . هه ... تفضل بالجلوس الآن ! الى أين تأمر بأن أذهب بك ؟

ـ الى جسر اسماعيلوفسكى يا صديقى .

صعد الحوذى الى مقعده ، ولكز الحصانين اللذين لم يمكن انتزاع كيس العلف منهما الا فى عناء . وانجهت العربه صوب جسر اسماعيلوفسكى . ولكن السيد جوليادكين لم يلبث أن شد الحبل فجاه ، واستوقف الحوذى وطلب اليه بصوت ضارع أن ينثنى الى وراء وأن يقوده الى عنوان آخر عينه له . دار الحوذى . وبعد دقيقتين كانت العربة تقف أمام العمارة التى يسكن بها صاحب السعادة . نزل السيد جولياادكين وطلب من الحوذى بكثير من الالحاح ، أن ينتظره . ثم اندفع خافق القلب يصعد السلم . فلما وصل الى الطابق الأول ، شد حبل الجرس ، ففتح الباب ، ووجد بطلنا نفسه فى حجرة المدخل .

ـ هل صاحب السعادة فى البيت ؟

كذلك سأل السيد جولیادکین الخادم . فأجابه الخادم وهو ينظر اليه من قمة رأسه الى أخمص قدميه :

ـ ماذا تريد منه ؟

ـ انما جئت يا صديقى من أجل ... أنا اسمى جوليادكين .. أنا

موظف ، نعم ، أنا الكاتب جوليادكين جئت لأشرح لصاحب السعادة بعض الأمور ...

ـ انتظر لحظة . صاحب السعادة مشغول .

ـ ولكننى لا أستطيع الانتظار يا صديقى . المسألة هامة لا تحتمل أى تأخير .

ـ من أرسلك ؟ هل تحمل أوراقا ؟

ـ لا ياصديقى ، فانما جئت فى زيارة شخصية ... أبلغ صاحب السعادة أننى جئت لشرح بعض الأمور . وسأكافئك يا صديقى ...

ـ مستحيل . لقد مُنعت من ادخال أى انسان . هناك ضيوف . ارجع غدا فى نحو الساعه العاشرة .

ـ أبلغ عنى يا صديقى .. اننى لا أستطيع الانتظار ، فان لم تبلغ عنى كنت مسئولا .

، هيا أبلغ عنه . ماذا يمنعك من ذلك ؟ أأنت خائف على نعليك أن يهترئا ؟

كذلك صاح خادم آخر كان غائصا فى أحد المقاعد ، ولم ينطق قبل ذلك بكلمة واحدة .

ـ المسألة مسألة نعلين حقا ! أنت تعلم أننى مُنعت من ادخال أحد. لا يستقبل أحد الا فى الصباح .

ـ هيا أبلغ عنه . أأنت خائف، أن تبلع لسانك ؟

ـ طيب سأبلغ عنه . ولن أبلع لسانى . ولكننى قلت لك اننى مُنعت من ادخال أى انسان ، مُنعت من ذلك منعا باتا . تعال . ادخل الى هنا .

دخل السيد جوليادكين الى الحجرة المجاورة . وكان على المنضدة ساعة يشير عقربها الى الثامنة والنصف . خفق قلب السيد جوليادكين حتى لقد همّ أن يخرج ، ولكن الخادم كان قد وقف على عتبة قاعة الاستقبال ، وصاح يعلن بأعلى صوته :

« السيد جوليادكين » . قال بطلنا يخاطب نفسه وقد تملكه خوف شديد :

« ما هذا الصوت ؟ ألم يكن فى وسعه أن يبلغ عنى خفية ؟ لقد كان يمكنه أن يقول : ان هذا الرجل يا صاحب السعادة جاء يشرح بعض الأمور متذللا متوسلا .. فهلا تفضلت باستقباله .. أما الآن فان الأمور تجرى مجرى سيئا . لقد غرقت قضيتى فى الماء ... على كل حال ، ليس هذا بشيء ... » . غير أن أوان التفكير قد فات . فهذا هو الخادم يعود فيقول لبطلنا : « أدخل » ، ثم يدخله الى صالون صاحب السعادة .

شعر بطلنا وهو يدخل أنه أصبح أعمى . فهو لا يرى شيئا . كل ما هنالك أنه أبصر قامتين أو ثلاثا أمام عينيه . قال لنفسه : « هؤلاء ضيوف ولا شك . » . واستطاع أخيرا أن يميز نجمة على رداء الفراك الأسود الذى كان يرتديه صاحب السعادة . وبعد رؤية النجمة ، رأى الرداء . وأخيرا عادت الى بطلنا قدرته على الابصار ...

ـ ماذا هنالك ؟

كذلك سأل صوت يعرفه السيد جولیادكين جيدا .

ـ أنا الكاتب جوليادكين يا صاحب السعادة .

ـ وبعد ؟

ـ جئت لأشرح أمرى ؟

ـ كيف .. ماذا ؟

ـ جئت لأراك وأشرح لك أمرى يا صاحب السعادة .

ـ ولكن من أنت ؟

ـ أنا جوليادكين يا صاحب السعادة ، كاتب فى الادارة .

ـ طيب .. وماذا تريد ؟

ـ المسألة يا صاحب السعادة أننى أعدك أبا . أنا لن أثبت وجودى ، أنا سأنسحب . فاحمنى أنت من أعدائى يا صاحب السعادة . هذه هى المسألة .

ـ ما هذا الذى تقوله ؟

ـ أصبح معروفا ...

ـ ما الذى أصبح معروفا ؟

صمت بطلنا . وأخذت ذقنه ترتجف .

سأله صاحب السعادة :

ـ وبعد ؟

ـ كان قصدى أن أقوم ببادرة فروسيه يا صاحب السعادة . أنا أرى من الفروسية أن يعد المرء رئيسه أبا له ... فأنا أرجوك أن تحمينى .. أتوسل اليك ضارعا ذليلا .. ان بادرات من هذا النوع لابد أن تشجـ... أن تشجع ...

أشاح صاحب السعادة وجهه عنه. اضطربت عينا بطلنا برهة. اختنق صدره . أخذ يلهث . بل أصبح لا يعرف أين هو .. كان يشعر بالخجل

والعار . لقد صعق وانهار .. والله وحده يعلم ماذا حدث بعد ذلك . فلما تاب بطلنا الى رشده سمع صوت صاحب السعادة يتكلم . كان صاحب السعادة يكلم ضيفين من ضيوفه فى حرارة وحماسة . وسرعان ما عرف السيد جولیادكين أحد الضيفين : انه آندره فيليبوفتش . ولكنه لم يستطع ان يتعرف الثانى . ومع ذلك فقد بدا له وجهه مألوفا معروفا . انه فارع القامة ، بدين الجسم . وهو يبدو متقدما فى السن . وله حاجبان كثيفان . نظرته قاسية معبرة . وهو يحمل وساما يتدلى من عنقه . كان يدخن سيجارا . السيجار لا يترك فمه . وكان هذا الرجل المجهول يهز رأسه فى وقار وهو يلقى على بطلنا نظرة من حين الى حين . شعر السيد جولیادكين بارتباك شديد . حول عينيه ، فسرعان ما لمح ضيفا آخر عجيبا . ففى فرجه الباب التى كان السيد جولیادكين قد حسبها مرآة حتى ذلك الحين ، تماما كما حدث له ذلك فى المطعم ، ظهر الرجل المعروف جيدا ، الصديق الحميم للسيد جولیادكين . كان الدجال قد مكث حتى ذلك الحين فى حجرة صغيرة مجاورة ، يكتب تقريرا على عجل . كانوا فى حاجة اليه ما فى ذلك ريب ... وها هو ذا يجىء الآن . انه يحمل ملفا تحت ابطه . اقترب من صاحب السعادة ؟ وبانتظار اللحظة التى يلفت فيها أنظار المتخاطبين اليه ، انضم الى الجماعة بمهارة كبيرة . وقف وراء آندره فيليبوفتش تماما ، الى جانب الرجل المجهول الذى يدخن السيجار . كان يبدو على السيد جولیادكين الأصغر أنه يتابع الحديث باهتمام كبير . لقد اتخذ وضعا مناسبا ، فهو يهز رأسه علامة الموافقة والتأييد ، ويحرك قدميه ويبتسم ولا يتحول ببصره عن صاحب السعادة ؟ وكأنه يتوسل اليه أن يتيح له ، هو أيضا ، أن يقول كلمة . قال السيد جولیادكين بينه وبين نفسه وهو يتقدم خطوة الى أمام دون أن يشعر : « يا للعجبان ! » . وفى

هذه اللحظة نفسها ، التفت صاحب السعادة ، واتجه نحو بطلنا . كان يبدو مترددا بعض التردد .

« طيب ، طيب ، انصرف الآن ، والله يرعاك . سأدرس حالتك ، وسآمر بأخذك الى ... » . قال الجنرال ذلك وألقى على الرجل المجهول نظرة ذات دلالة . فرد الرجل على النظرة بحركة من رأسه علامة التأييد. أدرك السيد جوليادكين رأسا أنهم أخطأوا فى معرفة شخصه ، وأنهم يعاملونه معاملة غير لائقة به . قال لنفسه : « لا بد لى من أن أشرح أمرى بطريقة من الطرق . يجب أن أقول له : يا صاحب السعادة ... اليك المسألة ! » . ولكنه تحير وطاش صوابه فغض بصره ، فما كان أشد دهشته حين لاحظ على كل حذاء من حذاءى صاحب السعادة بقعة بيضاء . قال لنفسه : « هل يعقل أن يكون حذاءا صاحب السعادة ممزقين ؟ » . ولكنه لم يلبث أن أدرك أن ما حسبه بقعة لم يكن فى حقيقة الأمر الا تلألؤا . فان الحذائين الملمعين بالشمع كانا يتلألآن تلألؤاً ساطعا ، وذلك هو سبب خطأ السيد جوليادكين . قال بطلنا لنفسه : « هذا ما يسمى حقا بالبريق . ان الكلمة مستعملة كثيرا فى ورشات التصوير . أما فى غير ورشات التصوير فيستعمل اصطلاح آخر ... » .

رفع السيد جوليادكين عينيه ، فأدرك أن عليه أن يتكلم بأقصى سرعة ، والا فان الأمور ستجرى مجرى سيئا ... فتقدم خطوة الى أمام .

ــ اليك المسألة يا صاحب السعادة ، يجب أن أقول لك .. ما من أحد يستطيع فى أيامنا هذه أن يصل الى شيء بالاحتيال والاغتصاب !

لم يجب الجنرال ، واكتفى بأن شد حبل الجرس شدا قويا . فتقدم بطلنا خطوة أخرى الى أمام .

ـ انه رجل جبان لا خلاق له يا صاحب السعادة •

كذلك قال السيد جوليادكين وهو يختنق خوفا وذعرا ، ولا يدرى ماذا يصنع • وفى الوقت نفسه أومأ باصبعه الى سميّه الذى كان يدور حول الجنرال •

ـ نعم يا صاحب السعادة ، اننى أقصد بهذا الكلام شخصا تعرفه••

قامت جلبة عامة شاملة • حرك أندره فيليبوفتش والرجل الذى يدخن السيجار رأسيهما • أمسك صاحب السعادة بحبل الجرس يشده ثم يشده ، وينادى الخادم بلهجة صارمة •

وفى الوقت نفسه تقدم السيد جوليادكين الأصغر وقال : «يا صاحب السعادة ، أتوسل اليك متذللا أن تسمح لى بأن أتكلم » • كانت لهجته قاطعة جازمة • لا شك أن هذا الرجل كان يحس أنه يتصرف تصرفا هو حق من حقوقه •

وقال متجها بالكلام الى بطلنا ، مستبقا جواب الجنرال :

ـ اسمح لى أن أسألك : أأنت تعرف فى حضرة من تتكلم هذا الكلام ؟ أأنت تعرف أمام من تقف الآن ، وفى غرفة من توجد الآن ؟

كان الدجال يبدو منفعلا انفعالاً شديدا • ان وجهه المحمر يشتعل استياء وحنقا وغيظا • حتى لقد ظهرت فى أهدابه دموع •

صاح الخادم ملء حنجرته وهو واقف على عتبة الصالون يعلن عن وصول ضيفين : «السيد والسيدة باسافريوكوف»• فقال السيد جوليادكين لنفسه : « اسم جميل • هى أسرة نبيلة من الأسر الروسية » • وفى تلك اللحظة نفسها شعر بيد تحط على كتفه وتضغط عليها بمودة وصداقة • وما هى الا لحظة حتى كانت يد أخرى تحط على ظهره • كان المحتال

الوقح يتحرك أمامه مشيرا للخادمين الى الطريق التى كانا يدفعان فيها بطلنا. أدرك السيد جوليادكين أنه يقاد نحو أبواب الصالون. قال لنفسه: « هذا عين ما حدث عند أولسوفى ايفانوفتش » . كان قد وصل الى الدهليز . التفت فرأى الى جانبه خادمين من خدم صاحب السعادة و«مثله» الحقير الذى كان يزقزق قائلا : « المعطف ، المعطف ، هاتوا معطف صديقى ، معطف خير صديق لى . . » . وانتزع المعطف من يدى الخادم، فرماه من قبيل المزاح ، المزاح الدنىء الجبان ، على رأس بطلنا . وسمع السيد جوليادكين ، بينما كان يحاول التخلص من المعطف ، سمع قهقهات الخادمين تدوى واضحة متميزة . ولكنه أصبح لا يحب أن يسمع شيئا ، وأصبح لا يولى ما يجرى حوله أى انتباه . خرج من الدهليز ، ووجد نفسه على السلم المضاء . وتبعه « مثله » يصيح وراءه :

ـ الى اللقاء يا صاحب السعادة .

ـ جبان ...

كذلك جمجم السيد جوليادكين .

ـ فلنسلم بأننى جبان .

ـ فاجر عاهر .

ـ فلنسلم بأننى فاجر عاهر ...

بهذا أجاب العدو اللدود الدنىء بطلنا المحترم ، وهو يرشقه من أعلى الدرج بنظرة تفيض غطرسة على عادته . انه يتفرس فيه دون أن يتحرك ، محدقا الى عينيه ، كأنه يريد بوضعه هذا أن يتحداه وأن يستفزه . فما كان من بطلنا الا أن بصق احتقارا واستياء ، وأسرع يهبط السلم ، وخرج الى درجات الباب .

كان قد بلغ من الانهيار والانعدام أنه لم يشعر كيف ركب العربة ، ولا عرف من الذى ساعده فى ركوبها .

فلما عاد الى رشده ، لاحظ أن العربة تسير على طول نهر فونتاكا . قال لنفسه: « لا شك أن الحوذى يقودنى الآن الى جسر اسماعيلوفسكى ». وأراد بطلنا فى هذه اللحظة أن يفكر فى شىء ما ، ولكنه لم يستطع . وكان هذا الشىء مع ذلك أمرا رهيبا لا يتصوره عقل . فما كان منه الا أن خلص من ذلك كله الى أن قال : « لا ضير .. لا بأس .. » . وترك للحوذى أن يقوده نحو جسر اسماعيلوفسكى .

الفصل الثالث عشر

الجو يبدو أنه سيتحسن . فالثلج المبتل الذى كان يهطل غزيرا حتى ذلك الحين أصبح نادرا شيئا بعد شيء، ثم لم يلبث ان انقطع عن الهطول انقطاعا تاما . وأصبح المرء يستطيع أن يرى السماء التى تتلألأ فيها بضع نجوم هنا وهناك . كل ذلك كان يرهق السيد جوليادكين الذى لا يكاد يستطيع أن يتنفس . ان معطفه المبتل ينقل على كتفيه ويبدو انه يبلل أعضاءه برطوبة فاترة ؛ وساقاه المتعبتان تنثنيان تحت وطأة ملابسه المبتلة . ورعشات حمى تسرى فى جسمه كله كأنها بعوض ظامىء كاو . وجسمه المنهد يفرز عرقا باردا مرضيا . وقد بلغ بطلنا من الكمد أنه نسى أن يردد جملته الأثيرة بذلك الحزم القوى المعهود : « ما يزال فى الامكان أن يسوى كل شيء على خير وجه .. » . ومع ذلك استطاع بطلنا أن يتغلب على انهياره وأن يحتفظ بشجاعته فعاد يقول مدمدما : « حتى الآن ليس لهذا كله من قيمة » . ومسح وجهه الذى تسيل عليه قطرات الماء

منهمرة فى كل اتجاه من قبعته المدورة التى بلغت من الابتلال انها أصبحت لا تستطيع ان تحجب المطر . « ليس لهذا كله من قيمة » . كذلك ردد بطلنا القول . وجلس على قطعة ضخمة من الخشب كانت قرب كومة من الحطب فى فناء العمارة التى يسكنها اولسوفى ايفانوفتش . لم يبق مجال الآن لاغنيات غراميه اسبانيه يحلم بها بطلنا . فانما هو يبحث الآن عن ركن صغير مريح بعض الشىء ان لم يكن دافئا جدا ، ركن صغير مظلم يعتصم به . ولنقل عابرين انه كان يغريه كثيرا أن يكون الآن فى تلك الزاوية الصغيرة من دهليز سلم الخدم ، التى لطا فيها قرابة ساعتين ، فى أولى مغامراته ، بين خزانة الملابس والحواجز العتيقة ، وسط أكوام من الأسمال والثياب الرثة والخرق البالية .

ولنذكر أن السيد جوليادكين ينتظر ههنا منذ أكثر من ساعتين ، فى فناء المنزل الذى يسكنه أولسوفى ايفانوفتش . ولنذكر أيضا أن الركن الصغير المريح الذى سبق أن لطا فيه يشتمل الآن على عيوب لم يكن يشتمل عليها فى الماضى . أول هذه العيوب أنه قد لوحظ واكتشف حتما ، فلا بد أنه محروس حراسة جيدة منذ الفضيحة التى وقعت ليلة الحفلة الراقصة . والثانى أن التجاء بطلنا الى ذلك الركن يبعده عن المكان الذى يجب عليه أن يبقى فيه انتظارا للاشارة التى ستأتى من كلارا أولسوفيفنا .

كان بطلنا على يقين من أنها ستنبهه باشارة ما . ذلك محقق لا ريب فيه : « ثم اننا لسنا من أثار هذه القضية كلها ، ولسنا من يجب عليه أن يختمها . » . قال السيد جوليادكين ذلك لنفسه ثم تذكر جزءا من رواية كان قد قرأها منذ زمن طويل ، وفى ذلك الجزء كان الاتفاق بين بطلة الرواية وحبيبها « ألفرد » ، فى ظروف مماثلة لهذه الظروف مماثلة تامة ، أن تنبهه باشارة هى شريط وردى اللون تعلقه على النافذة . أما اليوم ،

فى الليل ، مع هذا الظلام وهذه الرطوبة فى جو سن بطرسبرج ، فليس شريط وردى اللون بإشارة مناسبة ، لذلك ليس على بطلنا ان يتوقع ان يرى شريطا وردى اللون تعلقه حبيبته على النافذة بمثابة اشارة . قال بطلنا لنفسه : « الافضل ان الطو فى ركن من الفناء مظلم مختف ... » . واعتصم فعلا فى ركن من الفناء يقع امام النوافذ قرب كومة من الحطب . لا شك أن حركة الذهاب والاياب لا تنقطع فى هذا الفناء : فثمة حوذيون وخدم يتجولون وسط صرير العجلات وصهيل الخيول ... ولكن المكان مريح مع ذلك . كان السيد جوليادكين قابعا فى الظل ، وليس يهمه كثيرا أن يلاحظه أو أن لا يلاحظه حوذيون . كان يستطيع أن يرى كل شيء فى المنزل ، دون أن يراه من أهل المنزل أحد . النوافذ تسطع بالانوار . لا شك أن فى منزل أولسوفى ايفانوفتش سهرة كبرى . ومع ذلك لا تسمع موسيقى . « ما هى حفلة راقصة ، بل اجتماع من نوع اخر » ؟ كذلك قال بطلنا لنفسه قلقا . ثم تساءل : ولكن هل الموعد المضروب هو هذه الليلة ؟ أليس ثمة خطأ فى يوم الموعد ؟ ذلك جائز . كل شيء جائز ... وأغلب الظن أن ماحدث هو التالى : كتبت الرسالة وأرسلت أمس ، ولكننى لم أستلمها الا اليوم ، بسبب اهمال بتروشكا ، هذا الوغد الدنىء ... أو لعل الرسالة كتبت غدا ... أقصد أن الموعد حدد للغد .. فكان علىّ أن أجىء أنتظرها مع العربة غدا .. » .

تجمد الدم فى عروق السيد جوليادكين حين تصور هذا الاحتمال . ومن أجل أن يتحقق من صدق الافتراض دس يده فى جيبه . فما كان أشد دهشته حين لم يجد فيها الرسالة ! ... تمتم بطلنا يقول وقد كاد ينهد : « ماذا جرى ؟ أين عسانى وضعتها ؟ أترانى أضعتها ؟ » ثم أضاف متنهدا : « آه .. هذا ما كان ناقصا ! .. وما عسى يحدث لو وقعت فى أيدى أعدائى ؟ لعلها وقعت فى أيديهم وانتهى الأمر ! آه ... يارب ! ..

ما الذى سيقع ؟ لسوف يكون هذا فضيحة فظيعة ! آه •• يا للشقاء ••• يا للشقاء الرهيب ! ••• » • وسرعان ما خطر بباله « مثله » ، فأخذ يرتعش كورقة فى مهب الريح • لعل عدوه الدنىء ، حين رمى معطفه على رأسه ، قد انتهز فرصة اضطرابه ليسرق الرسالة التى تسرب اليه نبأها بواسطة أعداء السيد جوليادكين •• قال بطلنا لنفسه : « لا سيما وأنه آلف أن يستولى على الأدلة ••• ولكن فيم الأدلة ؟ ••• » • وبعد أن انتابته نوبة أولى من الذهول والرعب ازدحم الدم قويا عنيفا فى رأس بطلنا • فأطلق صرخة من بين أسنانه ، وأمسك رأسه المحترق بيديه ، وتهاوى على قطعه الخشب الضخمه • وغرق فى التأمل •• دون أن يصل الى تركيز أفكاره • ان وجوها كثيرة تتخاطر الآن أمام عينيه ، غامضة تارة واضحة تارة أخرى ••• وأخذت تتخاطر أمام بصره كذلك أحداث كان قد نسيها منذ زمان طويل ، وأخذت تتوافد على ذاكرته ألحان بعض الأغانى التافهة •• كان فى ذروة الخوف والقلق ، كان فى حالة من الخوف والقلق لا سبيل الى وصفها • « آه ••• يارب ، يارب ! » كذلك أخذ بطلنا يردد ، عائدا الى رشده ، خانقا نشيجا قويا فى حلقه : « يا رب •• يارب ، هب شيئا من القوة والعزيمة لروحى الغارقة فى هوة من الشقاء ليس لها قرار ! لقد ضعت ، لقد تلاشيت ، ما فى ذلك ريب • هذا من طبيعة الأمور • لا يمكن أن يكون الأمر على غير هذا النحو • لقد فقدت وظيفتى •• فقدتها حتما •• ما كان يمكن الا أن أفقدها • طيب ••• فلنفرض الآن أن الأمور يمكن أن تسوى بطريقة من الطرق •• لنفرض أن ما أدخره من مال يكفينى للايام الأولى •• سيكون علىّ أن أستأجر مسكنا آخر ••• ولن أستطيع الاحتفاظ بتروشكا ••• طيب •• فى وسعى أن أستغنى عن هذا الوغد •• سأستأجر غرفة لدى بعض الناس•• ذلك أمر يمكن تدبيره •• وسأستطيع أن أخرج وأن أعود متى شئت •

لن يكون هناك بتروشكا الذى يصعر لى وجهه اذا رجعت فى ساعه متأخرة. هذا ميزة من ميزات السكنى عند آخرين • ذلك شيء معروف • طيب • فلنقل اذن أن الأمور حسنة هكذا • ولكننى ما زلت أتكلم فى شيء آخر، فى شيء آخر تماما ••• » • فى هذه اللحظة برقت فى ذهنه صورة وضعه الراهن • فنظر حواليه ، فأخذ يئن قائلا : « آه ••• يا رب ، يا رب ! آه •• يا رباه ! ولكن فيم كنت أفكر منذ هنيهة ؟ » • كذلك سأل بطلنا نفسه مرهقا متحيرا ، وهو يضغط بيديه رأسه المحموم •

خاطبه صوت من فوقه يقول :

ـ هل فى نيتك أن تمضى قريبا ؟

فارتعش السيد جوليادكين ، ورفع عينيه ، فرأى أمامه الحوذى •• كان الحوذى مبللا هو أيضا حتى العظام ، مرتعد الفرائص • لقد دفعه نفاد الصبر وفراغ الوقت الى أن يلقى نظرة على السيد جوليادكين القابع وراء كومة الحطب •

ـ لا أعرف لا صديقى •• أنوى أن أمضى بعد قليل ، نعم ، بعد قليل ، يا صديقى •• ولكن عليك بشيء من الصبر ••

انسحب الحوذى وهو يدمدم بكلام بين أسنانه • فسأل بطلنا نفسه دامع العينين : « ما له يتململ ؟ لقد استأجرت عربة للسهرة بطولها ••• ويخيل الى أننى لا أتعدى حقوقى ••• أليس كذلك ؟ لقد استأجرته للسهرة كلها وكفى ! ••• والأجر واحد سواء أبقى هنا أم مضى بى الى مكان آخر •• ذلك رهن بارادتى • أنا حر •• اذا شئت مضيت واذا شئت لبثت هنا وراء كومة الحطب •• وهذا لا يعنيك •• ليس من حقك أن تحتج • مولاك يريد أن يبقى هنا وراء كومة الحطب ••• فليبق ما شاء له هواه أن يبقى ••• انه لا يجور على حقوق أحد • نعم •• نعم ••

تماما ••• يجب ان يكون هذا ماثلا فى ذهنك يا انسة ••• اما الكوخ فاعلمى يا انسة انه ما من احد يسكن اكواخا فى هدا الزمان • اعلمى هذا • واعلمى أيضا ان التخلى عن الاخلاق لا حظ له من النجاح فى عصر النور الذى تعيش فيه • وأنت فيه مثال على ذلك ••• انت على ذلك مثال محزن • لقد قدرت الآنسة أننى ساعمل فى أحد المكاتب ، وأننا سنعيش على شاطىء البحر •• فاعلمى اذن يا آنسة أنه ما من مكاتب على شاطىء البحر •• أما أن تجعلى منى رئيسا فذلك أمر يجب أن لا نفكر فيه • طيب •• لنتصور مثلا أننى تقدمت بطلب ومضت أقول :

« اليك هذا الطلب يا سيدى ، فعيّنى رئيس مكتب •• واحمنى من أعدائى » • طيب يا آنسة لسوف يكون الجواب هو التالى : « عندنا عدد كاف من رؤساء المكاتب هكذا • » • وأما أنت يا آنسة فلست الآن عند مدام فالبالا الذى كانت تلقنك دروسا فى الأخلاق أنت الآن خير مثال حى محزن عليها •• الأخلاق تقضى يا آنسة أن تبقى فى المنزل يا آنسة ، وأن تشرفى أباك وأن لاتتسرعى فى نشدان الزواج • سيبحث لك عن خطيب متى آن الأوان • يجب أن تعرفى هذا • طبعا يجب على الفتاة أن تنمى بعض المواهب • من المستحسن أن تتعلم الفتاة العزف على البيانو ، وأن تتكلم الفرنسية ، وأن تعرف التاريخ والجغرافيا بعض المعرفة ، وأن تعرف تاريخ الكنيسة وأن تتعلم الحساب ــ هدا أمر لا جدال فيه ••• ولكن لا ينبغى للفتاة اكثر من ذلك •• ها •• هناك أيضا مسألة المطبخ • ان فن المطبخ يجب أن يكون جزءا من تربية كل فتاة لائقة • والآن فلنعد الى مشروعنا • أولا لن يدعوا لك أن تسافرى يا آنستى الجميلة • واذا هربت فسيلاحقونك • وبعد ذلك يحجرون عليك ، ويضعونك فى دير من الأديرة • فماذا عساك تأمريننى عندئذ ؟ هل يجب على فى هده الحالة ، على غرار بعض أبطال الروايات السخيفة ، أن آتى كل يوم أتأمل من

اعلى أحد التلال المجاورة جدران سجنك المتجمدة ؟ وهل يجب على ازاء هذا المنظر ان انفجر باكيا ، كما تفعل شخصية من شخصيات احد أولئك الشعراء والروائيين الألمان السخفاء ؟ أهذا ما تريدينه يا آنسه ؟ فاسمحي أن الفت نظرك يا آنسة ، على مودة وصداقه ، أولا الى أن القصص التى من هذا النوع لم يبق لهـا رواج عنـدنا ؛ وثانيـا الى أنك أنت وأبويك تستحقون بضع ضربات جزاء هذه الرويات الفرنسية التي قرأتموها والتى أعطيت لك من أجل أن تقرئيها •• اعلمى أن هذه الروايات الفرنسـية لا تعلم شيئا خيـرا •• فليس فيهـا الا سم •• ليس فيهـا الا سم زعاف يا آنسة • لعلك تتصورين أن في وسعنا ان نهرب فلا ينالنا عقاب ، وأن نمضى نعتصم فى كوخ على شاطىء البحر •• حتى اذا صرنا هنالك أخذنا نهدل هديل الحمام ، وتتساقى عواطف الحب ، وقضينا حياتنـا سـعيدين يغمرنا الفرح وتشيع في قلوبنا البهجة •• وربما تصـورت الى ذلك أن يولد لنا فرخ صغير ، عصفور جميل •• فنمضى نقول لأبيك ، مستشار الدولة أولسوفى ايفانوفتش : « هـذا عصفورنا الجميـل ، فانس غضبك علينا وباركنا يا أبتاه ! » •• لا يا آنسة •• أعود فأقول لك : لا يا آنسة ما هكذا يكون التصرف السـليم ! ••• أما أحاديث الهـوى والغرام فلا تعوّلى عليها ياآنسة • الزوج فى أيامنا هذه سيد يا آنسة • وعلى الزوجة الشريفة التى أحسن تأديبها أن تحاول جعل حياته ناعمة رضية بجميـع ما تملك من وسائل • فى عصر التقدم الذى نعيشه الآن لا يحرص أحد على مظاهر العاطفة الرقيقة والحنان الشديد يا آنسة • لقد ولى عصر جان جاك روسو• عصرنا غير ذلك العصر • الرجل فى عصرنا يعود من عمله فاذا كان جائعا قال لزوجته : « يا عزيزتى أحب أن آكل لقمة أسكت بها جوعى ، أحب أن آكل قطعـــة من السمك المدخن مثلا ، مع قدح من الفودكا • » • فعليك اذن يا آنسة أن تكونى متأهبة فى كل لحظة لتقـديم

شيء من السمك المدخن ومن الفودكا لزوجك متى طلب اليك ذلك . وهذا زوجك يقبل على طعامه يأكله حتى دون أن يرمقك بنظرة يا آنسه وانما هو يكتفى بأن يقول لك : « هيا اذهبى الى المطبخ ، فحضرى طعام العشاء يا عزيزتى . » . سقبلك مرة فى الأسبوع ، ولن يكون فى قبلته كثير من الهوى المتأجج يا عزيزتى . ذلك ما يحدث اليوم يا آنسة . نعم، أعود فأقول لك : هى قبلة قصيرة ليس فيها هوى متأجج . هذا ما سيحدث لك ، اذا نحن أردنا أن نحسن التفكير ، اذا نحن أردنا أن نرى الأشياء كما هى. وما شأنى أنا فى هذا كله ؟ لماذا تجعليننى شريكا لك فى نزواتك الخياليه يا آنسة ؟ أنت تدعين طبعا أننى « رجل كريم مخلص عزيز على قلبك ... » . ولكن اعلمى أولا يا آنسة أننى لم أخلق لك . فما أنا بالرجل الحاذق فى فن الملاطفة والمجاملة ، وأنت تعرفين ذلك حق المعرفة
. . اننى أكره السفاسف المعطرة الصغيرة التى يزجيها الرجال للسيدات
. . اننى لا أصلح لأن أمثل دور العاشق الموله .

« ثم ان شكلى نفسه لا يصلح لذلك . فلن تجدى فىَّ لا حبا فى الظهور ولا طموحا ولا نفاقا يا آنسة .. اننا نعترف لك بذلك صادقين كل الصدق مخلصين كل الاخلاص ! ، نعم ، هكذا نحن ! ان لنا طبعا مستقيما وفكرا سليما . والمكائد لا تعنينا البتة . لست بالرجل الماكر ، وأنا بهذا فخور . تلك هى الحقيقة . اننى لا أضع على وجهى قناعا حين أكون بين أناس شرفاء . والخلاصة هى أن ...

ارتعش السيد جوليادكين فجأة . ان لحية الحوذى ، الحمراء المبللة ، قد ظهرت له مرة أخرى من فوق كومة الحطب .

قال السيد جوليادكين للحوذى متأتئا :

ـ سآتى حالا يا صديقى ، نعم يا صديقى ، أنا آت حالا .

حك الحوذى نقرته ، وطاف بيده على لحيته ، وتقدم خطوة الى أمام ، ثم وقف ونظر الى السيد جوليادكين نظرة تفيض شكا وحذرا ! •

أنا آت يا صديقى • أنا آت • علىّ أن أنتظر قليلا أيضا • لحظة واحدة يا عزيزى الشهم •• هل فهمت يا صديقى ؟

قال الحوذى أخيرا وهو يقترب من بطلنا حازما :

ـ أليس فى نيتك أن تغادر هذا المكان ؟

ـ بل أنا آت يا صديقى أنا آت • اننى أنتظر قليلا يا صديقى •• أرأيت ؟

ـ رأيت •

ـ أرأيت يا صديقى ؟ يجب علىّ •• بالمناسبة : من أية قرية أنت يا عزيزى ؟

ـ لقد ولدت فى منزل أسيادى ؟

ـ هل هم أسياد طيبون ؟

ـ والله ••

ـ طيب يا صديقى • ابق هنا برهة يا عزيزى • أأنت فى سان بطرسبرج منذ زمن طويل ؟

ـ منذ سنة •

ـ أأنت مسرور بها راض عنها ؟

ـ والله ••

— طيب يا صديقي ، طيب . يجب علينا أن نحمد الله على ذلك يا عزيزى . اليك هذه النصيحة يا صديقى : ابحث دائما عن الناس الطيبين . لقد أصبحوا قلة فى هذا الزمان يا عزيزى . الرجل الشهم الشريف يوفر لك شرابك وطعامك ، ويعتنى بك ، ويغسلك . أرأيت يا صديقى ؟ رب دموع تظهر أحيانا وسط الذهب . رب انسان يبكى رغم ثرائه . وأمامك الآن مثال محزن على هذه الحقيقة . أرأيت كيف تجرى الأمور يا عزيزى ؟

بدا على الحوذى أنه يشعر نحو السيد جوليادكين بشفقة . قال :

— طيب . سأنتظرك . أأنت باق هنا مدة طويلة ؟

— لا يا صديقى ، لا .. هل تعرف ؟ لقد بدأ صبرى ينفد منذ الآن يا عزيزى . لم يبق فى نيتى أن أنتظر طويلا .. ما رأيك يا صديقى ؟ اننى أثق بسلامة رأيك وصدق حكمك . أحسب أنه لا فائدة من الانتظار هنا ...

— اذن فأنت عدلت عن السفر .

— نعم يا صديقى نعم . ولكننى سأعطيك مكافأة حسنة مع ذلك . هذا وعد . كم علىّ لك يا صديقى الشهم ؟

— ما وعدتنى به يا سيدى . لقد انتظرت مدة طويلة يا سيدى . لا أظن أنك ترضى لى غبنا يا سيدى .

— خذ هذا لك يا عزيزى . خذ ...

أعطى السيد جوليادكين الحوذى الروبلات الستة الموعودة . لقد قرر قرارا حازما أن لا يضيع وقته سدى . انه يريد الانصراف مهما كلف الأمر . ثم ان الجسور مقطوعة الآن . لقد صرف الحوذى . ولم

يبق ثمة أى سبب يدعوه الى الانتظار . خرج من الفناء ، وتجاوز باب الدخول ، ودار نحو اليسار . ثم أخذ يركض مشرق الوجه لاهث الأنفاس لا يلوى على شىء ، ولا يلتفت الى وراء . قال لنفسه : « ما يزال فى الامكان أن يسوى كل شىء على خير وجه . أما أنا فقد تفاديت بهذه الطريقة مصيبة كبرى . » .

والحق أن السيد جوليادكين قد شعر فجأة بهدوء وطمأنينة ، وشعر بارتياح وتخفف . وتنهد يقول : « آه .. شريطة أن يسوى كل شىء على خير وجه » ، دون أن يجرؤ مع ذلك على الاعتقاد بأن كل شىء سيسوى على خير وجه . وأردف يخاطب نفسه : هذا ما سأفعله ... لا بل الأفضل أن ... أو يمكن مع ذلك أن ... بل هذا ما يجب أن أفعله ...

وفيما هو يستطرد هذا الاستطراد محاولا أن يخرج من حالة الشك والتردد التى هو فيها ، وصل بطلنا الى جسر سيميونوفسكى . فلما صار هنالك اتخذ هذا القرار الحكيم العاقل ، وهو أن يعود أدراجه . قال لنفسه : « هذا أفضل .. من مصلحتى أن أتخذ هذا الموقف ، موقف المشاهد المحايد .. المشاهد لا أكثر .. سأكون مجرد مشاهد ، مشاهد غريب عن هذه القضية كلها . ومهما يحدث ، فسأظل خارج القصة ، لا أُسأل عن شىء .. ذلك ما يجب علىَّ أن أفعله بعد الآن ... » .

حتى اذا اتخذ بطلنا هذا القرار قفل راجعا . ان هذه الفكرة الموفقة ، وهى أن يتخذ فى المستقبل موقف المشاهد ، قد عززت ثقته وطمأنينته . فأخذ يردد قوله : « هذا أفضل ... هذا أفضل ... لن أكون مسئولا عن شىء ، وفى الوقت نفسه أشهد كل شىء ... نعم ... هذا خير حل ولا جدال ... » .

عاد السيد جوليادكين يقبع وراء كومة الحطب. وقد اطمأن كل الاطمئنان .. انه ملجأ مريح يعصم من كل سوء . وركز انتباهه على النوافذ . ولم يطل نظره وانتظاره هذه المرة . فما هى الا برهة قصيرة ، اذ باضطراب غريب يظهر وراء جميع النوافذ بمسكن أولسوفى ايفانوفتش . هذه وجوه تظهر ، وهذه هى الستائر تزاح . وها هم الضيوف يهرعون جماعات يحتشدون على زجاج النوافذ . كان يبدو عليهم جميعا أنهم يبحثون عن شىء فى الفناء . ظل السيد جوليادكين معتصما وراء كومة الحطب يراقب بانتباه واستطلاع ، حركات هؤلاء الناس . وهو يمد رأسه تارة الى يمين وتارة الى شمال ، بمقدار ما كان الظل الذى ترخيه عليه كومة الحطب يسمح له بذلك . وفجأة تجمد الدم فى عروقه ؛ وارتعش ارتعاشا شديدا ، وكاد يسقط مغشيا عليه من فرط الذعر . لقد أحس فجأة أنهم لا يبحثون عن أى شىء ، بل يبحثون عنه هو ، هو السيد جوليادكين . كانت جميع الأنظار مصوبة نحوه ... وكان يستحيل عليه أن يهرب . ولو هرب لاستطاعوا أن يقبضوا عليه .. تجمد من فرط الرعب ، وتجمع على نفسه ، وشد جسمه الى الأحطاب وأدرك فى تلك اللحظة نفسها أن الظل الخائن قد أخذ يفضحه ، فهو لا يستر كل جسمه . ما أشد ما كان يفرحه فى تلك اللحظة أن ينقلب الى فأرة حتى يستطيع التسلل بين الأحطاب ، فيختفى فيها هادئا مطمئنا. آه .. ليت هذا كان ممكنا ! ولكنه مستحيل وا أسفاه ! وقرر بطلنا أخيرا، وقد تملكه أشد الرعب ، أن يرفع عينيه وأن ينظر الى النوافذ . قال لنفسه : هذا أفضل .. ولكن ما هى الا لحظة واحدة حتى كان متلاشيا تلاشيا كاملا . انه الآن يحترق شعورا بالعار . لقد أدرك أنهم اكتشفوه. نعم لقد عرفوه . عرفوه جميعا ، فهم جميعا يلوحون له بأيديهم ؛ هم جميعا

ينادونه . وسمع صرير النوافذ وهى تفتح . وسمع أصواتا تهتف له بكلام ...

دمدم بطلنا يقول وقد بلغ ذروة اليأس : « يدهشنى أنهم لم يجلدوا هاته البنات بالسوط منذ الطفولة ! .. » . وفجأة ظهر « الرجل » (والقارىء يعلم من « هو ») على درجات المدخل . كان بغير قبعة ، وبغير معطف . وكان يبدو أنه يلهث . هبط الدرجات وأسرع نحو السيد جوليادكين ، نشيط الحركة متواثب الخطى ، مظهرا أشد الفرح بلقاء صديقه الحميم .

قال الرجل التافه مزقزقا :

ـ ياكوف بتروفتش ! أأنت هنا ؟ أخشى أن يصيبك برد يا ياكوف بتروفتش . الجو هنا صقيع . تعال ادخل الى البيت .

فأجاب بطلنا بصوت مذعن :

ـ لا ... ما هذا بشىء يا ياكوف بتروفتش ، ما هذا بشىء !

ـ ولكن .. مستحيل.. يا ياكوف بتروفتش. انهم ينادونك ، انهم يدعونك اليهم باحترام ، انهم ينتظرون حضورك بشوق . لقد قالوا لى : « من فضلك ائتنا بياكوف بتروفتش . » .

غمغم السيد جوليادكين يقول ، محترقا متجمدا فى آن واحد ، محترقا من الشعور بالعار ، ومتجمدا من الشعور بالذعر :

ـ لا يا ياكوف بتروفتش .

قال الرجل الكريه بصوت يزقزق :

ـ نينى نينى ! .. مستحيل ..

ثم أضاف بصوت آمر وهو يجر بطلنا نحو باب المدخل :

ـ هيا .. تعال ..

أراد السيد جوليادكين أن يقاوم ، ولكن بدا له أن من غير اللائق أن تنشب بينه وبين الرجل مشاجرة على مرأى من جميع الضيوف . فتقدم . لا نستطيع أن نقول انه كان يمشى ، لأنه كان هو نفسه لا يعلم ماذا يصنع وما الذى يجرى . ثم ان هذا كله لا قيمة له .

وقبل أن يثوب الى رشده وأن يسترد شعوره وجد نفسه فى وسط قاعة الاستقبال الكبرى . كان شاحب الوجه ، مشعث النياب ، منفوش الشعر ، زائغ البصر . ألقى على الحضور نظرة شاملة . يا للهول ! كانت القاعة والغرف المجاورة مكتظة بالناس .. رجالا ونساء . وها هم أولاء جميعا يخفون اليه ويتقدمون نحوه ويحتشدون حوله ، فاذا بهذا البحر المائج الهائج من البشر يدفع بطلنا الى ركن من القاعة . وأدرك هو ذلك . وبرقت فى ذهنه فكرة : « انهم لا يدفعوننى نحو الباب ... » . والحق أنهم لم يكونوا يدفعونه نحو الباب ، بل نحو المقعد المريح الذى كان يجلس عليه أولسوفى ايفانوفتش هادئا . وقرب المقعد رأى بطلنا كلارا أولسوفيفنا .

كانت شاحبة الوجه تبدو حزينة متعبة رغم تألق زينتها . وانتبه بطلنا ، خاصة ، الى الأزهار الصغيرة البيضاء التى كانت مغروسة فى شعرها الاسود .. انه لمنظر جميل . والى الجانب الآخر من المقعد رأى بطلنا فلاديمير سيميونوفتش مرتديا رداء فراك أسود على عروته وسامه الجديد . اقتيد السيد جوليادكين الى أمام أولسوفى ايفانوفتش . كان يمسكه من احدى بديه سميُه الذى اصطنع لهذه المناسبة هيئة الوقار والرصانة ، وهذا أمر سر له بطلنا كثيرا ؛ ويمسكه من اليد الأخرى آندره فيليبوفتش الذى كان وجهه يعبر عن الأبهة والفخامة .

تساءل بطلنا : ما معنى هذا كله ؟ » ولكنه حين أدرك أنهم يقودونه

الى امام آولسوفى ايفانوفتش أشرفت فى ذهنه فكرة • لقد خطرت بباله الرساله المسروفة ••• وهاهو ذا الان آمام مقعد أولسوفى ايفانوفتش •

تساءل بطلنا وقد تملكه غم لا سبيل الى التغلب عليه : « ماذا يجب علىّ ان افعل ؟ ينبغى آن اتخذ موقفا فيه كبرياء ، موقفا صريحا فيه نبل وفيه رفعة • ومع ذلك علىّ آن آقول : هذه هى القضية أيها السادة •••

غير ان الامر الذى كان يخشاه كثيرا لم يحدث فى الواقع • فقد استقبله اولسوفى ايفانوفتش استقبالا لطيفا • ولئن لم يمد له يده مصافحا فقد نظر اليه طويلا وهو يهز رأسه الاشيب المهيب • هز راسه بوقار وجلال ، ولكن هيئته لم تكن تخلو من لطف وتودد • ذلك كان شعور بطلنا على الأقل • حتى لقد تراءى لبطلنا التماع دمعة فى عين الشيخ المضطربة • وحين رفع السيد جوليادكين عينيه تراءت له كذلك دموع على أهداب كلارا أولسوفينا • وظهر له فلاديمير سيميونوفتش متأثرا أشد التأثر أيضا • وحتى آندره فيليبوفتش الذى ظل وقورا رصيناً لاتبدو عليه ملامح الاضطراب ، كان وضعه يدل على شىء من شفقة يشعر بها نحو بطلنا • أما الفتى الذى ألمعنا اليه حين تحدثنا عن الحفلة الراقصة ، وقلنا عنه انه يشبه كل الشبه مستشارا من مستشارى الدولة ، فقد انتهز فرصة هذا الانفعال العام الشامل فانفجر باكيا فى نشيج مسموع ••• على أن هذا كله ربما كان وهما من أوهام الحواس لدى بطلنا • لقد كان هو نفسه يبكى ويحس بدموعه تجرى سخية على خديه الباردتين كالصقيع • وبصوت يقطعه النشيج أراد أن يخاطب حاميه القديم وأن يفتح له قلبه •

هو يشعر الآن بأنه تصالح مع الانسانية بأسرها ومع قدره ذاته • انه يحس بالحب يملأ جوانحه ، لا بالحب للشيخ الوقور فحسب ، بل لجميع ضيوفه أيضا ، وحتى لسميّه الشرير الذى أصبح لا يرى الآن أنه

سميّه ولا أنه شرير ، بل انسان عادى محبب لطيف . أراد السيد جولیادكين أن يكلم أولسوفى ايفانوفتش ، ولكن ازدحام نفسه بالمشاعر حال بينه وبين ذلك . فلم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة ، واكتفى بأن وضع يده على قلبه بحركة عريضة ذات دلالة ... ومن أجل أن يوفى آندره فيليبوفتش الشيخ الحساس من الانفعالات العنيفة قاد بطلنا الى ركن من القاعة وتركه فيه ، لكنه ترك له حريه مطلقة . وهذا بطلنا يشق لنفسه طريقا بين الجمهور الكثيف وهو يبتسم ويدمدم بكلام بين أسنانه. ان الأحداث قد حيرته ، ولكنه يشعر بأنه تصالح مع البشر والقدر تصالحا كاملا . وها هو ذا يتقدم . وها هم الناس يصطفون فى طريقه صفين ، وهم ينظرون اليه نظرة استطلاع غريب وشفقة عجيبة .

وصل بطلنا الى غرفة مجاورة . فاستقبل فيها بمثل هذا الترحيب. وكان يشعر شعورا غامضا بأن جمهرة كبيرة تسير وراءه صفا . كان يحس أن الناس تراقب كل حركة من حركاته وكل اشارة من اشاراته . وكان يسمعهم يتجادلون خفية فى أمرٍ هو على جانب عظيم من خطورة الشأن. كان يراهم يتكلمون ويحركون رءوسهم ويتهامسون ويعارض بعضهم بعضا ويشتجر بعضهم مع بعض اشتجارا حادا ... تمنى لو يعرف فيم يتناقشون ولماذا يتهامسون ويتشاجرون . والتفت فرأى سميّه الى جانبه . فشعر فجأة برغبة جارفة فى أن يمسك يد هذا الرجل وأن ينتحى به جانبا . وكذلك فعل . رجاه أن ساعده فى جميع الظروف المقبلة ، وأن لا يتركه أبدا فى لحظة حرجة هذا الحرج . فهز السيد جولیادكين الأصغر رأسه بوقار وصافح يد بطلنا ، فشعر بطلنا بقلبه يخفق خفقانا شديدا ويكاد يختنق من فرط الانفعال . كان بطلنا يلهث ويحس أنه مسحوق من كل جهة ، ولا يطيق احتمال جميع هذه النظريات التى تخترقه وتلتهمه وتلاشيه .. ولاحظ السيد جولیادكين ، عرضا ، المستشار الذى

يضع على رأسه شعرا مستعارا، فحدجه المستشار بنظرة قاسية فاحصة لاتتفق وعطف سائر الآخرين .. أراد السيد جوليادكين أن يذهب اليه ، أن يبتسم له ، أن يكاشفه بكلمة . ولكنه لم يستطع. ونسى الواقع خلال لحظة، وفقد الذاكرة والشعور .. فلما ثاب الى رشده لاحظ أنه كان يطوف فى وسط حلقة عريضة من الضيوف. وفجأة نادى أحدهم من الغرفة المجاورة صائحا : السيد جوليادكين . كانت صيحة مباغتة تجاوزت الجموع . فتحرك جميع الناس فى صخب واضطراب ، وأسرعوا نحو أبواب الصالون الأول ، وكادوا يحملون اليه السيد جوليادكين حملا . كان المستشار الذى يضع على رأسه شعرا مستعارا والذى يملك قلبا بغير رحمة، كان قرب السيد جولادكين . وتناول المستشار يد السيد جوليادكين وأجلسه الى جانبه ، أمام مقعد أولسوفى ايفانوفتش ، ولكن على مسافة منه من قبيل الاحترام . وأحاط الضيوف بالسيد جوليادكين وأولسوفى ايفانوفتش صفوفا عدة ، وجلسوا حولهما، صمتوا وهدأوا . كان السكون مطبقا . انهم ينظرون الى أولسوفى ايفانوفتش وكأنهم يتوقعون حدثا هاما. ولاحظ السيد جوليادكين أن السيد جوليادكين الآخر وآندره فيليبوفتش قد جلسا الى جانبى مقعد أولسوفى ايفانوفتش ، أمام المستشار ... وطال الصمت . انه الانتظار .

قال بطلنا لنفسه : « هكذا فى الأسر حين يكون على أحد الأقرباء أن يسافر فى رحلة بعيدة . لم يبق الآن الا أن ينهضوا ويصلوا . » . غير أن خواطره سرعان ما قطعها تحرك الضيوف . فها هم أولاء يرددون جميعا : « لقد وصل ... لقد وصل ... » . ولكن لم يبد على أحد أنه دهش .

تساءل السيد جوليادكين وقد هزه احساس غريب ، ارتعش له : « من ذا الذى وصل ؟ » .

قال المستشار الذى يضع على رأسه شعرا مستعارا وهو ينظر الى آندره فيليبوفتش بانتباه : « حان الوقت » . فما كان من آندره فيليبوفتش الا أن رفع عينيه نحو أولسوفى ايفانوفتش ، فهز الشيخ الوقور رأسه برصانة علامةَ الموافقة . قال المستشار وهو ينهض السيد جوليادكين :

— قوموا .

فقام جميع الناس . وتناول المستشار يد السيد جوليادكين الأكبر . وكذلك فعل آندره فيليبوفتش بالسيد جوليادكين الأصغر . وسار الموظفان بالتوأمين متقابلين وجها لوجه ، سيرا هادئا وقورا ، وسط الجمهور المنتبه القلق . وطاف بطلنا ببصره المدهوش على ما حوله ، ولكن سرعان ما نُبِّه الى ضرورة المحافظة على النظام ، اذ نُبِّه الى سميِّه الذى كان يمد له يده .

« انهم يريدون المصالحة بيننا » ، كذلك قال بطلنا لنفسه ومد يده هو أيضا فى رقة وحنان ؛ ثم مد رأسه بعد يده .. وكذلك فعل سميُّه .

خيل الى بطلنا أن صديقه الغدار كان يبتسم له ، ويغمز المشاهدين الذين كانوا يحيطون بهما غمزاً وقحاً . نعم ، تراءى لبطلنا فى وجه الدجال الدنىء تعبير سىء لا يبشر بخير ، فلقد صعر الخائن خده فى اللحظة التى كان يهم فيها أن يقبل صاحبه قبلة يهوذا .

وسمع السيد جوليادكين قرع أجراس يدوى فى رأسه . وزاغت نظراته واضطربت عيناه . وخيل اليه أنه يرى جمهرة ضخمة من أشخاص هم جميعا جوليادكين تظهر فجأة فى القاعة متشابهة كل التشابه متماثلة كل التماثل ، تتدفق من جميع الأبواب فى لحظة واحدة .. ولكن كان الأوان قد فات .. فان القبلة المدوية الخائنة الغادرة كانت قد أخذت أصداؤها ترجع .

وهنا وقع حادث لم يكن فى الحسبان .. فقد انفتح مصراعا باب

الدخول مقرقعين ، فاذا برجل يظهر على العتبة ، واذا بالسيد جوليادكين يتجمد فى مكانه من فرط الذعر حين يراه. تسمرت قدما السيد جوليادكين على الأرض . واختنقت فى حلقه المنقبض صرخة رعب .

يجب أن نقول مع ذلك ان السيد جوليادكين كان قد تنبأ بهذا كله منذ زمن طويل . لقد سبق أن أوجس هذا الموقف . تقدم الرجل مهيبا وقورا ذا أبهة وجلال . ان بطلنا يعرف هذا الوجه حق المعرفة . لقد رآه مرارا كثيرة ، رآه فى هذا اليوم نفسه . كان الرجل فارع القامة بدين الجسم . وكان يرتدى رداء أسود . وكانت عنقه تزدان بصليب كبير . كان لا ينقصه الا سيجار بين شفتيه ، حتى يكون الشبه كاملا .. ان نظرته ، كما قلنا ، قد جمدت السيد جوليادكين ذعرا ورعبا . اقترب من بطلنا المسكين رصيناً ذا فخامة وأبهة . مد اليه السيد جوليادكين يده: فتناول الرجل اليد الممدودة اليه ، وجر بطلنا الشقى وراءه . نظر بطلنا فيما حوله متحيرا قلقا مشوه الوجه من الذعر .

« انه كريستيان ايفانوفتش روتنشبتس ، دكتور فى الطب والجراحة. هو صديقك القديم يا ياكوف بتروفتش » ؟ كذلك زقزق يقول صوت كريه فى أذن بطلنا . فالتفت بطلنا ، فرأى أن الشخص الذى كلمه لم يكن الا سميّه الدنىء ذا النفس الحقيرة الخوانة الغدارة . كان وجهه يتألق فرحا ، فرحا عاتيا مشئوما . وكان يفرك يديه منتشيا ، ويدير رأسه فى جميع الجهات مرحا ، وينتقل بين الناس مفتتنا منتصرا . كان مستعدا لأن يرقص من فرط الحماسة .

ووثب فجأة الى أمام ، فانتزع شمعة من يد أحد الخدم وتقدم يضىء الطريق لكريستيان ايفانوفتش والسيد جوليادكين اللذين تبعاه يسيران خلفه .

وسمع بطلنا وقع خطوات المشاهدين جميعا يسيرون وراءهما موكبا كبيرا . كانوا يغذون الخطى ، ويدوس بعضهم بعضا ، ويرددون جميعا أقوال الدجال جوقة كبيرة واحدة : « لا تخف يا ياكوف بتروفتش ... ما هذا بشىء .. هو صديقك القديم ، هو صاحبك القديم كريستيان ايفانوفتش روتنشبتس . » .

وخرجوا الى الدهليز ، ثم الى السلم المضاء اضاءة ساطعة . واندفع جمهور غفير الى السلم . انفتح باب مدخل العمارة مقرقعا . ووجد السيد جوليادكين نفسه على درجات المدخل يصحبه الطبيب . وكانت تقف فى الفناء مركبة تجرها أحصنة أربعة كانت تكدف من نفاد صبرها . وبوثبات ثلاث صار الدجال الكريه أمام العربة يفتح بابها . وأشار كريستيان ايفانوفتش الى بطلنا باشارة مقنعة أن يركب العربة . والحق أن اقناع بطلنا لم يكن بذى فائدة . فهناك عدد كاف من الناس ليحمله اليها حملا .

التفت السيد جوليادكين وهو يهذى رعبا وذعرا . كان السلم المضاء يعج بالناس . وهذه عيون مستطلعة تحدق اليه من كل جانب . وهذا أولسوفى ايفانوفتش نفسه يرأس الاحتفال من على فسحة السلم فى الطابق الأول . كان جالسا على مقعده ، مقعد المشلول ، يتأمل المشهد فى انتباه وشفقة . وكان جميع الناس ينتظرون . فلما التفت بطلنا سرت فى الحشد دمدمة تدل على التململ ونفاد الصبر .

« أرجو أن لا يكون فى هذا كله ما يبعث على لوم .. أو ما يثير القسوة ويلفت الىّ انتباه كافة الناس ... فيما يتعلق بحياتى العامة » بهذا دمدم بطلنا وقد أعيته الحيلة واضطرب اضطرابا شديدا . وقامت من حوله ضوضاء صاخبة . هؤلاء أناس يهزون رءوسهم علامة الاستنكار . وانبجست دموع من عينى السيد جوليادكين .

« اذا كان الأمر كذلك فأنا موافق ... اننى أعهد بمصيرى كله الى كريستيان ايفانوفتش» ، كذلك قال جوليادكين ، فما ان نطق بهذه الاقوال التى يعبر بها عن انه يضع مصيره بين يدى كريستيان ايفانوفتش ، حتى أطلق جميع الشهود صيحات وصرخات رهيبة تصم الآذان ، هى صرخات فرح وانتصار . وسرى صدى هذه الصرخات فى الحشد كله .

امسك كل من كريستيان ايفانوفتش واندره فيليبوفتش باحدى ذراعى السيد جوليادكين ، وأخذا يركبانه العربة . وكان سميُّه يدفعه من خلف على عادته الجبانة . ومرة أخيرة ، التفت السيد جوليادكين المسكين الى وراء ، وأجال بصره فى الحضور . فأحس برعدة تسرى فى أعضائه كلها ، كهرة صغيرة سكب عليها قادوس كبير من ماء بارد ، اذا سُمح لنا بهذا التشبيه . وصعد العربة . فسرعان ما تبعه كريستيان ايفانوفتش . فأغلق عليهما الباب . وسمعت قرقّعة السوط على خواصر الأحصنة التى تحركت تجر المركبة ... وهرع جميع الناس وراء العربة .

ان الصرخات المسعورة التى يطلقها جميع أعدائه تشيع رحيله . وظل بضع لحظات يميز بعض الوجوه حول بابى العربة التى تقله .

ولكن أعداءه أصبحوا بعيدين شيئا بعد شىء . فأصبح لا يرى أحدا منهم ، الا سميّه الدنىء الذى لبث يرافق العربة مدة أطول . كان يركض على يسار العربة واضعا يديه فى جيبى سرواله الأخضر من ردائه الرسمى . وتشبث بالعربة عدة مرات يرسل قبلات فى الهواء الى صديقه التعيس من قبيل الوداع .

ولكن التعب غلبه آخر الأمر . فأصبح ظهوره أندر فأندر الى أن غاب غيابا تاما .

ان ألما أصم يخنق قلب السيد جوليادكين ، وان دمه الذى يغلى

ويفور ينبض فى صدغيه نبضا قويا . كان يلهث مختنقا . ود لو يفك أزرار سترته ، ود لو يعرى صدره ، لو يدلكه بالثلج ، لو يرشه بماء بارد . ولم يلبث أن غاب عن وعيه غيابا كاملا ... فلما ثاب الى رشده لاحظ أن العربة كانت تجرى على طريق لا يعرفه . ان على شماله ويمينه غابات . والبرية خالية مقفرة قاحلة ... وانهار فجأة حين لاحت له عينان من لهب تحدق اليه فى الظلام ، عينان يشرق فيها فرح جهنمى مشئوم .

« ليس هذا كريستيان ايفانوفتش . من عسى يكون هذا ؟ أيكون «هو» ؟ «هو» ؟ لا ... انه كريستيان ايفانوفتش ، ولكنه كريستيان ايفانوفتش آخر ... انه كريستيان ايفانوفتش مرعب .

قال بطلنا بصوت وجل مرتجف مرتعش ، محاولا بطواعية ومذلة أن يرق له قلب الطبيب الرهيب :

ـ كريستيان ايفانوفتش .. أنا لم أصنع شيئا .. يخيل الىّ أن ..

فقاطعه كريستيان ايفانوفتش يقول :

ـ سيكون لك حق فى مسكن بالمجان ، مع تدفئة واضاءة وخدمة ، وذلك كله لست جديرا به ولا أنت تستحقه .

دوى جوابه القاسى فى أذنى بطلنا دوى حكم لا رحمة فيه . أطلق السيد جوليادكين صرخة ، وأمسك رأسه بيديه . وا أسفاه ! لقد تنبأ بهذا كله منذ زمن طويل .

قلب ضعيف

١٨٤٨

« قلب ضعيف » (Slaboë Serotsé) *
نشرت هذه القصة فى « حوليات
الوطن » ، المجلد ٥٦ ، فى شهر
شباط (فبراير) ١٩٤٦

صديقان

شابان ، موظفان فى ادارة واحدة ، كانا يقيمان معا فى الطابق الثالث من احدى العمارات • أحدهما اسمه أركادى ايفانوفتش نيفيديفتش ، والثانى اسمه فاسيا شومكوف •••

ان كاتب هذه القصة يشعر طبعا بأن عليه أن يشرح للقارىء لماذا كانت احدى شخصيتيه تسمى باسمها الكامل ، بينما لا يطلق على الشخصية الثانية الا اسم تصغير ، وهو يشعر أن عليه أن يفعل ذلك حتى يتحاشى على الأقل أن يؤخذ عليه أنه يتصرف تصرفا غير لائق • وسوف يكون عليه ، فى هذه الحالة ، أن يعين لكل شخصية من هاتين الشخصيتين رتبتها ، ثم سنها ، ولقبها ، ووضعها ، وحتى طبعها •••

ولكن كاتب هذه القصة يسمح لنفسه بأن يدخل فى الأحداث رأسا (وهذا يدل طبعا فى نظر بعض الناس على أنانية مفرطة) ، فها هو ذا بعد هذا التمهيد يبدأ قصته ، وتلك طريقة يعمد اليها كثير من الكتاب على كل حال •

عشيةَ عيد رأس السنة ، عاد شومكوف الى بيته فى نحو الساعة السادسة من المساء • فاستيقظ أركادى ايفانوفتش الذى كان راقدا على سريره ، ونظر الى صديقه من خلال عينيه نصف المغمضتين ؛ فرأى أنه مرتد أحسن حلة ، وأنه لابس قميصا نظيفا غاية النظافة • حيَّره هذا الأمر طبعا ، وتساءل : ما لفاسيا « مهندما » هذا الهندام ••• ولكنه تذكر أن صاحبه لم يتناول غداءه اليوم فى المنزل • وفى أثناء ذلك أشعل شومكوف شمعة ، فأدرك أركادى ايفانوفتش أن صاحبه يتهيأ لايقاظه من نومه •

وها هو ذا يتنحنح فعلا عدة مرات ، ويدور فى الغرفة دورتين ، ثم يُسقط من يده ــ عرضا ــ غليونه الذى كان قد حشاه بالتبغ ، يسقطه فى ركن قرب المدفأة • ضحك أركادى ايفانوفتش بينه وبين نفسه • وقال :

ــ طالت هذه التمثيلية الهزلية يا فاسيا !

ــ ألست نائما يا أركاشا ؟

ــ لا أستطيع أن أؤكد ذلك ، ولكن يخيل الىَّ أن لا •

ــ يومك سعيد يا أركاشا ، يا صديقى العزيز ••• ايه يا رفيقى الطيب ، ايه يا رفيقى الشهم ••• انك لا تستطيع أن تحزر ما أريد أن أقوله لك •

ــ لذلك أجهله كل الجهل • ولكن هلا اقتربت قليلاً !

وكأن فاسيا لم يكن ينتظر الا أن يدعى الى الاقتراب ، فسرعان ما اقترب من صاحبه دون أن يسىء الظن فى أركادى ايفانوفتش • ولكن أركادى ما يلبث أن يمسكه من رسغيه بحركة محكمة ، ثم يفتله فيرميه

على السرير ويبقيه على هـذا الوضع المزعج مبتهجا بذلك ضاحكا منه . وهتف أركادى يقول :

ـ ها قد أمسكتك .. ها قد قبضت عليك .

ـ اركاشا ، أركاشا . ما هذا الذى تفعله ؟ اتركنى .. أرجوك .. لسوف تفسد ردائى !.

ـ وما فيمة ان يفسد رداؤك ؟ وما حاجتك الى هذا الرداء ؟ لماذا كنت مطمئنا هذا الاطمئنان كله فاتحت لى ان اقبض عليك ؟ قل لى : أين كنت ؟ أين تغديت ؟

ـ أركاشا ، اتركنى .. أرجوك .. أناشدك الله .

ـ أين تغديت ؟

ـ ولكن ذلك بعينه هو ما أريد أن أقصه عليك !

ـ هيا قص اذن !

ـ ولكن اتركنى أولا !

ـ لا .. لن أتركك قبل أن تقص على كل شىء !

ـ أركاشا ، ألا تحس أن هذا مستحيل ، مستحيل تماما ! هنالك أمور ..

كذلك صاح فاسيا الذى لم يكن قوى الجسم ، محاولا أن يخلص نفسه من بين يدى خصمه القادرتين دون أن يظفر بطائل .

ـ أى أمور ؟

ـ هناك أمور لا يمكن أن يتحدث فيها المرء وهو على هذا الوضع والا كان يفقد كل كرامة .. لعلك تضحك من هذا الكلام .. ولكن الأمر الذى سأحدثك فيه هام جدا ...

ـ دعنى من الأمور الهامة ! ... ما عساك مخترعا أيضا ؟ أفضل

أن تروى لى رواية مضحكة . أما الأمور الهامة فلست أحرص عليها . والا فأين الصداقة ؟ قل لى ماذا تفعل بالصداقة ! هيا هيا .. حدّث ..

– أؤكد لك يا أركاشا أن ذلك مستحيل .

– وأنا لا أريد أن أسمع حديثك .

بدأ فاسيا حديثه يقول ، وهو على تلك الحال من الاضطجاع مقلوبا فوق السرير ، محاولا أن يسبغ على كلامه ما يطيق اسباغه عليه من جد ورصانه :

– طيب يا أركاسا ... ربما قلت لك .. ولكن ...

– ما هى المسألة أخيرا ؟

– طيب .. المسألة أننى خطبت !

عندئذ رفع أركادى ايفانوفتش صاحبه كما يُرفع طفل ، دون أن ينطق بكلمة ، رغم أن فاسيا ليس قصير القامة ، بل أميل الى الطول ، وان يكن نحيلا . ثم أخذ يطوف به الغرفة حاملاً اياه على ذراعيه ، ماضيا به من أولها الى آخرها ، متظاهرا بأنه يؤرجحه ، مردداً على مسامعه من حين الى حين قوله :

– ما رأيك اذا وضعتك فى القماط أيها الخطيب الجميل ؟

لكنه ، وقد لاحظ أن فاسيا أصبح لا يتحرك ويرفض أن يفتح فمه ، غيّر رأيه ، قائلا لنفسه انه ربما يكون قد بالغ فى المزاح قليلا ، فأوقفه على قدميه وسط الغرفة ، وطبع على خده قبلة مودة .

– هل زعلت يا فاسيا ؟

– استمع الىّ يا أركاشا ...

– كان هذا من قبيل الاحتفال برأس السنة .

– لست أقول شيئا .. ولكن لماذا تقوم بأفعال المجانين هذه ؟ قلت

لك مرارا : أركاشا ليس فى أفعالك هذه شىء من فكاهة ؟ صدقنى : ليس فيها شىء من فكاهة البتة •

ــ ولكن أأنت حاقد على ؟

ــ طبعا لا ••• وهل زعلت يوما من أحد ؟ لقد آلمتنى ••• هذا كل مافى الامر •

ــ آلمتك ؟

ــ طبعا ••• كنت آتيا اليك كما يأتى المرء الى صديق ، طافحَ القلب ممتلىء النفس ، أريد أن أحدثك عن سعادتى •

ــ ولكن أية سعادة هذه ؟ لماذا لا تقول شيئا ؟

ــ ألم أقل لك اننى سأتزوج ؟

هكذا أجاب بلهجة حادة ، لأنه كان فى الواقع غاضبا بعض الغضب•

هتف أركاشا يقول :

ــ ستتزوج ؟ صحيح ؟ •• لا •• ما هذا الكلام ؟ أنظروا ماذا يقول والدموع فى عينيه ••• هيا يا فاسيا •• دعك من هذا الكلام يا صغيرى فاسيوك •• أصحيح ما تقول ؟

وراح أركادى ايفانوفتش يقبل صاحبه من جديد •

قال فاسيا :

ــ هل فهمت الآن ماحدث لى ؟ أنا أعرف أنك طيب ، أنك صديقى، فجئت اليك فرح القلب مشرق النفس ، فاذا أنت تجبرنى أن أحدثك عن سعادتى مقلوبا على السرير موثق اليدين ، مهان الكرامة •

ثم أضاف فاسيا يقول مبتسما :

ــ طبعا ••• ذلك مشهد يضحك يا أركاشا ••• ولكننى كنت فى

تلك اللحظة لا أملك نفسى بمعنى من المعانى • لذلك لم أستطع أن أهون من شأن القضية •• لم يكن ينقصك الا أن تسألنى عن اسمها ••• يمينك اننى لأوثر أن أُقتل على أن أذكر اسمها وأنا على ذلك الوضع •

ـ ولكن لماذا لم تقل لى شيئا قبل ذلك يا فاسيا ؟ لو قد أبلغتنى الأمر من قبل ، لما تصرفت تصرف المجانين ذاك !

كذلك هتف أركادى ايفانوفتش آسفاً أصدق الأسف • فقال له فاسيا :

ـ طيب •• طيب •• لا تزعل •• لست حاقداً عليك •• أبدا • أنت تعلم أن مرد هذا كله الى أننى طيب القلب •• لذلك المنى جدا اننى لم أستطع أن أروى لك الأمر على نحو ما كنت أحب أن أرويه •• وأن أقص عليك كل شىء بهدوء ، وأن أطلعك على المسألة فى صورة لائقة •• اننى أحبك كثيرا يا أركاشا ، ويبلغ حبى لك أننى ما كنت لأتزوج لولا وجودك معى ، بل لعلنى ما كنت لأوجد أيضا !

كان أركادى ايفانوفتش ، وهو انسان ذو طبيعة حساسة جدا ، يضحك ويبكى أثناء سماعه كلام صديقه • وكذلك كان يفعل فاسيا • تعانق الصديقان ، ناسيين مشاجرتهما الصغيرة •

ـ ولكن احك لى الآن كل شىء ! كيف تم ذلك يا فاسيا ؟ معذرة يا عزيزى ، ولكننى مدهوش ، بل مصعوق ! ••• هل صحيح ما تقول ؟ ألم تلفق شيئا ؟ بلى بلى ••• لا شك أنك تمزح •

بهذا صاح أركادى ايفانوفتش وهو يلقى على صديقه نظرة شك • لكنه ، وقد قرأ فى وجه صديقه تأكيدا لعزمه القاطع على الزواج بأقصى سرعة ، ارتمى على السرير وأخذ من فرط فرحه « يتشقلب تشقلبات » بلغت من القوة أن اهتزت لها جدران الغرفة •

قال أخيراً وقد هدأ :

ـ فاسيا ، تعال اجلس !

ـ حقا يا عزيزى •• لا أدرى من أين أبدأ •••

نظر الصديقان أحدهما الى الآخر منفعلين فرحين •

ـ من هى يا فاسيا ؟

قال فاسيا بصوت يرتجف سعادة :

ـ أسرة آرتمييف •

ـ لا ••• صحيح ؟

ـ صحيح •• ألم أحدثك عنهم دائما ؟ ثم انقطعت عن الاتيان على ذكرهم ••• ولم تلاحظ أنت شيئا ••• آه ياأركاشا ! لكم تحملت من عناء فى سبيل أن أكتم عنك الحقيقة ! كنت أقول لنفسى : ربما انهار كل شىء•• لكننى أحبها يا أركاشا •• نعم أحبها •• واليك القصة (كذلك بدأ يروى القصة متوقفا وقد غلبه الانفعال) • منذ سنة كانت ما تزال مخطوبة • ولكن خطيبها أرسل الى مكان ما فى الأقاليم ، بمهمة رسمية • وقد عرفته أنا •• الخلاصة : ما لنا ولهذا ! •• كان رجلا لا أدرى ما قيمته •• وها هو ذا ينقطع عن الكتابة فجأة ، ويغيب غيابا تاما • انتظروه •• ثم انتظروه •• ثم أخذوا يتساءلون ما عسى تكون دلالة هذا الانقطاع • وفجأة ، منذ أربعة أشهر تقريبا ، عاد •• ولكنه عاد متزوجا ، ولم يجىء اليهم مرة واحدة ! •• شىء لا وفاء فيه ولا نبل •• شىء يبعث على الاشمئزاز ! وما من أحد يدافع عنهم ، أو يقتص لهم ! لقد بكت المسكينة كثيرا • أما أنا فكنت أحبها منذ زمن طويل ! بل كنت أحبها منذ الأبد !

فأخذت أواسيها وأعزيها .. أخذت أتردد عليها كثيرا .. الخلاصة : أنا نفسى لا أعرف كيف تم الأمر .. ولكنها تعلقت بى هى أيضا . ومنذ ثلاثة أيام لم أستطع أن أملك زمام نفسى ، فأجهشت باكيا وقلت لها كل شىء ، أى قلت لها اننى أحبها .. قلت لها كل شىء .. فأجابتنى بقولها : « وأنا أيضا يا فاسيلى بتروفتش ، مستعدة لأن أحبك .. ولكننى فتاة فقيرة فلا تضحك على .. لقد أصبحت لا أجرؤ أن أدع لهذه العاطفة أن تنشأ فى نفسى .. » . هل فهمت يا صاحبى ؟ هل فهمت ؟ .. وهكذا تعاهدنا . ثم أخذت أفكر ، باحثا عن وسيلة لابلاغ أمها . قالت لى : « الأمر صعب . انتظر قليلا .. ذلك أنها تخاف .. فقد تأبى الموافقة على خطوبتنا . » . وطفقت تبكى . ومضيت الى السيدة العجوز أصارحها بالأمر دون أن أقول للفتاة شيئا . حدث هذا اليوم . وجثونا أنا وليزانكا عند قدميها ... فاذا هى تبارك خطوبتنا .. اسمع يا أركاشا ، يا صديقى ، سنسكن معا .. لن أرضى أن أنفصل عنك بأيه حال من الأحوال .

ـ رغم كل شىء لا أكاد أصدق أن هذا صحيح ! يمينا لا أكاد أصدق ! .. ما يزال يخيل الىّ أن .. هل صحيح أنك ستتزوج يا صاحبى ؟ كيف لم أعرف عن هذا الأمر شيئا ؟ يجب أن أعترف لك يا فاسيا أن فكرة الزواج قد راودتنى أنا أيضا .. على كل حال ، مادمت تريد أن تتزوج ، فليكن . أتمنى لك السعادة يا صاحبى ، أتمنى لك السعادة !

قال فاسيا منفعلا وهو ينهض ويأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا :

ـ لنك تعلم يا صاحبى مدى ما أشعر به من فرح فى قلبى وغبطة فى نفسى . أنت تشعر بهذا الشىء نفسه ، أليس كذلك ؟ طبعا سنعيش عيشة بسيطة متواضعة ، ولكننا سنكون سعداء . وليس ذلك وهما . لن تكون سعادتنا سعادة خيالية .. ستكون حقيقة ..

ـ اسمع يا فاسيا !

ـ ماذا تريد ؟

سأل فاسيا هذا السؤال وهو يتوقف أمام أركادى ايفانوفيتش .

ـ تراودنى فكرة ... ولكننى أخشى أن أنقلها اليك . اعذرنى . ولكن يجب أن تبدد شكوكى . مم وكيف ستعيش ؟ انه ليسعدنى طبعا أن أعلم أنك ستتزوج ، بل ان هذا ليملأ قلبى فرحا ... ولكن كيف ستعيش ؟

أجاب فانيا وهو يتأمل نيفيديفتش مدهوشا :

ـ أهذا سؤال يا أركاشا ؟ ماذا دهاك يا صاحبى ؟ ان الأم نفسها لم تتردد أكثر من دقيقتين حين شرحت لها الوضع بوضوح . أحرى بك أن تسألنى كيف عاشوا حتى الآن ؟ خمسمائة روبل فى السنة ، لثلاثة أشخاص ، ذلك دخلهم كله . ذلك كل ما خلفه الأب حين توفى . فهى ، والسيدة العجوز ، والأخ الصغير الذى ما يزال تُدفع له أجور المدرسة ، هؤلاء جميعا يعيشون من هذا المبلغ ... وهم يعيشون مع ذلك ! أنا وأنت نُعد من الرأسماليين بالقياس اليهم ! أنا مثلا يصل كسبى حين يواتينى الحظ الى سبعمائة روبل فى السنة !

ـ معذرة يا فاسيا .. أقسم لك ان خوفى من أن أرى الأمور تتعثر هو الذى يدفعنى الى هذا الكلام ... كيف تحسب سبعمائة ؟ ... أنا لا أرى منها الا ثلاثمائة ..

ـ ثلاثمائة ؟ وجوليان ماستاكوفتش ؟ هل نسيته ؟

ـ جوليان ماستاكوفتش ؟ ولكن هذا العمل يا صاحبى ليس بمضمون .. ليس كالمرتب الثابت البالغ ثلاثمائة روبل ، والذى يُعد كل روبل منه

صديقا أمينا وفيا . لا شك أن جوليان ماستاكوفتش رجل مرموق . وأنا أضمر له كثيرا من الاحترام ، وأفهمه ، رغم أنه يحتل منصبا كبيرا .. بل انني لأحبه أيضا ، لأنه يحبك فيدفع لك أجر عمل اضافى كان فى وسعه أن يعده عملا رسميا وأن يكلف به أى موظف .. وافقنى يا فاسيا، استمع الى . أنا لا أمزح. صحيح أنه ليس من السهل العثور فى بطرسبرج على شخص يضارع حظه حظك ... أنا أسلم بذلك (صرح نيفيديفتش بذلك متحمسا أشد التحمس) ... ولكن ماذا لو أصبح غير راض عن عملك ، أو لم يبق ثمة عمل يعهد به اليك ، أو استعاض عنك بشخص آخر ! ... لا يعلم الا الله ما قد يحدث ... الخلاصة أنه اذا كان هناك اليوم جوليان ماستاكوفتش ، فمن الجائز أن لا يكون هناك شىء البتة غدا !

ـ اسمع يا أركاشا ، من الجائز أيضا أن ينهار السقف على رأسينا الآن ...

ـ طبعا طبعا ، أنا لا أقول ...

ـ استمع الىَّ . لماذا تتصور أن يكف عن الاستعانة بخدماتى ؟ انني أقوم بعملي بهمة ونشاط ... ومن جهة أخرى فهو انسان طيب ياأركاشا .. لقد أعطانى فى هذا اليوم نفسه خمسين روبلا فضة !

ـ ماذا تقول يا فاسيا ؟ أكان هذا مكافأة ؟

ـ أبدا ... دفع لى هذا المبلغ من جيبه . قال لى : « انك لم تتقاض شيئا منذ خمسة أشهر يا عزيزى ، فخذ هذا . » تلك كانت كلماته هو نفسه . ثم أضاف : « لا يُعقل أن تقوم لى بهذا العمل عبثا . » ترقرقت الدموع فى عينىَّ يا أركاشا ...

ـ قل لى يا فاسيا ، هل أكملت كتابة النسخة ؟

ـ لا ، لم أكملها بعد .

ـ فاسنكا ، عزيزى ، ماذا عملت اذن ؟

ـ لا تخف يا أركادى . المسألة بسيطة . بقى لى يومان . هناك متسع من الوقت .

ـ ولكن كيف لم تنسخ شيئا حتى الآن ؟

ـ دعك دعك! انك لتنظر الىّ بعين يبلغ تعبيرها عن الأسف والحسرة أن قلبى ينقلب فى صدرى ! ما قيمة هذا التأخر ؟ انك تحزننى دائما بأوضاعك هذه ! فكر قليلا : أين ما يخيف كل هذا الخوف ؟ سأنجز كل شىء ... أحلف لك ...

صاح أركادى وهو ينهض واثبا :

ـ واذا لم تنجز ؟ ومن ذا الذى أعطاك مكافأة فى هذا اليوم نفسه ؟ وتروح تتزوج ... آه .. آه ..

ـ أقول لك لا تخف ... المسألة بسيطة . سأقوم الى العمل فورا .. أقول لك ان المسألة بسيطة !

كذلك صاح شومكوف هو أيضا .

ـ كيف أهملت هذا الاهمال يا فاسيونكا ؟

ـ هوه ... أركاشا ... هل أستطيع أن أظل لاصقا بكرسيى ؟ هل كان عقلى فى هذا ؟ اننى فى المكتب نفسه لا أكاد أستطيع الاستقرار فى مكانى من فرط خفقان قلبى ! ... أما الآن ، فأحلف لك .. سوف أعمل طول الليل ... ثم سوف أعمل فى الليلة القادمة ، ثم فى الليلة التى بعدها ، فأكمل كل شىء .

ـ هل بقى عمل كثير ؟

ـ أرجوك ، لا تضايقنى ، لا تشغلنى عن العمل ، اسكت .

اقترب أركادى ايفانوفتش من سريره على رءوس الاصابع ، وقعد عليه . ولم يلبث أن أراد النهوض من جديد ، ولكنه لم ينهض ، خشية أن يزعج صديقه . ومع ذلك فانه لا يكاد يستطيع الاستقرار فى مكانه . كان منفعلا انفعالا شديدا . واضح أن نبأ الزواج قد أقلقه كثيرا . لم تكن قد خمدت حماسته بعد . وها هو ذا يلقى نظرة على شومكوف . ونظر اليه صديقه ، وابتسم له ، وهدده باصبعه ، ثم حدّق الى الأوراق مقطبا حاجبيه تقطيبا رهيبا (كأن شدة العمل ونجاح العمل متوقفان على ذلك) .

ان من يراه يحس انه لمّا يستطع أن يسيطر على انفعاله بعد . تناول ريشة أخرى ، واضطرب فى مكانه ، وغيّر جلسته ، وعاد يكتب . لكن يده ترتجف وتأبى أن تسعفه .

صاح فجأة يقول كأنما تذكر الأمر فى هذه اللحظة نفسها :

ـ أركاشا ! لقد حدثتهم عنك .

ـ صحيح ؟ لقد أردت أن ألقى عليك هذا السؤال نفسه .

ـ صحيح ... ولكننى سأروى لك كل شىء فيما بعد .. هذه خطيئتى .. نسيت نسيانا تاما أننى آليت على نفسى أن لا أحكى لك شيئا قبل أن أنجز نسخ أربع صفحات . لكننى فكرت فيك وفيها فجأة ... عجيب يا صاحبى ... اننى لم أقدر أن انكب على الكتابة ... اننى أفكر فيكما طول الوقت !

قال فاسيا ذلك وابتسم . وأعقب ذلك صمت .

صاح فاسيا وهو يضرب الطاولة ويتناول ريشة أخرى :

ـ ما أسوأ هذه الريشة .

ـ فاسيا . اسمع . كلمة واحدة لا أكثر .

ـ ولكن اسرع ... هذه آخر مرة ..

ـ هل بقى عمل كثير ؟

أجاب فاسيا وقد تقبض وجهه كأنه لا يمكن أن يوجد سؤال مروّع صاعق كهذا السؤال :

ـ هوه ... أركاشا ... لا تكلمنى فى هذا . ما يزال هنالك مقدار فظيع .

ـ هل تعلم ماذا يخطر ببالى ؟

ـ ماذا يخطر ببالك ؟

ـ بل دعنا من هذا ، واستمر فى الكتابة ...

ـ ما هى المسألة ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

ـ انقضت الساعة السادسة يا فاسيوك !

قال نيفيدفتش ذلك وابتسم وغمز بعينه غمزا ماكرا . لكنه يبدو خجلا بعض الخجل ، لا يدرى كيف سينظر فاسيا الى الأمر .

ـ ماذا تعنى ؟

سأل فاسيا هذا السؤال وقد اصفر وجهه من نفاد صبره ، وانقطع عن الكتابة شاخصا ببصره الى صديقه .

ـ أتعرف ماذا سنفعل ؟

ـ ولكن هلا أفصحت أخيرا ! هلا قلت !

ـ أرأيت ؟ انك فى حالة عصبية ، ولا أحسب أنك قادر على أن تنجز شيئا كثيرا وانت فى هذه الحالة .. انتظر .. دعنى أكمل كلامى.. اسمع .. (كذلك قال نيفيديفتش ملحا وهو ينهض بوثبة ويقطع طريق الكلام على فاسيا) . قبل كل شىء يجب أن تهدىء روعك ، وأن تستجمع قواك . أأنا على حق ؟

صاح فاسيا وهو يدفع الكرسى :
ـ أركاشا ، أركاشا ، أحلف لك لأعملن طول الليل ، أحلف لك .

ـ أعرف ، أعرف ، ولكنك ستنام عند الفجر .

ـ لا .. لن أنام .. لن أنام بحال من الأحوال ...

ـ وأنا أقول انك لن تستطيع المقاومة . ثم انه يجب عليك أن تنام قليلا ، من الخامسة الى الثامنة مثلا . وسأوقظك فى الثامنة . وغدا عيد . فتجلس وتكتب طول النهار ... ثم تكتب فى الليل .. ولكن كم صفحة بقى أن تنسخ ؟

ـ أنظر .

قال فاسيا ذلك وأظهر صديقه على الدفتر مضطربا من الفرح ونفاد الصبر ..

ـ اسمع يا صاحبى ... ليس هذا بالأمر الضخم !

ـ ويوجد أشياء أخرى هناك يا صاحبى ..

بهذا أجاب فاسيا ، وهو يلقى على نيفيدفتش نظرة تائهة ، كأن الاذن بالخروج رهن بمشيئة صاحبه •

ـ كم صفحة هناك ؟

ـ صفحتان ••• صغيرتان !

ـ طيب •• سيكون لدينا متسع من الوقت لانجاز هذا كله • سيكون لنا متسع من الوقت •

ـ أركاشا !

ـ فاسيا ، نحن الآن فى عشية رأس السنة الجديدة • جميع الناس فى هذا المساء مع أسرهم ، الا نحن ••• نحن وحدنا يتامى منعزلون ، أليس كذلك يا فاسنكا ؟

قال نيفيدفتش ذلك وضمّ فاسيا بذراعيه القويتين •

ـ طيب يا أركاشا ••• قررنا •••

ـ فاسيوك •• عزيزى فاسيوك •• ولكننى أريد أن أقول لك شيئا ، فاصغ الىّ ••

غير أن أركادى توقف عن الكلام فاغر الفم ، طافحا حماسة ، عاجزا عن اكمال جملته• كان فاسيا قد وضع يديه على كتفى صاحبه• انه يحدق اليه ويحرك شفتيه كأنه يريد أن يكمل ما لم يستطع صاحبه أن يكمله •

ـ هيه !

ـ عرفنى بهم هذا المساء !

ـ أركادى •• فلنمض اليهم لتناول الشاى • لن نبقى الى أبعد من منتصف الليل ، بل قد ننصرف قبل منتصف الليل •

بذلك صاح فاسيا وهو فى ذروة الافتتان .

– أى نمكث عندهم ساعتين ، لا أكثر ولا أقل !

– ثم لا نزورهم ثانية الا بعد أن أكون قد أنجزت كل شىء ..

– فاسيوك !

– أركادى !

بعد بضع دقائق كان أركادى فى أجمل حلة ، وأبهى هندام . أما فاسيا فلم يحتج الى أكثر من المرور على ردائه بالفرشاة ، لأنه كان قد ظل مرتديا ثياب الخروج من فرط اسراعه الى الاكباب على العمل .

خرجا الى الشارع ، وسارا بخطى متواثبة ، سعيدين كل السعادة . الطريق امامهم طويل ، من بطرسبرجسكايا الى كولومنا . كان أركادى ايفانوفتش يتقدم بخطى كبيرة وقوة واضحة ، فكانت مشيته وحدها تفضح سروره برؤيه فاسيا سعيدا مزيدا من السعادة فى كل لحظة . أما فاسيا فلم تكن خطاه كبيرة الى هذا الحد ، ولكنه كان رغم اسراعه يحتفظ بهيئة وقورة ومظهر رصين . لم يسبق لأركادى أن رآه يوما على مثل هذه الصورة من المهابة . انه يشعر نحوه الآن باحترام خاص . ان آفة جسمية ما يزال يجهلها القارىء (ان فاسيا مخلّع الوركين قليلا) كانت تثير دائما فى نفس أركادى شيئا من شفقة وحزن . أما الآن فان هذه العاهة اليسيرة قد زادت حب أركادى له ، وزادت حنانه عليه ، وتلك عاطفة لا شك أن فاسيا يستحقها من جميع النواحى . ان أركادى ليبلغ الآن من السعادة أنه يوشك أن يجهش باكيا . ولكنه استطاع أن يسيطر على نفسه وأن يمسك عن البكاء .

صاح يقول وقد لاحظ أن صاحبه يتهيأ للسير فى شارع فوزنستكى:

ـ الى أين أنت ذاهب يا فاسيا . الطريق من هنا أقصر .

ـ اسكت يا أركاشا ، اسكت !

ـ أؤكد لك يا فاسيا أن الطريق من هنا أقصر .

قال فاسيا وقد لاح فى وجهه سر ، وارتعش صوته من الانفعال :

ـ هل تعلم يا أركاشا اننى أريد أن أهدى الى ليزانكا هدية صغيرة ؟

ـ هدية ؟

ـ اسمع يا صاحبى ، هنا تقع دكان مدام لورو ، وهى دكان أنيقة جدا ...

ـ طيب ؟ ...

ـ قبعة صغيرة يا صاحبى ، قبعة صغيرة ... اليوم رأيت عند مدام لورو قبعة رائعة . سألت عنها فقيل لى ان طرازها يسمى طراز « مانون ليسكو » . انها تحفة ! لها شرائط بلون الكرز ... فاذا لم تكن باهظة الثمن ... بل حتى لو كانت غالية يا أركاشا ..

ـ فاسيا ، يمينا لانت تفوق جميع الشعراء .. هيا بنا ..

استحثا الخطى ، فما هى الا دقائق حتى كانا فى مخزن مدام لورو .

هى فرنسيه كحلاء العينين ، مضفورة الشعر . انها تقبل عليهما ، فما تكاد تلقى على الزبونين نظرة حتى تغدو فى مثل فرحهما وسعادتهما ، بل تغدو أسعد منهما اذا جاز التعبير . كان فاسيا ، وهو فى غمرة الحماسة ، مستعدا لأن يقبّل مدام لورو .

قال فاسيا بصوت خافت ، وقد أجال بصره على القبعات الرائعة المعلقة على مساند ، والمصفوفة فوق المنضدة الكبيرة بالمخزن :

ـ يا للروائع ... وتلك ! هل تراها ... تلك السكَّرة ؟

قال فاسيا ذلك وهو يشير الى قبعة صغيرة غير التى كان ينوى شراءها فى أول الأمر . ذلك أنه لاحظ من بعيد والتهم بعينيه قبعة أخرى تخطف البصر وتأخذ باللب ، أجمل من سائر القبعات ، موجودة فى الطرف الآخر من المنضدة . بلغ فاسيا من شدة الاشتهاء حين نظر اليها أن من يراه فى تلك اللحظة يخيل اليه أنه يخشى أن يسرقها أحد ، أو أن تطير القبعة من تلقاء نفسها ، لا لشىء الا مكرا بفاسيا وكيدا له .

قال أركادى ايفانوفتش وهو يشير الى قبعة أخرى :

ـ فى رأيى أن هذه أجملهن !

ـ مرحى كا أركاشا ! اختيارك هذا دليل على حسن ذوقك ! حتى لقد أخذت أشعر نحوك باحترام خاص . القبعة التى اخترتها فتانة حقا . ولكن تعال انظر هنا .

كذلك صاح فاسيا مبيحا لنفسه أن يمكر بصاحبه هذا المكر البسيط البرىء .

قال أركادى بلهجة الشاك :

ـ هذه ؟

ولكن حين شالها فاسيا عن مسندها الخشبى ، عاجزا عن ضبط نفسه ، حين شالها عن مسندها الخشبى فكأنها تطير من تلقاء نفسها طيرانا لشدة فرحها بزبون متحمس لها هذه الحماسة ، وحين خفخفت أشرطتها وزخارفها وتخريماتها فرحة ، انطلقت صيحة اعجاب من صدر أركادى ايفانوفتش القوى . وها هى ذى مدام لورو نفسها (وقد لزمت طوال

عمل الاختيار كل وقارها وحافظت على جميع ميزات حسن الذوق التى تتمتع بها ، ولم تصمت الا من قبيل التسامح) ، ها هى ذى تكافىء فاسيا الآن بابتسامة تحبيذ كبيرة . ان كل ما فيها ، من نظراتها ، الى اشاراتها ، الى ابتسامتها نفسها ، يأتى مصدقا لحسن هذا الاختيار وروعة هذا الانتقاء .. ان كل ما فيها يقول : « نعم لقد أصبت ، وأنت جدير بالسعادة التى تنتظرك ... »

صاح فاسيا يقول ، ناقلا كل حبه الى القبعة :

ـ ألم تكن كأنها ترمقنا من ركنها القصى ؟ أليس يبدو أنها كانت تختبىء عنا عمدا ، هذه الشيطانة !

وقبّل فاسيا القبعة ، أعنى قبل الهواء الذى يحيط بها ، مخافة أن تفسد قبلته كنزه .

أضاف أركادى يردد ، على سبيل الضحك ، قولا مأثورا كان قد قرأه فى ذلك الصباح نفسه :

ـ كذلك تختفى الفضيلة الصادقة عن أعيننا دائما . وبعد ، ألا ننصرف يا فاسيا ؟

ـ مرحى ... أركاشا ! أنت اليوم فكه اللسان خفيف الروح ... لسوف تحدث جنونا بين السيدات ، كما يقال ... أتنبأ لك بهذا ... مدام لورو ، مدام لورو !

ـ نعم يا سيدى ؟

ـ عزيزتى مدام لورو !

استقبلت مدام لورو حماسة فاسيا متسامحة .

– لن تصدقى ما أقوله ... ولكننى أعبدك فى هذه اللحظة ... اسمحى لى أن أقبلك .

قال فاسيا هذا وقبّل صاحبة المخزن .

كان لا بد طبعا ، فى هذا الظرف ، من احتفاظ مدام لورو بكل رصانتها ووقارها ، حتى لا يسقط اعتبارها أمام فتى أحمق كهذا الفتى ! وأنا أؤكد أنه كان لا بد أيضا من ذلك اللطف الناعم الرشيق الذى فطرت عليه مدام لورو واستقبلت به حماسة فاسيا . لقد عذرته مدام لورو ، ولم تلبث أن عادت الى هدوئها بالذكاء واللباقة كلتيهما . وهل يمكن أن يغضب أحد من فاسيا ؟

– مدام لورو ، ما ثمن هذه القبعة ؟

قالت مدام لورو وقد ثابت الى هدوئها وعادت تبتسم :

– خمسة روبلات فضة .

سأل أركادى مشيرا الى القبعة التى كان قد وقع عليها اختياره :

– وتلك يا مدام لورو ؟

– ثمانية روبلات فضة .

– من فضلك من فضلك يا مدام لورو ... قولى أنت ، أرجوك ، أى القبعتين أجمل ، أيهما أرشق ، أيهما أفتن ؟

– تلك أثرى ، ولكن التى اخترتها أنت أغنج .

– اذن آخذها !

تناولت مدام لورو ورقة ناعمة كل النعومة ، فلفت بها القبعة ، وثبتت

الورقة بدبوس ، حتى لكأن الشىء الذى تحمله الورقة أصبح الآن اخف مما كان عليه .

تناول فاسيا اللفة بكثير من التأنى والحذر ، وهو لا يكاد يستطيع أن يتنفس من شدة الهيجان . ثم حيا مدام لورو ومدحها وخرج من المخزن .

ـ أنا انسان يحب الحياة ومباهجها يا أركاشا ! لقد خلقت محبا لمتع الحياة !

كذلك هتف فاسيا وهو يطلق ضحكة صغيرة عصبية لا تكاد تسمع ، ويدور ويلف كثيرا حتى يتحاشى المارة الذين يتصور أنهم يريدون جميعا أن يصدموا قبعته فيجدوها . وردّد بعد دقيقه يقول بصوت فيه الحنان والقوة معا :

ـ اسمع يا اركادى .. أنا سعيد جدا ، سعيد جدا .

ـ وأنا يا فاسنكا ، وأنا يا عزيزى ، أتحسبنى غير سعيد ؟

ـ لا يا أركاشا ... أنا أعرف أنك متعلق بى تعلقا كبيرا .. ولكنك لا تستطيع أن تحس بعشر معشار ما أحس به أنا فى هذه اللحظة . ان قلبى يطفح فرحا ! اركاشا ! أنا لا أستحق كل هذه السعادة ! .. أشعر بذلك ، أعرف ذلك (قال هذا بصوت مختنق ، وهو لا يكاد يستطيع السيطرة على انفعاله) . قل لى : ما الذى يجعلنى جديرا بهذه السعادة كلها . أنظر حولنا : ما أكثر الناس والدموع والآلام والايام الحزينة الكالحة التى لا تعرف الاعياد ! ... وأنا ... أنا تحبنى فتاة حلوة عذبة .. ستراها بنفسك بعد هنيهة . ستعرف كيف تقدر قلبها النبيل وروحها الكريمة .. لقد ولدتُ فى بيئة متواضعة ، ولكننى الآن أملك رتبة ،

وأملك دخلا مستقلا ، أملك مرتبا ! وقد ولدتُ مع عاهة في جسمي ، فأنا مخلعّ الوركين قليلا ، ومع ذلك فهي تحبني على ما أنا عليه كما ترى. واليوم كان جوليان ماستاكوفتش لطيفا في معاملتي كل اللطف ، كريما كل الكرم ، يحمل لي أحسن النيات وأطيب المشاعر ! لقد اقترب مني وقال لي : هيه فاسيا (أقسم لقد خاطبني هكذا : فاسيا !) ، أليس في نيتك أن تمتع نفسك أثناء الاجازة ؟ » . قال ذلك وضحك . فأجبته : « كلا يا صاحب السعادة . لديّ أعمال يجب أن أنجزها ... » . ثم تجرأت فأضفت قولي : « مع ذلك ربما تسليت قليلا يا صاحب السعادة » . يشهد الله انني جاوبته هكذا . وعندئذ انما أعطاني المال ، ووجّه اليّ كلمات أخرى . غرقت في دموعي يا صاحبي . يمينا لم أستطع أن أضبط نفسي، وأعتقد أنه تأثر هو أيضا . فقد ربت على كتفي وقال لي : « أرجوك يا فاسيا أن تظل حساسا كما أنت الآن ، وأن تظل قادرا على أن تقدّر...»

صمت فاسيا . وكفكف أركادي دمعة هو أيضا .

تابع فاسيا يقول :

ــ ثم ... اليك ما كنت أريد أن أقوله أيضا يا أركادي ... ولم أقله في يوم من الأيام . أركادي ! ان صداقتك تملأ قلبي وتغمر نفسي .. وأنا من شدة سعادتي بذلك أشعر أنني ما كان لي أن أستطيع الحياة على هذه الأرض بدونك ... لا .. لا ... لا تقل شيئا يا أركاشا . اسمح لي أن أصافحك وأن أشد ... كرك !

واضطر فاسيا أن يقطع كلامه من جديد ، فقد كان أركادي يتهيأ لتقبيل فاسيا ، وكانا يقطعان الشارع من رصيف الى رصيف ، فاذا بصرخة حوذي تدوّي على مقربة منهما ، فيهرعان الى الرصيف مروّعين . والحق أن أركادي قد سرّ بهذا . فان اكثار فاسيا هذا لم يكن له ما يسوّغه غير

ظروف خارقة . أما هو فكان يشعر بشىء من الضيق . انه يدرك أن ما فعله فى سبيل فاسيا حتى اليوم كان قليلا . حتى لقد أحس بالخجل حين شكره فاسيا من أجل ترهات كهذه ! على أن الحياة ما تزال أمامهما! .. فتنفس أركادى الصعداء ، وأطلق من صدره آهة تخفف وفرح .

لا شك أن وصولهما لم يكن متوقعا . والدليل على ذلك أن الاسرة كانت قد بدأت تناول الشاى . ومع هذا فما أكثر ما يحدث أن يكون المسنُّون أبصر بالأمور من الشباب ... وأى شباب ! كانت ليزانكا تؤكد أنه لن يجىء . فهى تقول لأمها : « لن يجىء يا ماما ، قلبى يقول لى ذلك » . أما أمها فكانت تردد دائما أن قلبها هى يقول لها خلاف ذلك تماما ، فلا بد أن يجىء ، ولن يستطيع أن يستقر فى مكانه هادىء البال ، وسيهرع اليهم حتما ، لا سيما وأن المكاتب مغلقة ، فاليوم عشية عيد رأس السنة ! وحتى حين فُتح الباب لم تكن ليزانكا تتوقع أن تراه . فلما رأته لم تصدق عينيها ، واستقبلته لاهثة الأنفاس خافقة القلب كعصفور أسير ، محمرَّة الوجه كثمرة كرز (وهى تشبه الكرز على كل حال) .

رباه ! يا للمفاجأة الجميلة الممتعة ! وانطلقت من شفتيها الصغيرتين آهات فرحة ... قالت وهى ترتمى على عنق فاسيا : « يا لك من مخادع يا حبيبى ! » ... ولكن تصوروا دهشتها واضطرابها حين رأت أركاديا واقفا وراءه ، خجولا وجلا كأنه يريد أن يختبىء . يجب أن نذكر فى هذه المناسبة أن أركاديا شاب تعوزه الثقة بنفسه فى حضور النساء ، تعوزه كثيرا ، حتى انه فى ذات مرة ... ولكننا سنتحدث عن هذا فى حينه . ضعوا أنفسكم فى مكانه مع ذلك ، تروا أن خجله ليس فيه شىء من سخف . لقد كان هناك ، واقفا فى حجرة المدخل ، غريب اللابس بحذائيه الطاطين وردائه العريض وطاقيته التى من فراء ، وعمرته التى تغطى العنق والأذنين والتى أسرع يخلعها كيفما اتفق من جهة أخرى . ثم لقد كان

حلقه ملفوفا بعصبة تغطى الأنف ، عصبة صفراء من صوف محبوك ، دميمة جدا ، كان قد عقدها ، فوق ذلك ، فى ظهره ! كان لا بد له أن يخلع هذه الأشياء كلها ، وأن ينضوها عنه بأقصى سرعة ، وأن يقدم نفسه تقديما لائقا ، فما من انسان الا ويجب أن يظهر للناس بأحسن منظر . وهناك ، مع ذلك ، فاسيا ، فاسيا الذى لايطاق ، فاسيا المزعج ، فاسيا المثير الذى لا يحتمل رغم أنه لطيف وطيب جدا .

صاح فاسيا يقول :

ـ هذا صديقى أركادى يا ليزانكا . ما رأيك فيه ؟ هو خير صديق لى . قبليه يا ليزانكا ... قبليه ما دمت أقول لك ذلك ... لسوف تقبلينه راضية مختارة حين تعرفينه مزيدا من المعرفة .

ما العمل فى مثل هذه الحالة ؟ قل لى ناشدتك الله ؟ ما عسى يكون رد أركادى ايفانوفتش ، هو الذى لمـا يكمل نزع منديله بعد ! أؤكد لك أن هذه الحماسة الطافحه فى فاسيا تربكنى . صحيح أنها دليل على أنه امرؤ طيب القلب ، ومع ذلك فان المرء ينزعج منها ، بل يضيق بها !

وأخيرا دخل الشابان كلاهما . أظهرت العجوز أنها سعيدة جدا بمعرفة أركادى ايفانوفتش . لقد سمعت عنه كثيرا . وهى ... لكنها لم تستطع أن تكمل جملتها ، لأن صيحة فرحه قد دوت فى الغرفه ، فقطعت كلامها . رباه ! ما أجملها !

كانت ليزانكا واقفه أمام القبعة بعد أن نزعت عنها ورقتها الحريريه .. انها ضامة يديها الصغيرتين وقد لاح فى وجهها معنى مؤثر ، برىء ، ساذج ، كأنه بسمة للملائكة ... لماذا لم يوجد عند مدام لورو قبعة أجمل من هذه القبعة أيضا ؟

دعك من هذا الكلام ! أين يمكن أن تجد قبعة أجمل منها ؟ حقا

انها لتتجاوز كل حد • ان مثل هذا العقوق لدى العشاق يغضبني قليلا، بل يحزنني أيضا • انظروا بأنفسكم : أين يمكن أن توجد قبعه في مثل هذه الفتنة والروعة ! أنظروا ! •• ولكن لا •• ان ملاحظاتي هذه لا لزوم لها • هم الآن جميعا من رأيي • لم يكن ذلك الا ضلالا عارضا، الا ضبابا مضللاً ، الا خطأ طارئا ••• أنا مستعد كل الاستعداد لان أغفر لهم ذلك •• هلا نظرتم .(لا تؤاخذوني ، فأنا ما زلت أتكلم على القبعة) : هي من نسيج دقيق خفيف ، لها عصبة بلون الكرز ، مغطاه بتخريم ، مارة بين القبة والحواشي ؛ وفي الخلف عصبتان أخريان طويلتان عريضتان تسقطان على النقرة وتتهدلان حتى العنق ••• ولكن يجب دفع القبعه قليلا الى الوراء لتكشف عن الجبين ••• هلا نظرتم ! ولكنكم لا تنظرون •• فيما أرى • أحسب أنكم لا تحفلون بالأمر •• ثم ان انتباهكم مشدود الى جهة أخرى • انكم ترون دمعتين كبيرتين ، كأنهما لؤلؤتان ، تلتمعان فجأة في عينين سوداوين مخمليتين ، ترتعشان لحظة على الأهداب الطويلة ثم تسقطان برفق على النسيج الخفيف خفة الهواء ، الذي صُنعت منه تحفة مدام لورو •• ولكنني أهم أن أزعل مرة أخرى •• ذلك أن هاتين الدمعتين لم تتساقطا من أجل القبعه وحدها • ليس هذا هو الأمر في نظري •• لا •• حتما •• يجب على المرء أن يقدم هدية كهذه الهدية هادىء البال ، غير مهتاج العاطفه •• وحينئذ فقط يمكن أن تُقدر حق قدرها •• على أنني أعترف بأنني أرى أن المسألة مسألة القبعة خاصه •

جلس الجمع • اتخذ فاسيا مكانا له قرب ليزانكا ، وقعدت المرأة العجوز الى جانب أركادي ايفانوفتش • ودار الحديث • برهن أركادي ايفانوفتش على أنه في مستوى الموقف • انه ليسرني أن أنصفه • ما كان يُنتظر أن يكون ابقاً هذه اللباقة كلها • فبعد أن قال بضع كلمات عن فاسيا ، أخذ يتحدث حديثا رائعا عن جوليان ماستاكوفتش ، المحسن اليهم؛

وبلغ حديثه من الحسن والذكاء أن الموضوع لم يُستنفد حتى بعد انقضاء ساعة من الزمان •

ليتكم رأيتم كم بلغ أركادى ايفانوفتش من اللباقة والرهافة فى وصف بعض خصائص جوليان ماساكوفتش ، وهى خصائص تتصل بفاسيا اتصالا مباشرا أو غير مباشر • لذلك سُحرت العجوز بكلام أركادى : حتى لقد اعترفت بذلك لفاسيا : نادته جانبا وقالت له ان صديقه فتى فذ ، وانه من أحب الشباب الى القلب ، وانه قوى جاد على وجه الخصوص • فبلغ فاسيا من السرور بهذا الكلام أنه لم يستطع أن يمتنع عن الانفجار ضاحكا ضحك الفرح الا فى كثير من العناء • لقد تذكر كيف استطاع أركاشا « القوى جدا » أن يقلبه على سريره مفتولاً منذ نصف ساعة •

وبعد ذلك غمزت العجوز الطيبة فاسيا طالبة منه أن يلحق بها الى الغرفة المجاورة • يجب أن نعترف أنها بهذا قد مكرت بابنتها ليزانكا • ولا شك أنها قد غدرت بها ، من فرط طيبتها ، ذلك أنها قررت أن تظهر فاسيا ، خفية ، على الهدية التى أعدتها له ليزانكا بمناسبة عيد رأس السنة• ان الهدية محفظة خيطت بها لآلىء دقيقة وقصب مذهب ، وازدانت برسم بديع خلاب ، فمن جهة تُرى صورة وعل يثب ، صورة جميلة تشبه الوعل كثيرا ؛ ومن جهة أخرى تُرى صورة جنرال شهير ، وهى صورة جميلة أيضا تشبه الجنرال شبها كبيرا • ولن أتكلم عن حماسة فاسيا حين رأى الهدية •

وفى أثناء ذلك ، فان الذين لبثوا فى الصالون لم يضيعوا وقتهم سدى • اقتربت ليزانكا من أركادى ايفانوفتش ، وأمسكت كلتا يديه تشكره شكرا حارا • فاستطاع أركادى ايفانوفتش أن يفهم أخيرا أن الأمر يتعلق مرة أخرى بصديقه العزيز فاسيا • كانت ليزانكا تبدو منفعلة

انفعالا شديدا • لقد سمعت عن أركادى ايفانوفتش أنه شديد الاخلاص لخطيبها ، وأنه يحبه كثيرا ، وأنه يعتنى به عناية كبيرة ، وأنه بنصائحه الحكيمة يسدد كل خطوة من خطواته ، وأنها ، هى ليزانكا ، لا يسعها الا أن تعبر له عن عظيم امتنانها وعميق شكرها • وانها لتأمل أن يحبها أركادى ايفانوفتش هى أيضا ، وأن يخصَّها بجزء يسير من حبه لفاسيا • ثم أخذت تلقى عليه الأسئلة تلو الأسئلة ، تريد أن تعرف هل يعنى فاسيا بصحته ؟ وأعربت عن بعض مخاوفها من فرط الحماسة والحرارة فى طبعه ، ومن جهله بالناس والحياة حوله • وصرحت بعد ذلك أنها ستسهر عليه فى كثير من الاهتمام ، وأنها ستحميه وستدلله ، وأنها أخيرا تأمل من أركادى ايفانوفتش أن لا يتركهما ، بل تأمل منه أيضا أن يقيم معهما •

صاحت تقول بسذاجة وهى فى غمرة من الحماسة :

ـ لن نكون نحن الثلاثة الا واحدا •

وكان لا بد من الانصراف مع ذلك • حاولوا منعهما من الانصراف طبعا ، ولكن فاسيا صرح بلهجة قاطعة أن بقاءهما مستحيل • وأكد أركادى ايفانوفتش قول صاحبه • وكان طبيعيا أن يسأل أهل الدار عن سبب ذلك ، فسرعان ما عرفوا أن هناك عملا عهد جوليان ماستاكوفتش الى فاسيا بانجازه ، وهو عمل مستعجل ، خطير غاية الخطورة ، يجب الفراغ منه بعد غد فى الصباح ، وأن فاسيا لم يكمل هذا العمل حتى الآن ، بل لقد أهمله اهمالا تاما • فلما سمعت الأم هذا الكلام أطلقت صرخة كبيرة • أما ليزانكا فقد ظهر فى وجهها الجزع والهلع ؛ وأخذت من فرط قلقها تحث فاسيا على الانصراف • غير أن القبلة الأخيرة لم تفقد من ذلك شيئا غير الطول ، أما حرارتها فلم تنقص •

ما ان خرج الصديقان حتى أخذا يتبادلان التعبير عن مشاعرهما

وانطباعاتهما • وذلك أمر طبيعى على كل حال • فأما أركادى ايفانوفتش فقال انه جُن حبا بليزانكا •• وهل غير هذا الصديق المحظوظ ، فاسيا ، يمكن أن يُسرَّ اليه صديقه بذلك ؟ وكذلك كان : صرح أركادى لفاسيا بكل شيء ، دون أى تحرج • فضحك فاسيا كثيرا ، وأظهر سروره بذلك وابتهاجه له ؛ بل أضاف أن هذا حسن جدا ، فان صداقتهما ستقوى الآن مزيدا من القوة •

قال اركادى ايفانوفتش :

ـ هل فهمت يا فاسيا ؟ اننى أحبها بقدر ما أحبك • ستكون ليزانكا ملاكى الحارس ، كما هى ملاكك الحارس ، لأن سعادتكما سترتد الىَّ ، فتبث الدفء وتشيع الحرارة فى نفسى • ستكون لى ربة البيت ، وستوى سعادتى على كفيها • أرجو أن تقودنى كما تقودك أنت، أرجو أن توجهنى كما توجهت أنت • لن تكون صداقتى لها وصداقتى لك بعد الآن الا صداقه واحدة • أنتما فى نظرى واحد • سيكون لى بعد اليوم صديقان أحبهما لا صديق واحد ••

قال أركادى ذلك ثم صمت وقد غلبه الانفعال• شعر فاسيا باضطراب شديد فى أعماق نفسه • الحق أنه لم يكن يتوقع تصريحا كهذا التصريح من أركادى ايفانوفتش • لقد كان أركادى لا يجيد الكلام كثيرا ، وكان يبدو عدوا لكل نوع من أنواع الاسترسال فى الأحلام • أما الآن ، فقد أخذ يحلم ، وان أحلامه لمن أكثر الأحلام اسرافا وتفاؤلا •

وتابع أركادى كلامه يقول :

ـ سوف ترى كم أرعاكما وكم أعتنى بكما كليكما ! أولا سأكون عرَّاب جميع أولادك •• ثم يا فاسيا يجب الاهتمام بالمستقبل ! •• يجب

شراء أثاث واستئجار مسكن .. ويجب الحرص على أن يضم المسكن ثلاث غرف صغيرة ، اثنين لكما وواحدة لى . سوف أشرع فى البحث عن مسكن منذ الغد يا فاسيا . سأنظر فى كل مكان الى اللافتات الصغيرة الملصقة على أبواب العمارات .. ثلاثة غرف ؟ بل يكفى اثنتان . لا نحتاج الى أكثر من غرفتين .. وانى لأعتقد يا فاسيا أن كلامى اليوم كان سخفا: سوف نملك مالا كافيا ! لقد أدركت منذ رأيت نظرتها أن ما نملكه من مال يكفينا ! سيكون كل شيء لها ! ما أكثر ما سنعمله كلانا يا فاسيا ، حقا يافاسيا .. نستطيع أن نجازف بخمسة وعشرين روبلا أجر المسكن .. ذلك أن المسكن يا صاحبى هو الأمر الأساسى ! غرف جميلة ... ذلك يجعل الانسان فرحا متفائلا . ثم ان ليزانكا ستكون هى أمينة الخزنة لنا : ما من قرش واحد سيبذّر ! هل تعلم أننى لن أضع قدمى بعد الآن فى دكان بائع الخمور ؟ من تحسبنى ؟ لا .. لن أضع قدمى فى دكانه بحال من الأحوال . ثم هناك الترقية ، والمكافآت ، لأننا سنعمل فى جد واجتهاد .. كثيران تحرث الأرض ! تصور (وهنا ضعف صوت أركادى ايفانوفتش وتحطم من شدة الانفعال) ، تصور أن يحصل كل منا فجأة على مكافأة تبلغ ثلاثين روبلا أو خمسة وعشرين ! كلما حصلنا على زيادة ما اشترينا بها تارة قبعة صغيرة ، وتارة وشاحا ، وتارة أجربة ، وهكذا دواليك .. ويجب عليها حتما أن تحيك لى عصبة للعنق .. انظر الى عصبتى هذه ما أبشعها : لقد اصفر لونها وانسلت خيوطها ... لقد فضحتنى اليوم ، هذه العصبة .. وأنت أيضا فضحتنى يا فاسيا ! اخترت اللحظة المناسبة لتقديمى اليها قبل أن أنضو عنى لفعتى ! على كل حال ، ليس لهذا من قيمة !.. لاحظ يا فاسيا أن شراء الفضيات سيقع على عاتقى أنا . فعلا .. لا بد أن أهدى اليكما شيئا .. هذا واجبى .. الشرف يقضى بذلك ! .. ولن يطول أمر حصولى على المكافأة .. هل تظن أنهم

سيعطونها سكوروخودوف! هه! ثم ان هذا القلق لن يتخلف عن دفعها الىّ متى أردت . سأشترى لكما يا صاحبى ملاعق من فضة ، وسكاكين جيدة (لا من فضة طبعا ، ولكن متينة) ، وصديرة .. أعنى صديرة لى أنا ، لأننى سأكون وصيفكما .. ولكن عليك الآن يا صاحبى أن تشد عزيمتك . وسأكون اليوم وغدا ، وطوال هذه الليلة ، واقفا وراءك أحمل عصا .. سوف أجعلك تفطس من كثرة العمل . يجب انجاز العمل يا فاسيا ، يجب انجازه بأقصى سرعة يا صاحبى ! حتى اذا فرغت منه عدنا نسهر عندهم ، وسعدنا بذلك كلانا ! .. سنلعب هناك لعبة اللوتو .. هكذا سنقضى سهراتنا .. آه ما أحلى هذا ! لكم يحز فى نفسى أننى لا أستطيع معاونتك فى عملك ! لشد ما أتمنى لو أستطيع أن آخذه عنك ، واكتبه لك ! لماذا ليس خطنا واحدا أيضا ؟

قال فاسيا :

— نعم نعم .. يجب أن نحث الخطى ! أحسب أنها الحادية عشرة الآن ... يجب أن نحث الخطى .. الى العمل !

ان فاسيا الذى كان الى ذلك الحين يبتسم تارة ، ويحاول أن يقاطع تدفق صديقه بملاحظة فرحة تارة أخرى ، أى كان متحمساً تحمساً كاملا ، قد صمت فجأة بعد أن قال ذلك الكلام ، أصبح كالأخرس لا ينطق بحرف ، وأخذ يغذ الخطى كأنه يركض ركضا حتى يصل الى مسكنه بأقصى سرعة . لكأن خاطرا مشئوما قد راوده على حين فجأة ، وسقط على رأسه المحترق سقوط كتلة من ثلج ، فانقبض صدره انقباضا أليماً .

شعر أركادى ايفانوفتش من ذلك بقلق . لقد أصبح فاسيا لا يكاد يجيب على أسئلته المستعجلة ، فهو يكتفى بكلمة واحدة قد لا تمت الى

موضوع السؤال بصلة من الصلات فى بعض الأحيان ، بل قد لا يزيد على أن يطلق صوت تعجب .

هتف أركادى أخيرا :

ــ ولكن ماذا دهاك يا فاسيا ؟ هل يمكن أن تستبد بك الهموم الى هذا الحد ؟

ــ حسبك يا صاحبى ، حسبك ثرثرة .

كذلك قال فاسيا بلهجة خانقة بعض الخنق .

فقاطعه أركادى يقول :

ــ لا تهتم .. لقد لاحظت أنا نفسى أنه يتفق لك أحيانا أن تنسخ صفحات أكثر فى وقت أقصر .. فأى ضير فى هذا ؟ انك تقدر على ذلك .. فى وسعك أن تكتب بسرعة اذا اقتضى الأمر .. ليس من الضرورى أن تجوّد نسخ النص بخط رائع ... سوف تستطيع انجاز العمل ... قد تكون الآن مضطربا بعض الاضطراب ، ذاهلا بعض الذهول ، فالعمل يبدو لك أصعب وأشق .

لم يجب فاسيا بشىء ، بل اكتفى بأن تمتم بين أسنانه ببعض الكلام ، ووصل الشابان مسكنهما وهما فى حالة عصبية ثقيلة .

أكب فاسيا على العمل فورا . وصمت أركادى ايفانوفتش . خلع ثيابه ساكتا ورقد على سريره لا يحول بصره عن فاسيا . انه يشعر بنوع من الخوف يغزو نفسه . تساءل أركادى وهو ينظر الى وجه فاسيا الشاحب والى عينيه الملتمعتين والى حركاته التى تدل على قلق محموم : « ماذا به ؟ ان يديه ترتعشان .. أليس من الخير أن أنصحه بأن يرتاح ساعتين ؟ .. لا شك أن قليلا من النوم سيريحه . » .

أنجز فاسيا كتابه صفحة. ورفع عينيه عرضا الى ناحية صديقه، فلم يلبث أن خفض جفنيه وعاد يتناول القلم.

قال أركادى ايفانوفتش فجأة :

— اسمع يا فاسيا ! ألا تعتقد أن قليلا من النوم ينفعك الآن ؟ ان مظهرك يدل على أن بك حمى ...

ألقى فاسيا على أركادى نظرة متجهمة، بل وحانقة، ولم يقل شيئا.

— عليك بشيء من الراحة يا فاسيا ! .. فيم هذا العناد ؟

ظهر على فاسيا فجأة أنه غيّر رأيه. فقال :

— ما رأيك فى تناول قليل من الشاى ؟

— لماذا ؟

— لأسترد قواى. لا أريد أن أنام. لن أنام. سأظل أكتب طول الوقت. ولكننى أتمنى لو أتنفس قليلا بشرب قدح من الشاى، فلعل هذا أن يبدد ما أنا فيه من حالة عصبية.

— طيب يا صاحبى .. فكرة عظيمة .. ذلك بعينه ما كنت أريد أن أقترحه عليك ! يدهشنى أن هذه الفكرة لم تخطر ببالى .. ولكن مافرا لن تنهض بحال من الأحوال. يستحيل ايقاظها فى مثل هذه الساعة !

— نعم، صحيح ..

— لا ضير .. سأضع السماور بنفسى ! ما أنا بالغر على كل حال.

بهذا هتف أركادى ايفانوفتش ناهضا عن سريره بوثبة. وأسرع

الى المطبخ يتحرك حول السماور • واستمر فاسيا يكتب أثناء ذلك• وهرع أركادى ايفانوفتش يرتدى ثيابه ويركض الى الخباز حتى يستطيع فاسيا أن يقتات لليل • فما انقضى ربع ساعة الا كان السماور على المائدة يتصاعد منه البخار • صب الصديقان الشاى • ولكنهما لم يتوصلا الى الانخراط فى حديث • كان فاسيا يبدو ذاهلا • وفجأة قال كمن ثاب الى نفسه :

ــ نعم •• يجب أن أذهب غدا لتقديم تمنياتى بمناسبة عيد رأس السنة •

ــ ما أنت فى حاجة الى ذلك •

ــ بل لا بد من ذلك يا صاحبى •

ــ ولكننى سأوقّع عنك لدى الجميع ! لا تهتم ! غدا ستعمل • لو كنت فى محلك لعملت اليوم حتى الساعة الخامسة ، ثم نمت • والا فما عسى تكون حالتك غدا • وسوف أوقظك فى الساعة الثامنة •

قال فاسيا وقد اقتنع نصف اقتناع :

ــ ولكن هل يليق أن توقّع عنى ؟

ــ لمَ لا ؟ الناس جميعا يفعلون ذلك •

ــ مع ذلك أخشى أن •••

ــ ولكن ماذا تخشى ؟

ــ لا أعارض فى أن توقع عنى لدى غيره ••• أما لديه هو ، لدى جوليان ماستاكوفتش •• فذلك •• لاحظ انه المحسن الىّ يا أركاشا •• فماذا يكون وضعى لو لاحظ أن التوقيع ليس توقيعى ؟

ــ لو لاحظ •• انك لغريب الأطوار حقا يا فاسيوك ! كيف يستطيع أن يلاحظ ذلك ؟ أنت تعلم أننى أقدر أن أوقع اسمك بتقليد خطك

تقليدا تاما • سوف أرسم توقيعك نفسه ، توقيعك نفسه تمـاما ، أحلف لك • لن يلاحظ أحد شيئا ، أنا أضمن لك هذا •

أفرغ فاسيا قدحه بسرعة دون أن يجيب ، ثم هز رأسه علامة الشك والريب •

ـ فاسيا ! المهم هــو أن تنجح فى انجاز العمــل ! ولكن ما بك يا فاسيا ؟ هل تعلم أنك تخيفنى ؟ لن أرقد فى فراشى يا فاسيا ! لن أستطيع أن أنام • أرنى كم صفحة بقى عليك أن تنسخ •

ألقى فاسيا على أركادى نظرة انقبض لها صدره انقباضا شـديدا ، حتى لم يستطع أن يحرك لسانه • وقال أخيرا :

ـ ولكن ماذا بك يا فاسيا ؟ لماذا تنظر الىّ هكذا ؟

ـ أعتقد يا أركادى أننى سأذهب أهنىء جوليان ماستاكوفتش رغم كل شىء •

قال أركادى وهو يرمق صاحبه بنظرة تدل على القلق :

ـ لك ما تشاء •• افعل ما دمت تحرص على ذلك • ولكن اسـمع يا فاسيا : عجل كتابتك قليلاً • يمينا لست أسدى اليك نصيحة سيئة • ألم يقل جوليان ماستاكوفتش مرارا ان ما يحبه فى خطك أكثر من أى شىء آخر هو أنه خط مقروء ؟ انه ليس مثل سكوروبليخين الذى يتطلب خطا مقروءا وجميـلا فى آن واحـد ! ••• لا لشىء الا ليخطف الورقة كيفما اتفق ، ثم يحملها الى أولاده من أجــل أن يتمـرنوا على حسن الخط باعادة نسخها •• كأن هذا الأحمق لا يستطيع أن يشترى لهم دفاتر تمرين على حسن الخط •• ولا كذلك جوليان ماستاكوفتش ، فانه لا يطلب الا شيئا واحدا هو أن يكون الخط مقروءا ، مقروءا ! ••• فلماذا تصدع

رأسك اذن ، وترهق نفسك من أمرها عسرا ؟ حقا يا فاسيا •• لا أعرف ماذا أقول •• بل اننى لأخشى أن ••• فاسيا •• ان حزنك يهدنى هـذا رهيبا !

قال فاسيا :

ـ الأمر بسيط •• الأمر بسيط •

ثم خارت قواه ، فتهالك على كرسيه •

هبّ أركادى يتحرك حوله :

ـ هل تريد ماء ؟ فاسيا ! فاسيا !

قال فاسيا ، وهو يشد على يده :

ـ دعنى يا أركادى •• ليس بى شىء • كل ما هنالك أننى حـزين قليلا يا أركادى •• وأنا نفسى لا أعرف لحزنى هذا سببا • دعنا نتحـدث فى أمر آخر •• لا تذكّرنى ••

ـ هدىء نفسك يا فاسيا ، ناشدتك الله •• هدىء نفسك ! لسـوف تنجز عملك ، أحلف لك • وهبك لم تنجزه ، فأين الكارثة فى هـذا ؟ أفى الأمر جريمة ؟

ـ أركادى !

نطق فاسيا بذلك ، ونظر الى صديقه نظرة فيها من التعبير ما جعـل أركادى يرتعش ، لأنه لم ير صديقة فى يوم من الأيام نهبا لقلق يبـلغ هذا المبلغ من الشدة •

وتابع فاسيا يقول :

ـ أركادى •• لو كنت وحيدا ، كما كنت كذلك فى الماضى •••

لا .. ليس هذا ما أردت أن أقوله .. اننى أشعر دائما بالحاجة الى أن أفضى اليك بما يعتلج فى نفسى ، وأن أبوح لك بكل شىء ، كما يبوح صديق لصديقه..ولكن فيم اقلاقك وازعاجك ؟ بعض الناس ، يا أركادى، قد وهب لهم فى هذه الحياة شىء كثير ، بينما لم يوهب لغيرهم ، مثلى أنا ، الا أن يقوموا بمهمة هينة الشأن . قل لى : ما عساك تفعل لو كان عليك أن تبرهن على امتنانك ، على شكرك ، ثم رأيت نفسك عاجزا عن ذلك ؟

ـ لا أفهمك يا فاسيا !

تابع فاسيا يقول بصوت خافت كأنه يخاطب نفسه :

ـ لم أكن فى يوم من الأيام عاقا ينكر الجميل ، ولكننى عاجز عن التعبير عن كل ما أشعر به ... ذلك يا أركادى .. أمر يشعرنى بأننى عاق فى الواقع ، وهذا بعينه هو ما يقتلنى قتلا .

ـ ما هذا الكلام يا فاسيا ؟ أأنت تظن حقا أن كل امتنانك يجب أن يكون بتقديم منسوختك فى المهلة المحددة ؟ هلا راقبت نفسك يا فاسيا ؟ ما هذا الذى تقوله ؟ أبهذا يعبِّر المرء عن شكره ؟

صمت فاسيا فجأة محملقا فى أركادى ، كأن هذه الحجة التى لم يكن يتوقعها قد بددت شكوكه . حتى لقد ابتسم ، ولكن وجهه لم يلبث أن استرد تعبيره عن التفكير .

رأى أركادى فى هذه الابتسامة دليلا على أن جميع المخاوف قد زالت ، ورأى فى الهم الذى أعقب الابتسامة دليلا على أن صاحبه قد اتخذ قرارا جديدا ، فابتهج لذلك ابتهاجا عظيما .

قال فاسيا :

ـ طيب يا أركاشا ؛ اذا اتفق ان استيقظت ، فألق نظرة على . لسوف

يكون الأمر كارثة اذا نمت • والآن سأكب على العمل • أركاشا !

ـ ماذا ؟

ـ لا ••• لا شيء •• وانما أردت ••

استقر فاسيا على كرسيه صامتا ، ورقد أركادى على فراشه ، ولم ينطق هذا ولا ذاك بكلمة عن جماعة كولومنا ، ولعلهما كانا يشعران كلاهما بأنهما آثمان لأنهما « بذّرا » فى غير أوان التبذير • نام أركادى بعد قليل ، وهو ما يزال قلقا على فاسيا • وما كان أشد دهشته حين لم يستيقظ الا بعيد الساعة السابعة • كان فاسيا نائما على كرسيه ، ممسكا ريشته بيده • انه أصفر الوجه متعب • وكانت الشمعة قد ذابت الى النهاية • وفى المطبخ كانت مافرا تتحرك حول السماور •

صاح أركادى مروعا :

ـ فاسيا ، فاسيا ، فى أية ساعة نمت ؟

فتح فاسيا عينيه ، ونهض عن كرسيه بوثبة ، قائلا :

ـ اذن لقد نمت مع ذلك •

وأسرع الى أوراقه ، ولكن كل شيء كان على خير حال ، فلا بقع حبر ، ولا بقع دهن من الشمعة •

قال فاسيا :

ـ أظن أننى نمت فى نحو الساعة السادسة • ما كان أشد البرد فى الليل ! سنشرب الشاى ، ثم استأنف العمل •

ـ هل ارتحت قليلا ؟

ـ نعم ، أشعر الآن بتحسن •

ـ عاما سعيدا يا عزيزى فاسيا .

ـ صباح الخير يا صاحبى .. عاما سعيدا لك أيضا .

وتعانق الصديقان . كانت ذقن فاسيا ترتجف ، وكانت الدموع تترقرق فى عينيه . وأركادى لا يقول شيئا . انه يشعر بمرارة شديدة . تناول الصديقان الشاى على عجل .

ـ أركادى ! قررت أن أذهب الى جوليان ماستاكوفتش بنفسى .

ـ ولكنه لن يعلم بذلك .

ـ ضميرى يدفعنى الى ذلك يا صاحبى .

ـ أنت تسهر فى سبيله ، وترهق نفسك من أجله ... أما أنا يا صاحبى ، فسأذهب لحظة الى هناك ...

ـ الى أين ؟

ـ الى أسرة أرتمييف ، أقدم لهم تمنياتى وتمنياتك .

هتف فاسيا يقول :

ـ ما أحسنها فكرة يا صديقى العزيز . سأبقى أنا فى البيت ، وتذهب أنت اليهم ... فكرة رائعة .. لا عن اهمال منى لهم طبعا ، بل لأننى أعمل . انتظر ، سأحمّلك اليهم رسالة قصيرة .

ـ على مهلك يا عزيزى ! سأغسل وجهى أولا وأحلق ذقنى وأنظف ردائى . هل رأيت يا صاحبى فاسيا ؟ لسوف نكون مبتهجين سعيدين مع ذلك ! قبلنى يا صاحبى !

ـ ليت هذا يكون صحيحا يا صديقى !

وهنا دوى صوتٌ على فسحة السلم أمام الباب :

ـ هل هنا يسكن السيد الموظف شومكوف ؟

أجابت مافرا ، وهى تدع للزائر أن تدخل :

ـ نعم هنا ياسيدى •

صاح فاسيا وهو يهرع نحو حجرة المدخل :

ـ ماذا هناك ؟ من ؟

ـ يومك سعيد يا فاسيلى بتروفتش • يشرفنى أن أتمنى لك عاما طيبا سعيدا •

كذلك قال صبى لطيف أسمر ، فى نحو العاشرة من عمره ، مضفور الشعر • وأضاف الصبى يقول :

ـ أختى تبعث اليك بتحياتها ، وكذلك ماما • وقد كلفتنى أختى بأن أقبلك •

أنهض فاسيا الرسول الصغير فى الهواء ، وطبع قبلة طويلة حارة على شفتيه اللتين تشبهان كثيرا شفتى ليزانكا • ثم قال لصاحبه أركادى وهو يمد اليه بتيا :

ـ قبّله يا أركادى •

فانتقل الصبى ، دون أن يلامس الأرض ، الى الذراعين القويتين الحانيتين ، ذراعى أركادى ايفانوفتش •

ـ هل لك بقليل من الشاى يا حبيبى ؟

ـ شكرا كثيرا• لقد أفطرنا• استيقظنا فى ساعة مبكرة هذا الصباح• ماما وأختى ذهبتا الى الكنيسة • أختى غسلتنى وألبستنى ومشطتنى خلال

ساعتين • وخاطت ما تفتق أمس من سروالى فى الشارع حين لعبت مع ساكشا بالثلج تتراشق كراته •••

ـ هكذا ؟

ـ نعم ، ألبستنى وجملتنى لأجىء اليك • ثم قبلتنى مائة مرة وقالت لى : « اذهب الى فاسيا ، وهنئه بعيد رأس السنة ، واسأله هل هو راض سعيد ، وهل نام نوما هادئا مريحا •• » ، وطلبت منى أن أسألك أيضا هل أنجزت العمل الذى •• ولكنى سجلت ما طلبته منى على ورقة صغيرة (هكذا قطع الفتى كلامه ثم أخرج من جيبه ورقة وقرأ : ••• العمل الذى كان يشغل بالك • » •

ـ نعم •• نعم ، سينجز •• سينجز حتما ! لا تنس أن تقول لها اننى سأنجزه قطعا ، بشرفى !

ـ نعم •• ها •• كدت أنسى •• حملتنى أختى اليك رسالة قصيرة وهدية •• كدت أنسى أن أعطيكهما !

ـ أين هما يا حبيبى ؟ أين هما ؟ شكرا •• اسمع يا أركاشا ماذا تقول لى ليزانكا الغالية ••• أنت تعلم اننى رأيت هناك أمس محفظة ستهدى الى • ان المحفظة لما يكمل شغلها بعد • لذلك تقول ليزانكا : « أبعث اليك بخصلة من شعرى • أما الهدية الأخرى فسوف تستلمها بعد مدة قصيرة • » • أرأيت يا صاحبى ؟

قال فاسيا ذلك وقد جُن فرحا ، وهو يُرى صديقه خصلة شعر أسود رائع • قبّل فاسيا خصلة الشعر ، ثم أودعها جيبه قرب القلب •

قال أركادى بلهجة حازمة :

ـ سوف أوصى لك بنيشان لهذه الخصلة •

قال الصبى :

ـ وسنأكل شواء ومخا فى الغد • وقد أرادت أمى أن تصنع شيئا من البسكويت ••• ولكنها لم تجد دقيقا (كذلك استرسل الصبى فى كلامه بعد أن تردد قليلا وهو لا يعرف كيف يكمل ثرثرته) •

صارح أركادى ايفانوفتش :

ـ ما ألطف هذا الصبى • أنت يا فاسيا أسعد أهل الأرض طرا ، ما فى ذلك ريب !

شرب الزائر الصغير نصيبه من الشاى ، وأخذ من فاسيا رسالة الى أخته ، وقبّل ألف مرة ، ثم انصرف خفيف الخطى مشرق المزاج كما جاء •

قال أركادى فرحا :

ـ هل رأيت يا صاحبى ؟ ان الأمور جميعها تجرى على ما نحب • فلا تحزن وخاصه لا تدع لخور العزيمة أن يتسرب اليك ! الى الأمام ! أنجز عملك يا فاسيا ! سأعود فى الساعة الثانية • أذهب اليهم أولا ، ثم أذهب الى جوليان ماستاكوفتش •

ـ الى اللقاء يا صديقى الى اللقاء ! آه ••• ليتنى فقط •• طيب •• اذهب •• أما أنا فقد قررت : لن أذهب الى جوليان ماستاكوفتش •

ـ الى اللقاء •

ـ انتظر يا صاحبى •• قل لهم•• الخلاصة •• قل لهم ما تستحسن أن نقوله •• وقبّلها •• وستحكى لى كل شىء بعد ذلك يا صاحبى ، ستصف لك كيف جرت الأمور •••

ـ طبعا • ثم انتى أعرف الان ماذا أصابك أمس : ان السعادة هى التى شوشتك ذلك التشويش كله •• منذ أمس حالتك غير طبيعية ••• انك لما تتخلص من مشاعر الامس • أما الآن فقد انتهى كل شىء • عد الى هدوئك يا فاسيا •• الى اللقاء •• الى اللقاء ! ••

افترق الصديقان أخيرا • ظل أركادى ايفانوفتش ذاهلا طوال الصباح • كان لا يفكر الا فى فاسيا • انه يعرف طبيعته الضعيفه السريعة الى الهيجان •

قال أركادى لنفسه : « نعم لقد أقلقت هذه السعادة نفسه اقلاقا كاملا ذلك واقع لا شك فيه • وما أشد ما أحزنتنى أيضا • ان الانسان قادر على أن يجعل من أيسر الأمور مأساة ضخمة ! ما هذه الحمى التى انتابته ؟ لا •• لا •• يجب انقاذه •• يجب انقاذه حتما » • كذلك كان يردد أركادى دون أن يلاحظ أن هموما منزلية صغيرة يسيرة قد تضخمت فى قرارة نفسه هو حتى صارت فى نظره أشبه بكارثة !

لم يدخل أركادى حجرة حاجب جوليان ماستاكوفتش الا فى الساعة الحادية عشرة ، ليضيف اسمه المتواضع الى العمود الضخم الذى تؤلفه أسماء شخصيات مرموقة تغطى ورقة بكاملها مبقعة بالحبر • فما كان أشد دهشته حين رأى فوق توقيعه توقيع فاسيا شومكوف بخط يده ! سعر أركادى باضطراب شديد • « ماذا يحدث فى رأسه ؟ » كذلك تساءل وهو يزداد احمرارا من فرط القلق • اخنفت آماله المشرقة • أدرك أن هناك نازلة تهم أن تقع • ولكن أين عساها تقع وكيف ؟

ووصل الى كولومنا متجهم النفس • كان يبدو فى أول الأمر خائفاً على فاسيا حقا • أسرع يعود الى البيت راكضا • ولكن ها هو ذا ، على جليد نهر نيفا ، يصطدم بشكوموف ، أنفا بأنف • كان هذا يركض هو أيضا •

صاح أركادي يسأله :

ــ الى أين أنت ذاهب ؟

وقف فاسيا وقفة من قبض عليه متلبسا بالجرم ، وقال :

ــ خ •• خرجت أقوم بجولة قصيرة •

ــ لم تستطع أن تستقر فى مكانك ، هه ؟ أنت ذاهب الى كولومنا أليس كذلك ؟ يا فاسيا •• يا فاسيا ! ثم لماذا ذهبت الى جوليان ماستاكوفتش ؟

لم يجب فاسيا بشيء • وفجأة حرك يده باشارة يأس وقال :

ــ أركادى •• لا أعرف ماذا يحدث فى نفسى •• اننى ••

ــ هيا هيا ، يا فاسيا •• أنا أعرف ، أنا أعرف ماذا • هدىء نفسك• أنت مهتاج مضطرب منذ أمس • وكيف يمكن أن يكون المرء غير ذلك لو كان فى مكانك ؟ ولكنهم جميعا يحبونك ، وهم جميعا يدارونك ، وستنجز عملك حتما ، ستنجزه ، أحلف لك • ان فى ذهنك وساوس غريبة ، ومخاوف غامضة •• هل أدرى ؟

ــ لا •• لا شيء ••

ــ هل تتذكر يا فاسيا ؟ لقد مررت بحالة نفسية كهذه حين حصلت على تعيينك • فقد جننت يومئذ فرحا ، فأخذت تجوّد خطك أكثر مما اعتدت أن تجوده ، فاذا أنت خلال ثمانية أيام لا تزيد على أن تفسد عملك ! والآن يحدث لك هذا الشيء نفسه !

ــ نعم نعم يا أركادى ، ولكن الامر الآن مختلف !

ــ كيف •• مختلف ؟

ــ لا •• لا •• لا قيمة لهذا •• لنعد الآن الى المنزل !

ـ ألا تريد أن تذهب اليهم ؟

ـ لا ياصاحبى •• هل أستطيع أن أدخل عليهم بهذه السحنة ؟ لقد غيرت رأيى •• اذا لم أستطع أن أبقى فى البيت ، فلأنك لم تكن معى ، أما وقد عدت ، فسأستأنف الكتابة ! هيا بنا !

سارا بعض الوقت صامتين • وكان فاسيا مسرع الخطو •

قال أركادى ايفانوفتش :

ـ ألا تريد أن تسألنى عن أخبارهم ؟

ـ ها •• نعم •• كيف كان الحال ؟

ـ فاسيا •• انك تخيفنى !

ـ لا •• لا •• لا شىء •• احك لى كل شىء ، هل تريد ؟

قال فاسيا ذلك بصوت ضارع ، كمن يريد أن يتحاشى الشروح المملة المضجرة •

تنهد أركادى ايفانوفتش • واضح أنه أصبح ، وهو يتأمل فاسيا ، لا يدرى ماذا يعمل ولا كيف يتجه •

روى أركادى لصديقه تفاصيل زيارته ، فبدا على فاسيا أنه يفيق من ذهوله ، حتى لقد أصبح كثير الكلام • وتناول الصديقان غداءهما • وكانت الأم العجوز قد حشت جيوب أركادى ايفانوفتش بالبسكويت ، فلما أخذ الصديقان يقضمانها انتعشت روحاهما وعاد اليهما مرحهما • وبعد الغداء ، وعد فاسيا بأن ينام قليلا حتى يستطيع السهر طول الليل • وها هو ذا يستلقى على فراسه فعلا • وكان أحد الناس الذين لا يمكن أن ترفض دعوتهم قد دعا أركادى ايفانوفتش فى الصباح أن يجىء لشرب الشاى عنده • فافترق الصديقان • وقرر أركادى أن يعود الى البيت

باقصى سرعة ، فى الساعة الثامنة اذا أمكن ذلك . بدت له الساعات الثلاث التى غاب أثناءها عن البيت كأنها ثلاث سنين ؛ واستطاع أن يتحرر أخيرا فهرول يعود الى المنزل . فلما دخل الغرفة لاحظ أنه ليس فيها نور . ثم لم يجد فاسيا . فلما سأل مافرا قالت انه ظل يكتب طول الوقت ، وانه لم يرقد فى فراشه ، وانه أخذ بعد ذلك يسير فى الغرفة طولا وعرضا ، ثم فى نحو الساعة الواحدة ، أسرع يخرج قائلا انه عائد بعد نصف ساعة . وختمت مافرا حكايتها بقولها : « وقد طلب منى أن أقول لك ، متى رجعت ، انه خرج يتنزه قليلا ، وقد كرر هذا الطلب ثلاث مرات أو أربعا .

قال أركادى لنفسه وهو يهز رأسه : « انه عند أسرة أرتمييف » .

وبعد دقيقة نهض عن كرسيه بوثبة . لقد لمع فى قلبه أمل . قال لنفسه : « أغلب الظن أنه أنجز الكتابة ، فلما لم يستطع بعد ذلك أن يبقى فى البيت ، هرع الى هناك .. ولكن لا .. لو صح ذلك لانتظرنى ... سوف ألقى نظرة على عمله . »

أشعل شمعة وأسرع الى مكتب فاسيا . لقد تقدم فاسيا فى عمله ؛ ويبدو أنه يوشك أن ينهيه . وفيما كان أركادى ايفانوفتش يريد أن يستمر فى تحرياته ، اذا بفاسيا يدخل فجأة ..

صاح مذعورا :

ـ أأنت هنا ؟

صمت أركادى ايفانوفتش . لقد خاف أن يلقى أسئلة على فاسيا . وأخذ فاسيا ، هو أيضا ، يقلب أوراقه خافضا بصره . والتقت نظرات الشابين أخيرا . فكان فى نظرات فاسيا من التعبير عن الفاجعة والضراعة ما جعل أركادى يرتعش . لقد فاض قلبه شفقة ورحمة .

صاح وهو يسرع الى صديقه ويضمه بين ذراعيه :

ـ فاسيا، عزيزى ، ماذا بك ؟ ماذا حدث لك ؟ صارحنى .. أصبحت لا أفهمك ، لا أفهم ما أنت فيه من حزن ! ماذا بك يا عزيزى ؟ ماعذابك؟ قل لى كل شىء ، لا تخف عنى شيئا . لا يعقل أن يكون هذا الأمر وحده هو الذى ...

شد فاسيا جسمه الى صاحبه ، ولكنه لم يستطع أن ينطق بكلمة . كان حلقه يختنق، وكانت أنفاسه محبوسة .

ـ مابك يا فاسيا ؟ هلا انتهيت ؟ أى شقاء حل بك ؟ اننى لا أفهم يا فاسيا ! قل لى : ما الذى يقلقك هذا الاقلاق كله ؟ أنت تعلم أننى فى سبيلك ، أستطيع أن ... آه يا رب يا رب ! (كذلك أخذ يردد أركادى وهو يمشى فى الغرفة طولا وعرضا ، يمسك تارة بشىء ، ويمسك تارة بشىء آخر ، كأنه يبحث لفاسيا من دواء مباشر) . سأذهب غدا بنفسى الى آخر ، كأنه يبحث لفاسيا عن دواء سريع) . سأذهب غدا بنفسى الى جوليان ماستاكوفتش ، فأتوسل اليه أن يمهلك يوما آخر . سأشرح له كل شىء ، كل شىء ، اذا كان هذا هو ما يقلقك الى هذا الحد حقا ...

صاح فاسيا وقد اصفر وجهه ، وترنح حتى ليكاد لا يستطيع الثبات على قدميه :

ـ اياك !

ـ فاسيا ! فاسيا !

ثاب الفتى الى رشده . كانت شفتاه تختلجان . أراد أن يقول شيئا ، ولكنه لم يفعل ، بل اكتفى بأن شد على يد أركادى بحركة عصبية متشنجة . كانت يده باردة . وكان أركادى واقفا أمامه وقد استبد به هم رهيب . ومرة أخرى نظر اليه فاسيا متفرسا .

ـ فاسيا .. ما بك يا عزيزى المسكين فاسيا ؟ انك تمزق قلبى يا عزيزى ، يا صديقى البائس ..

تمتم فاسيا يقول :

ـ لقد خدعتك يا أركادى .. لقد خدعتك ! اغفر لى ، سامحنى.. لقد كذبت عليك ...

كذلك قال أركادى مذعورا مروعا .

ـ أنظر !

قال فاسيا ذلك ، وأخرج من الدرج ستة دفاتر ضخمة ، شبيهة بالدفتر الذى كان ينسخه ، ثم رماها واحدا واحدا على المائدة ، وقد بدا على وجهه يأس شديد .

ـ ما هذا ؟

ـ هذا هو العمل الذى يجب أن أفرغ منه بعد غد . وأنا لم أنجز حتى الآن ربعه . لا تسألنى كيف حدث هذا (كذلك تابع فاسيا كلامه يشرح من تلقاء نفسه الموضوع الذى يقلقه) . أركادى ، صديقى ! لا أدرى ما الذى أخذنى عن نفسى .. لكأننى أخرج الآن من حلم . لقد ضيعت ثلاثة أسابيع كاملة . كنت أذهب كل يوم ... اليها .. كان قلبى يتمزق ... كنت أعانى عذابا شديدا .. من عدم الثقة ... ولم أستطع أثناء ذلك أن أكتب شيئا .. حتى لقد كانت الكتابة لا تخطر لى على بال. ولم أستيقظ الا الآن ، أى حين جاءتنى السعادة .

قال أركادى ايفانوفتش بلهجة حازمة :

ـ فاسيا •• سوف أنقذك • فهمت الآن كل شيء • الأمر خطير • سوف أنقذك • اصغ الي : سوف أذهب الى جوليان ماستاكوفتش غدا ؛ لن أتأخر عن الغد • بل اصغ الي • سوف أحكى له كل شيء • اسمح لى أن أفعل ذلك •• سوف أشرح له كل شيء ، مسترسلا حتى النهاية • سوف أقول له كيف أنك تقتل نفسك •

قال فاسيا وقد جمده الرعب :

ـ هل تعلم أنك تقتلنى منذ الآن ؟

اصفر وجه أركادى ايفانوفتش ، ولكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه ، فانفجر يضحك قائلا :

ـ حقا ؟ هيا هيا يا فاسيا •• ألا تستحى ؟ اسمع : أنا أرى أننى أضايقك • وأنا أفهمك • أنا أعرف ما يجرى فى نفسك • لقد انقضى على سكنانا معا خمس سنوات • أنت انسان طيب القلب ، مرهف الشعور، ولكنك ضعيف جدا ، ضعيف ضعفا يدعو الى اليأس • ليزافيتا ميخائيلوفنا لاحظت هى نفسها ذلك • وأنت فوق هذا انسان حالم ••• وليس فى ذلك خير أيضا • فاذا واصلت سيرك على هذا النحو كنت تتعرض للجنون يا صاحبى • اسمع • أنا أعرف ماذا تريد • أنت تتمنى مثلا أن يطير صواب جوليان ماستاكوفتش فرحا ، بل وأن يقيم حفلة راقصة ، احتفالا بزواجك • انتظر قليلا • هأنت ذا تصعر وجهك اذ ساءك أن آتى على ذكر جوليان ماستاكوفتش ! طيب ••• دعنا منه • لاحظ مع ذلك أننى أحترمه كما تحترمه ! ولكنك لن تستطيع أن تبرهن لى على نقيض ما أقول ، ولن تستطيع أن تمنعنى من الاعتقاد بأنك ترى أنه ما ينبغى أن يكون على وجه الأرض أشقياء ما دمت تتزوج أنت ••• صادق على ما أقول يا صاحبى •• انك تود أن أصبح ، أنا خير صديق لك ، رأسماليا على حين

فجأة ، أن أملك آلف روبل ؟ تتمنى آن يتصافح جميع الناس الذين يكره بعضهم بعضاً فى هذه الحياة الدنيا ، فاذا هم يتعانقون فى وسط الشارع ، ثم اذا هم يجيئون يزورونك هنا .. يا عزيزى ، يا صديقى الطيب ، لست أسخر منك .. أبدا .. ولكن الأمر كذلك . انك تعرض على نظريات من هذا القبيل منذ زمن طويل ، على تنوع فى صور هذه النظريات ! ... فلأنك سعيد ، تريد أن يصير جميع الناس سعداء بين عشية وضحاها . يؤلمك أن تكون وحدك سعيدا . لذلك تبذل جهدا كبيرا من أجل أن تكون جديرا بهذه السعادة . لا شك أنك مستعد للقيام بعمل بطولة ، لا لشىء الا لترضى ضميرك !.. طيب.. أنا أفهم أن تكون مستعدا لتعذيب نفسك تعذيبا روحيا كبيرا ، معاقبة لنفسك على أنها خارت حيث كان ينبغى أن تنشط .. أو حيث كان ينبغى أن « تعترف بالجميل » على حد تعبيرك ! فحين تتصور أن جوليان ماستاكوفتش سيصعر وجهه اذ يدرك أن الآمال التى عقدها عليك لم تكن فى محلها تنهار قواك وتقلق قلقا رهيبا . انك تتألم حين تتصور أنك ستسمع لوما من فم الانسان الذى تعده محسنا اليك وأنك ستسمع هذا اللوم فى لحظة يكون فيها قلبك طافحا فرحا وسعادة ، وفى لحظة تكون فيها أنت لا تدرى لمن تظهر شكرك وتعبر عن امتنانك . ألست على حق ! أليس الأمر كذلك ؟

أخذ صوت أركادى ايفانوفتش يرتجف، فتوقف عن الكلام وتنفس تنفسا قويا .

وكان فاسيا ينظر الى صديقه فى رقة وحنان . وارتسمت على شفتيه ابتسامة .

كأن طيفا من أمل قد مر بوجهه . فتشجع أركادى لهذه النتيجة ، فاستأنف كلامه يقول :

— اسمع يا فاسيا . ما ينبغى لجوليان ماستاكوفتش أن يمنع عنك الآن ما كان يحمله لك من عطف . أليس كذلك يا صديقى ؟ أليست هذه هى المسألة ؟ فاذا كانت هذه هى المسألة ، فسأضحى أنا بنفسى (قال ذلك وهو يهب واقفا) .. سأذهب الى جوليان ماستاكوفتش غدا .. ولكن لا تعارضنى ! ذلك أنك يافاسيا تضخم خطأك فتجعله جريمة ! مع أن جوليان ما ستاكوفتش انسان كبير النفس رحيم القلب . ثم انه ليس مثلك أبدا . سوف يصغى الى كلامنا يا عزيزى فاسيا ، فينقذنا من المأزق .. هل هدأت الآن ؟

شد فاسيا على يد أركادى والدموع فى عينيه . ثم قال :

— طيب يا أركادى ، دعنا من الحديث فى هذا الموضوع الآن ! لقد حلت المشكلة .. لم أنجز العمل .. طيب .. لم أنجزه .. تأخرت .. هذا كل شىء . لا داعى الى أن تزعج نفسك . سأذهب اليه بنفسى ، فأشرح له الأمر .. لقد هدأت نفسى الآن ، واطمأن بالى اطمئنانا كاملا . ولكن لا تذهب اليه .. أطعنى ..

هتف أركادى يقول فرحا :

— فاسيا ، عزيزى . أنا لم أقل ما قلته الا استنادا الى كلامك نفسه . يسعدنى أنك هدأت بالا وطبت نفسا . تذكر مع ذلك أننى الى جانبك دائما ، مهما يحدث . ان فكرة تحدثى الى جوليان ماستاكوفتش تخيفك .. طيب .. لن أكلمه أنا ، بل تكلمه أنت ذاكرا له كل شىء . تذهب اليه غدا .. أو تبقى أنت فى البيت لتكتب ، وأمضى أنا أستطلع الخبر اليقين فى المكتب : هل الأمر مستعجل حقا أو لا ؟ هل يجب تسليم العمل فى تاريخ محدد قطعا ؟ وما هى النتائج التى تترتب على تأخر قد يحدث ؟ ثم أعود اليك بأقصى سرعة ممكنة أحمل اليك الخبر اليقين . هل رأيت

الآن أن هناك أملا ؟ قد لا يكون الأمر مستعجلا . ان فى وسعنا أن نتخلص من المأزق عندئذ فى يسر . وقد لا يطلب اليك جوليان ماستاكوفتش تسليم العمل فى اليوم المحدد له ؟ ان كل شيء يكون عندئذ قد أنقذ .

هز فاسيا رأسه علامة الشك والريب ، ولكنه ظل يلقى على صديقه نظرة شكر واعتراف بالجميل .

قال لاهنا :

ـ دعنا من هذا الموضوع الآن ! اننى ضعيف جدا ، متعب جدا ، فلا أحب أن أفكر في هذا الموضوع قط . هلا تكلمنا فى شيء آخر ؟ ثم اننى أوثر أن لا أعمل الآن .. لن أنسخ الا صفحة أو صفحتين ، أى الى أن أبلغ فاصلا ما .. اسمع يا فاسيا : اننى أريد منذ مدة طويلة أن ألقى عليك هذا السؤال : كيف استطعت أن تعرفنى هذه المعرفة الصحيحة الصادقة ؟

وتساقطت دموع فاسيا على يدى أركادى .

قال أركادى :

ـ لو عرفت يا فاسيا مدى حبى لك وتعلقى بك لما ألقيت علىّ سؤالا كهذا السؤال .

ـ نعم يا أركادى أنا لا أعرف ذلك ، لأننى .. لأننى أجهل لماذا تحبنى هذا الحب كله . هل تعلم يا أركادى أن ما تحمله لى من حب قد عذبنى كثيرا ؟ هل تعلم أننى فى كثير من الأحيان ، ولا سيما فى المساء ، حين أفكر فيك (وأنا أفكر فيك دائما لحظة أستلقى على فراشى لأنام) ، أهمُّ أن أبكى وأشعر بارتجاف فى قلبى لأننى .. لأننى .. لأنك تحبنى هذا الحب كله ، ثم أنا عاجز عن أن أفتح قلبى وأن أبرهن لك على امتنانى .

ـ هل رأيت يا فاسيا ماذا أنت ؟ هدىء نفسك اذن هاأنت ذا تضطرب اضطرابا شديدا من جديد ! (لاحظ أركادى ذلك وهو يرتجف لذكرى المشهد الذى جرى الليلة البارحة فى الشارع) .

ـ دعك من هذا الكلام يا صاحبى ! تريد منى أن أهدأ وانا لم ا لن فى يوم من ايام حياتى أهدأ منى الان ولا أسعد ! لشد ما تمنيت أن احكى لك كل شيء ، ولكننى أخاف دائما أن أسبب لك ألما . فانت تقلق على ، فتصيح وتخيفنى .. أنظر .. حتى فى هذه اللحظة ارتجف .. لا أدرى لماذا ؟ اليك ما أحب أن أقوله لك : يخيل الى أننى كنت فى الماضى اجهل نفسى .. أما الآخرون فاننى لم أعرفهم ولم أفهمهم الا منذ أمس . كنت حتى هذا اليوم لا أفهم .. ولا أقدّر .. كان قلبى جافا يابسا . اليك كيف حدث ذلك : أنا لم أستطع أن أحسن الى أحد فى يوم من الأيام ، لأننى كنت عاجزا عن أن أحسن الى أحد .. فحتى مظهرى ليس فيه ما يبهج النظر .. ومع ذلك كان جميع الناس يحملون لى عاطفة طيبة ! وأنت أولهم .. طبعا .. أما أنا فلم يكن فى وسعى أن أفعل شيئا غير أن أصمت !

قال أركادى :

ـ ما هذا يا فاسيا ؟ فاسيا ... ماهذا ؟

فقاطعه فاسيا بقوله ، وهو لا يكاد يستطيع أن يلفظ كلماته من كثرة الدموع التى تخنق صوته :

ـ ماذا ؟ لا شيء .. أمس ، كلمتك عن جوليان ماستاكوفتش . أنت تعلم أنه قاس بل انه فاتم النفس ، وأنه فرعنى عدة مرات . ولكن ها هو ذا يخطر بباله أمس أن يمازحنى ، وأن يكون لطيفا معى ، وأن يظهر طيبة قلبه ، تلك الطيبة التى يخفيها اخفاء عاقلا حكيما عن الآخرين .

ـ طيب يا فاسيا ! .. ان دل هذا على شىء ، فانمـا يدل على أنك جدير بسعادتك .

ـ آه يا أركاشا ! لشد ما أتمنى لو أستطيع انجاز هذا العمل ! .. لا .. ان سعادتى ستتحطم .. أنا أوجس ذلك ! .. ولكن لابسبب كذلك فاطع نفسه اذ لاحظ أن أركادى يختلس النظر الى كـومة ر المتكدسة على المائدة قناطير) .. لا بسبب هذا .. هذا لا شىء .. هذا الا ورق .. ترهات .. هذه المسألة قد حـلّـت .. أركاشا ، لقد ـبت اليها اليوم .. لكننى لم أدخـل . كان قلبى مثقـلا ، يفيض حزنا ومرارة ! لبثت واقفا أمام الباب بعض الوقت . كانت تعزف على البيانو ست .. أرأيت يا أركادى ؟ لم أجرؤ أن أدخل .

هكذا أنهى فاسيا كلامه بصوت خافت .

ـ ما بك يا فاسيا ؟ انك تنظر الىّ نظرة غريبة .

ـ لا شىء .. لا شىء .. أشـعر بأننى مريض قليـلا .. سـاقاى لان .. ذلك لأننى سهرت طول الليل . نعم ، وان شرارات خضراء ع أمام عينى .. هنا انما ....

قال فاسيا ذلك مشيرا الى قلبه ، ثم أغمى عليه .

فلما أفاق من غشيته أراد فاسيا أن يتخذ اجراءات حاسمة . كان ا لأن يرقده فى فراشه بالقوة . ولكن فاسيا احتج احتجاجا عنيفا . الآن يبكى ويعض يديه ويصر اصرارا قاطعا على أن ينجز الصفحتين. مح له أركادى أن يقترب من المائدة حتى لا يسرف فى معارضته .

قال فاسيا وهو يجلس الى مكتبه :

ـ اسمع .. عندى فكرة .. هناك أمل ..

وابتسم فاسيا لصاحبه ، فكان وجهه الشاحب يضيئه شعاع من أمل حقا . وتابع كلامه يقول :

ـ اليك ما عقدت النية عليه . لن أحمل اليه بعد غد الا جزءا ... أما الباقى فسألفق من أجله حجة ما .. أقول مثلا انه احترق ، او انه تبلل أو انه ضاع أو أقول له اننى لم أستطع أن أكمله .. ذلك أننى لا أستطيع أن أكذب .. سأشرح له كل شيء بنفسى . هل تعلم ؟ سأروى له كل شيء .. سأقول له مثلا : لم أستطع وكفى ! سأحدثه عن حبى . لقد تزوج هو نفسه منذ زمن طويل . سوف يفهمنى ! طبعا سأتكلم بهدوء ، واحترام .. وسوف يرى دموعى ، فيتأثر قلبه .

ـ طيب .. اذهب اليه ، قابله ، اشرح له .. ولكن لا فائدة من الدموع يا فاسيا ! لماذا البكاء ؟ أؤكد لك يا فاسيا أنك تثير فى نفسى ذعرا رهيبا .

ـ نعم نعم ، سأذهب اليه . أما الآن فدعنى أكتب ، دعنى أكتب يا أركاشا . لن أسيء الى أحد . ولكن دعنى أكتب .

ارتمى أركادى على سريره . واضح أنه فقد اطمئنانه الى فاسيا ، وثقته به . ان فاسيا لن يتورع عن شيء .. لماذا طلب العفو ، وكيف ؟ ليست هذه هى المسألة فى الواقع . المسألة هى أن فاسيا لم يف بالتزاماته ، فهو يشعر من ذلك بأنه مذنب فى حق نفسه . هو يشعر بأنه عاق مع القدر . يشعر أنه غير جدير بسعادته ، فهذه السعادة هى التى تهز نفسه وتحطمها وتقلبها رأسا على عقب . انه لا يبحث الا عن حجه لينحرف الى هذا الاتجاه . انه لما يثب من دهشته بالأمس . قال أركادى فى داخله : « هذه هى المسألة . يجب أن نصالحه مع نفسه ؟ انه بسبيل تأبين نفسه.. »

وبعد أن اجتر أركادى ايفانوفتش المسألة طويلا ، قرر أن يذهب منذ الغد الى جوليان ماستاكوفتش دون ابطاء ، فيروى له كل شيء .

وكان فاسيا يكتب . واستلقى أركادى على السرير من جديد ، وقد هده التعب ، من أجل أن يتأمل فى الأمر مرة أخرى . فاذا هو ينام ثم لا يستيقظ الا فى الفجر .

فلما ألقى نظرة على أركادى ، رأى أنه ما يزال يكتب ، فهتف يقول :

– هوه .. ألى الآن ؟

وهب أركادى نحو صديقه ، فأحاطه بذراعيه وقاده الى السرير بالقوة . كان فاسيا يبتسم . وكانت أجفانه تطبق من شدة التعب . انه لا يكاد يستطيع الكلام . قال :

– كنت أنوى من تلقاء نفسى أن أرقد . هل تعلم يا أركادى ؟ عندى فكرة . سأنجز عملى . لقد استعجلت فى الكتابة . ولكننى تعبت الآن . أيقظنى فى الساعة الثامنة ...

وما كاد ينهى جملته حتى نام .

همس أركادى مخاطبا مافرا التى كانت آتية بالشاى :

– انه يطلب ايقاظه بعد ساعه . ولكن اياك أن توقظيه ! فلينم عشر ساعات اذا أراد . هل فهمت ؟

– فهمت يا سيدى .

– لا تحضرى غداء ولا تحدثى ضوضاء . الضوضاء خاصة ... حاذرى الضوضاء .. اذا سأل عنى فقولى له اننى ذهبت الى المكتب . هل فهمت ؟

– فهمت يا سيدى .. فلينم ما شاء أن ينام .. ماذا يضيرنى هذا . ان نوم سيدى يسرنى .. وأنا أحافظ على ما يملكه أسيادى . أما الفنجان الذى كسرته أمس فقرعتنى من أجله ، فلم أكسره أنا ، بل كسرته القطة

مانكا • كل ما هنالك أننى لم أنتبه اليها •• وحين طردتها كان قد فات الأوان •

ـ هست •• اسكتى !

صرف أركادى الخادمة الى المطبخ ، وطلب منها المفتاح ، فأقفل به الباب ، ثم ذهب الى مكتبه • وتساءل فى الطريق كيف يجب أن يفعل حتى يمثل أمام جوليان ماستاكوفتش ؟ أليس فى هذا افراطاً فى الجرأة منه ؟ ودخل المكتب ، فسأل وجلا هل صاحب السعادة موجود • فقيل له انه غير موجود ، وانه لن يأتى فى هذا اليوم • فأراد أركادى ايفانوفتش فى أول الأمر أن يذهب الى منزله الخاص ، ولكنه سرعان ما انتهى الى أن جوليان ماستاكوفتش لا بد أن يكون مشغولا فى منزله ما دام قد تغيب عن المكتب • لذلك بقى أركادى فى عمله •• بدا له الوقت طويلا طويلا لا ينتهى • حاول أن يستطلع سرا أمر العمل الذى عهد به الى شومكوف، ولكن لم يكن أحد على علم بالموضوع • كل ما كانوا يعلمونه هو أن جوليان ماستاكوفتش شاء أن يكلفه ببعض الأعمال الخاصة فعلا ' ولكن ما من أحد يعرف طبيعة هذه الأعمال التى أراد أن يكلفه بها • وفى حجرة المدخل أوقفه أحد الكتبة وقال له ان فاسيلى بتروفتش شومكوف قد جاء فى نحو الساعة الواحدة فسأل هل أركادى ايفانوفتش وجوليان ماستاكوفتش موجودان • فلما سمع أركادى هذا النبأ استأجر عربة وأسرع الى المنزل قلقا أشد القلق •

كان سومكوف هناك ، يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وهو مهتاج اهتياجا محموما • فلما ألقى نظرة على أركادى ايفانوفتش بدا عليه أنه هدأ ، أو هو أسرع يخفى اهتياجه على الأقل • وبدون أن يقول كلمة ، جلس الى مكتبه واستأنف الكتابة • كان يلوح عليه أنه يريد أن يتحاشى

أسئلة صاحبه التى أصبحت تزعجه ، اذ كان واضحا أنه اتخذ قراره وآلى على نفسه أن يحتفظ به سرا لا يفضى به الى أحد ، لأنه أصبح لا يعول على الصداقة ولا يثق بها . تأثر أركادى تأثرا شديدا . فجلس على السرير وفتح كتابا (هو الكتاب الوحيد الذى يملكه) ، دون أن يحول بصره عن فاسيا المسكين . وظل فاسيا صامتا لا ينطق بكلمة . واستمر يكتب ولا يرفع رأسه . وانقضت على ذلك عدة ساعات . أصبحت آلام أركادى لا تطاق . وأخيرا ، فى نحو الساعة الحادية عشرة ، رفع فاسيا رأسه وألقى على أركادى نظرة كابية جامدة . انتظر أركادى ، غير أن عدة دقائق انقضت وفاسيا ما يزال صامتا . صاح أركادى :

ـ فاسيا .

فلم يجب فاسيا . فعاد أركادى يردد وهو ينهض ببطء :

ـ فاسيا ! ماذا بك ؟ ماذا دهاك ؟

كذلك صاح وهو يقترب من صديقه :

أنهض فاسيا رأسه ثانية ، وحدق الى صاحبه من جديد بنظرة بلهاء جامدة .

قال أركادى لنفسه مذعورا : « هذه نوبة عصبية ! » . وأسرع يتناول أبريق الماء ، وينهض رأس فاسيا ، ويأخذ يصب على جمجمته ماء ، ويبلل صدغيه ، ويفرك يديه . فعاد فاسيا الى وعيه .

صاح أركادى باكيا ، لأنه أصبح لا يستطيع السيطرة على نفسه :

ـ فاسيا ، فاسيا ، فاسيا ، لا تدع لنفسك أن تهوى ... تذكر .. تذكر ...

وأخذه بين ذراعيه قبل أن يتم جملته . كان فى وجه فاسيا غم

وقلق وألم • فرك فاسيا جبينه ، ثم رفع يديه الى رأسه كأنه يخشى على رأسه أن ينفجر • واستطاع أخيرا أن يقول :

ـ لا أدرى ما الذى بى • أظن أننى أجهدت نفسى • على كل حال، تحسنت الآن ، تحسنت •• هيا يا أركادى •• لا تقلق •• هيا (كذلك ردد وهو يرشق صديقه بنظرة حزينه) •• لا داعى الى القلق •• فيم القلق ؟

هتف أركادى نازف القلب من الرحمة :

ـ ما هذا ؟ أأنت الذى تعزينى وتواسينى الآن ؟ ارقد يا فاسيا •• لا تعذب نفسك فيما لا طائل تحته • ستستأنف عملك بعد •

فردد فاسيا كلام صاحبه يقول :

ـ نعم نعم ، أنت على حق • نعم ، سأرقد • سأرقد • لقد قررت فى أول الأمر أن أنجز العمل دفعة واحدة ، أما الآن فقد غيرت رأيى •• نعم ••

قاده أركادى الى السرير • وقال له بصوت جازم :

ـ اسمع يا فاسيا ، يجب أن تتخذ قرارا حاسما بشأن هذه المسألة • قل لى ماذا قررت •

قال فاسيا وهو يحرك يده باشارة ضعيفة ويحول رأسه :

ـ أواه ••

ـ هيا يا فاسيا ••• يجب أن تتخذ قرارا • لا أحب أن أكون قاتلك • لا أستطيع أن أسكت بعد الآن • أنا أعلم أنك لن تنام ما لم تتخذ قرارا حاسما •

قال فاسيا بلهجة كأنها سر أو لغز :

ـ ليكن ما تريد ، ليكن ما تريد .

قال أركادى لنفسه : « أذعن » . وأردف يلح قائلا :

ـ اتبع نصيحتى يا فاسيا . تذكر ما قلته لك . غدا أنقذك ، غدا أقرر مصيرك .. ولكن فيم الكلام على المصير ؟ لقد بلغت من تخويفى يا فاسيا اننى أخذت أستعمل تعابيرك . اى مصير هذا الذى تتكلم عليه ؟ ما الأمر الا ترهات يسيرة ! أنت لا تريد أن تخسر عطف جوليان ماستاكوفتش ، أليس كذلك ؟ طيب.. لن تخسر عطفه .. سوف نرى.. أنا ...

كان يمكن أن يتكلم أركادى طويلا أيضا ، ولكن فاسيا قاطعه ، انه ينهض عن مكانه ، ويعانق أركادى ، ويقبله . ثم يقول بصوت واهن ضعيف :

ـ كفى .. كفى .. لا تتكلمن بعد الآن فى هذه الأشياء !

ثم دار الى جهة الحائط من جديد .

قال أركادى لنفسه : « يا رب ! يا رب ! ماذا به يا رب ! انه خارج عن طوره تماما . ماذا قرر أن يفعل ؟ لسوف يضيع نفسه ! » .

ونظر أركادى الى صديقه فى حسرة وأسى ؟ ثم قال لنفسه : « لعل الأمور أن تنحل اذا هو مرض . اذا مرض فقد تزول همومه . ويكون فى وسعنا أن ندبر المسألة بعد ذلك على الوجه المناسب . ولكننى أهذر.. آه .. يا رب ؟ »

وفى تلك الأثناء كان يبدو على فاسيا أنه ينام . فاغتبط أركادى من ذلك . قال لنفسه : « هذه علامة طيبة » . وقرر أن يسهر عليه طول الليل . كان نوم فاسيا مضطربا . فهو فى كل لحظة ينتفض ، ويلتفت الى الجهة الأخرى ، ويفتح عينيه . وغلبه التعب آخر الأمر ، فبدا فى نحو

الساعة الثانية من الصباح انه يغيب في نوم عميق • فنام عندئذ اركادى على كرسيه مستندا ذراعه الى المنضدة •

فرأى فيما يرى النائم حلما غريبا مقلقا • كان يتراءى له انه غير نائم ، وان فاسيا ما يزال راقدا على السرير • ولكن الامر الغريب هو أنه كان يحس ان فاسيا يمثل تمثيلا ، وانه يحاول ان يخدعه ، فها هو ذا — أى فاسيا — ينهض عن سريره صامتا ويتسلل نحو المكتب على رؤوس الاصابع مراقبا صاحبه بطرف عينه •

شعر أركادى عندئذ بألم شديد يقبض قلبه • احزنه وأشجاه أن يرى فاسيا لا يثق به بل يخفي عنه أفكاره • أراد أن يوقفه ، أراد أن يزجره ، أراد ان يرده الى السرير عنوة •• فاذا بفاسيا يطلق صرخه هى آخر زفرة من زفراته ، واذا باركادى يحمل الى السرير جثة ميتة لا انسانا حيا • تبلل جبين أركادى بالعرق ، وأخذ قلبه يخفق خفقانا شديدا حتى ليكاد ينفجر • فتح عينيه ، فاذا هو يرى فاسيا جالسا الى المنضدة أمامه يكتب •

ظن أركادى أنه ما يزال يحلم ، فنظر الى السرير ، فلم يجد عليه فاسيا • فنهض بوثبة واحدة وهو ما يزال تحت وطأة الكابوس الذى ألم به أثناء نومه • لم يتحرك فاسيا ، بل ظل يكتب • وفجأة لاحظ أركادى ، مذعورا ، أن صاحبه يجرى على الورق ريشة بغير حبر ، وأنه يقلب صفحات بيضاء مسرعا في ملء الصفحات اسراعا رهيبا ، كأن هذا خير وسيلة لانجاز العمل الذى يجب عليه أن ينجزه • قال أركادى ايفانوفتش لنفسه وهو يرتعش : « لا •• ليس هذا الا نوبة عصبية • • » •

هتف يقول وهو يمسك صديقه عن كتفه :

— فاسيا ، فاسيا ، أجبنى !

ولكن فاسيا ظل صامتا لا يتكلم ، وظل يرسم على الورق خطوطا لا ترى ، بريشة من غير حبر .

قال دون أن يرفع بصره :

— أخيرا استطعت أن أعجّل كتابتي .

فأمسك أركادي يده ، وانتزع منه الريشة .

أطلق فاسيا أنة ضعيفة . وتهاوت ذراعاه . ورفع عينيه صوب أركادي . وحرّك جبينه بحركة حزينة يائسة كأنه يحاول أن يزيح ثقلا ضخما يسحق كيانه كله . ثم خفض رأسه ببطء ، شارد الذهن .

صاح أركادي :

— فاسيا ! فاسيا !

انقضت لحظات قبل أن ينظر اليه فاسيا . كانت عيناه الزرقاوان تفيضان دموعا ، وكان وجهه الحلو يعبر عن عذاب لا يغالب ... وكان يتمتم ببعض كلام .

سأله أركادي وهو يميل عليه :

— ماذا ؟ ماذا ؟

فهمس فاسيا يقول :

— لماذا يحقدون عليّ ؟ ماذا صنعت بهم ؟

صاح أركادي وهو يعقف ذراعيه بحركة يائسة :

— ما بك يا فاسيا ؟ مم تخشى ؟

قال فاسيا وهو يحدق الى عيني صديقه :

— لماذا يريدون أن يجندوني ؟ لماذا ؟ ما هي جريمتي ؟

ـ انتصب شعر أركادى على رأسه . لم يشأ أن يصدق أذنيه . ظل مائلا على صديقه وقد استبد به يأس رهيب شديد .

ثم ثاب الى رشده بعد دقيقة فقال لنفسه : « ليس هذا الا عرضيا طارئا ثم ينقضى .. » . قال لنفسه ذلك وقد اصفر وجهه وارتجفت شفتاه . وأسرع يرتدى ثيابه كالمحموم ، لأنه يريد أن يركض باحثا عن طبيب . ناداه فاسيا فجأة . فهرع اليه ، وقبله قبلة أم يريدون أن ينتزعوا منها ابنها ...

ـ أركادى .. أركادى .. أرجوك خاصة أن لا تبلغ أحدا .. هل تفهمنى ؟ ان الذنب ذنبى .. فيجب أن أتحمل نتائجه وحدى .

ـ هيا يا فاسيا ، هيا ، ثب الى رشدك ، عد الى نفسك ، ابرأ مما بك!

تنهد فاسيا ، وأخذت عبرات صامتة تسيل على خديه .

ـ لماذا نقتلها هى ؟ ماذنبها هى المسكينة ؟ .. انها خطيئتى أنا ... خطيئتى أنا !

كذلك قال فاسيا بصوت مخنوق يمزق القلب حزنا .

وصمت بضع لحظات . ثم همس يقول وهو يهز رأسه المسكين :

ـ الوداع يا حبيبتى ، الوداع يا حبيبتى !

ثاب أركادى الى نفسه ، وأراد أن يركض الى الطبيب . فلما لاحظ فاسيا حركة صاحبه قال :

ـ هيا بنا .. لقد آن الأوان .. هيا بنا يا صاحبى .. أنا مستعد . اصحبنى .

ثم لم يقل شيئا ، بل ألقى على أركادى نظرة حزينة مرتابة .

قال أركادى يكرر فاقدا صوابه ، وهو يتناول قبعته ليمضي باحثا عن الطبيب :

ـ فاسيا •• لا تتبعنى •• أرجوك •• أتوسل اليك •• انتظرنى هنا •• سأعود حالا •

فلم يلبث فاسيا أن قعد • كان يبدو وديعا طيعا ، ولكن قرارا يائسا كان يسطع فى نظرته • عاد أركادى أدراجه ، فأخذ الموسى التى كانت مسلولة على المنضدة ، وألقى نظرة أخيرة على صديقه المسكين ، ثم أسرع بالخروج راكضا •

كانت الساعة قريبة من الثامنة • وكان ضوء النهار قد أخذ ينير الغرفة منذ وقت •

لم يجد أركادى أحدا • طاف المدينة ساعة بكاملها ، ولكن جميع الأطباء الذين عرف عناوينهم من البوابين الذين يسألهم كانوا قد خرجوا، بعضهم الى دوائرهم ، وبعضهم الى أعمالهم • غير أن واحدا من الأطباء كان قد أخذ يستقبل مرضاه • سأل الطبيب خادمه طويلا عن نيفيدفتش : من أرسله ولأى غرض جاء ، حتى لقد أراد أن يوصف له هذا الزائر المبكر • ثم صرح أخيرا بأن أعماله كثيرة ، فلا يستطيع الذهاب الى المريض، وبأن المرضى الذين هم من هذا القبيل يجب نقلهم الى المستشفى.

فحزن أركادى أشد الحزن ، لأنه لم يكن يتوقع حلا كهذا الحل ، فاستغنى عن الطب والأطباء ، واندفع راجعا الى المنزل ، يرتجف خوفا على فاسيا ، ودخل البيت راكضا • كانت مافرا تكسر حطبا لاشعال المدفأة كأن شيئا لم يحدث • فلما صار أركادى فى الغرفة لم يجد فاسيا • فان فاسيا كان قد خرج •

تساءل أركادى متجمدا من الذعر : « أين هو المسكين ؟ الى أين

يمكن أن يكون قد ذهب ؟ » • وأخذ يسأل مافرا ، لكن المرأة الطيبة لا تعلم شيئا ، بل انها لم تسمع خطواته حين خرج • هرع نيفيدفتش يذهب الى جماعة كولومنا • الله يعلم لماذا خطر بباله أنه قد يجد فاسيا هناك •

وصل اليهم فى نحو الساعة التاسعة والنصف • وكانوا جاهلين بكل شيء • فأخذ أركادى يسألهم هل فاسيا عندهم ، وقد لاح عليه التردد والهلع •

كادت العجوز تتهاوى ، فجلست على الأريكة • وأخذت ليزا تسائله مرتجفة من قمة الرأس الى أخمص القدم • ولكن ماذا كان يستطيع أركادى أن يقول ؟ ها هو ذا يلفق قصة لم يشأ أحد أن يصدقها طبعا • ثم انصرف كما جاء ، تاركا أهل الدار في حزن شديد وقلق عظيم • أسرع الى مكتبه حتى لا يصل متأخرا عن الميعاد تأخرا كبيرا • وخطر على باله أثناء الطريق أن فاسيا قد يكون عند جوليان ماستاكوفتش • هذا جائز • حتى لقد فكر أركادى فى ذلك قبل أن يذهب الى كولومنا • فلما وصل بالعربة أمام منزل صاحب السعادة أراد أن يتوقف ، ولكنه سرعان ما غير رأيه وتابع طريقه • لقد قرر أن يستطلع الأمر فى المكتب أولا • فاذا لم يطلع هنالك على شيء ، عاد يمثل أمام صاحب السعادة ، ليبلغه ما حدث لفاسيا فى أقل تقدير • ذلك أنه لا بد من تقديم تقرير لأحد •

فما ان صار في حجرة المدخل حتى رأى زملاءه يحيطون ويتجمعون حوله ، وأكثرهم من رتبته ، يسألونه عما جرى لفاسيا وأبلغوه جميعا فى الوقت نفسه أن فاسيا أصبح مجنونا ، وأن قوام جنونه اعتقاده بأنه سيجند فى فرقه تأديبية من الجيش لاهماله عمله •

أجاب أركادى ايفانوفتش جميع الناس ، أو قل انه لم يجب أحدا

بعينه • فانه لم يكن يريد الا شيئا واحدا هو أن يدخل المكاتب • فلما طاف بمختلف الدوائر عرف أن فاسيا موجود عند جوليان ماستاكوفتش، وأن كثيرا من الموظفين هناك ، وأن اسبر ايفانوفتش قد ذهب الى هناك أيضا • وسأله واحد من كبار الموظفين الى أين هو ذاهب وماذا يريد ، فنطق ببضع كلمات ذاكرا اسم فاسيا ، واتجه رأسا الى غرفة الرئيس الكبير • كان صوت جوليان ماستاكوفتش يصل الى سمعه • سأله أحدهم أمام الباب :

ــ الى أين أنت ذاهب ؟

وانه يتهيأ لأن يرجع القهقرى ، اذا هو يلمح فاسيا المسكين من خلال الباب المشقوق ؛ فلا يسعه الا أن يدفع المصراع ، فيتسلل الى الغرفة بغير قليل من العناء • كان جو مضطرب يسيطر على الغرفة : ان جوليان ماستاكوفتش يبدو منزعجا أشد الانزعاج ، يحيط به جميع أصحاب الرتب العالية من الموظفين ، وهم جميعا يتناقشون ثم لا يصلون الى اتخاذ قرار • وكان فاسيا منتحيا جانبا • انقبض صدر أركادى حين رآه على هذا الحال • كان فاسيا أبيض الوجه من فرط الشحوب ، منتصب القامة رافع الرأس مشدود الساقين ضاما ذراعيه الى الفخذين ، تماما كما يفعل المجندون أمام رئيسهم • وكان شاخصا ببصره الى عيني جوليان ماستاكوفتش • وسرعان ما لوحظ وجود نيفيدفتش • فاذا بواحد يجهل أن الصديقين يسكنان معا ، يقترب من صاحب السعادة فيلفت نظره اليه • فاقتيد أركادى الى الرئيس • وفيما كان أركادى يتهيأ للاجابه على الأسئلة التي يطرحها عليه جوليان ماستاكوفتش ، نظر الى وجهه فلاحظ أنه يعبر عن تأثر وعطف صادق • فاذا هو يشعر بقشعريرة تسرى فى جسمه ، ثم اذا يأخذ يبكى منتحبا كطفل • بل لقد فعل أكثر من ذلك : وثب نحو الرئيس الكبير ، فتناول يده وحملها الى شفتيه يقبلها ويغرقها بالدموع • فتخطر

جوليان ماستاكوفتش نفسه ان يسحب يده بسرعة ، وأن يجرى حركة خفية ، ويقول : « هيا يا عزيزى هيا .. أرى أن لك قلبا طيبا . » . كان أركادى ينتحب ويرشق الحضور بنظرات متوسلة ضارعة . كان يبدو له أنهم جميعا كاخوة لصديقه المسكين فاسيا ، وأنهم جميعا متألمون لحاله ، حزانى عليه .

سأله جوليان ماستاكوفتش قائلا :

ـ ولكن كيف حدث له هذا ؟ لماذا أصبح مجنونا ؟

فدمدم أركادى يقول :

ـ اء .. اعترافا بالجميل .

ثم لم يستطع أن يزيد على ذلك شيئا .

دهش جميع الحضور حين سمعوا هذا الجواب ، ووجدوا أنه أمر غريب بل عجيب أن يفقد انسان عقله اعترافا بالجميل . وشرح أركادى القضية كما استطاع .

قال جوليان ماستاكوفتش أخيرا :

ـ مسكين ... مع أن الأمر الذى عهدت به اليه لم يكن لا هاما ولا مستعجلا ! هذا انسان ضاع فى سبيل لا شىء ... طيب .. خذوه .

واتجه جوليان ماستاكوفتش بالكلام بعد ذلك الى أركادى فألقى عليه بعض الأسئلة .

قال مشيرا الى فاسيا :

ـ هو يرجو أن لا يذكر من الأمر شىء لاحدى الفتيات ، فهل هى خطيبته ؟

فقدم أركادى بعض الايضاحات. وكان فاسيا أثناء ذلك يبدو فريسة

فكرة تحاصر ذهنه • كان كمن يبذل جهدا كبيرا من أجل أن يتـذكر شيئا خطير الشأن ، بل لا بد منه ولا غنى عنه في هذه اللحظة • وكان في بعض الأحيان يطوف ببصره على الحضور كأنه يأمل أن يسعفه أحـدهم فيذكره بما كان يحاول أن ينذكره • وتوقفت نظراته على أركادى • فاذا بشعاع من أمل ينير وجهه فجأة • واذا هو يتقدم الى الأمام خطوة بقدمه اليسرى ، ثم يسير بضع خطوات سيرا عسكريا ، لا يفوته حتى أن يقرع الأرض بكعب قدمه اليمنى كما يفعل الجنـــود حين يقتربون من ضابط داهم • فأخذ الجمع ينتظر ما سيعقب ذلك • قال فاسيا بصوت متقطع :

ــ يا صاحب السعادة ، ان بى عاهة جسمية ، فأنا ضعيف وقصـير القامة ولا أصلح للخدمة العسكرية •

فشعر جميع من فى الغرفة بانقباض فى قلوبهم ، حتى أن جوليان ماستاكوفتش نفسه لم يملك أن يحبس دمعة سالت من عينيه رغم صلابة طبعه وقوة ارادته • قال وهو يشير بيده :

ــ خذوه ••

قال فاسيا بصوت خافت :

ــ الى الجبهة •••

ثم إستدار الى الوراء يسرة • وخرج من الغرفة •

أسرع جميـع من يهمهم مصيره يجـرون وراءه • وتبع أركادى الآخرين • أجلس فاسيا فى قاعة الانتظار ، وأخذ المختصون يعدون أمرا نقبوله فى المستشفى ، ويسألون عن العربة التى ستحمله اليه •

ان فاسيا صامت لا يتكلم • انه يبدو مشغول البال الى أقصى حد • وهو يحيى جميع من يعرفهم بانحناءة يسيرة كأنه يودعهم ، وينظر الى

الباب فى كل لحظة منتظرا أن يقال له : آن أوان الانصراف • ان حلقة ضيقة من الناس تحيط به • وهم جميعا يهزون رءوسهم حسرة ، ويرثون لحاله ، ويحزنون لما آل اليه ؟ وما أكثر الذين تأثروا أشد التأثر لقصته التى شاعت فى المكتب كله فجأة •• فبعضهم يناقش الأمر ، وبعضهم يبخ فاسيا ويعبر عن أساه • قالوا انه كان فتى هادئا متواضعا يعد بمستقبل مشرق • وقالوا انه كان يحرص على الاستزادة من العلم وكان يعمل جاهدا فى سبيل استكمال ثقافته • وقال أحدهم : « انه بوسائله وحدها انما استطاع أن يخرج من ظرف وضيع جدا • » • وأشاروا ، بكثير من الحنان ، الى العطف الذى كان يحمله له صاحب السعادة • وأخذ بعضهم يشرح لماذا تحاصر ذهن فاسيا فكرة زجه فى الجيش عقابا له على عدم انجازه عمله • قالوا ان الفتى ينتمى فى أصله الى طبقة الأقنان ، وان الفضل فى وصوله الى الحصول على رتبة موظف انما يرجع الى جوليان ماستاكوفتش وحده • ذلك أن جوليان ماستاكوفتش قد رأى فيه علائم موهبة حقيقية ، كما رأى فيه طواعية كاملة ، وأدبا جما ••• الخلاصة أنهم تكلموا كثيرا وتناقشوا طويلا • وكان من أكثر الناس تأثرا رجل طيب قصير القامة جدا ، أقصر كثيرا من متوسط طول الرجال • انه أحد زملاء فاسيا ؟ وما هو الآن فتى فى ريعان الشباب • فلعله بلغ الثلاثين من عمره • كان شاحب الوجه كميت • كانت أعضاؤه جميعها تختلج ، وكان يبتسم ابتسامة غريبة ••• ربما لأن أى حادث رهيب أو أى أمر فاضح يمكن أن يملأ قلوب شهوده خوفا شديداً ولذة عجيبة فى آن واحد • كان الرجل القصير يركض بين الجماعة التى تزدحم حول فاسيا من أقصاها الى أقصاها ، وكان لقصره ينتصب على رءوس الأصابع ، متشبثا بزر هذا أو ذاك من زملائه (الذين كان يحق له أن يقاربهم) ؟ وما ينفك يردد أنه يعرف كيف وقع ما وقع ، غير أن الأمر معقد ، ولا يمكن ترك الأمور على ما هى عليه •

وانتصب على رءوس أصابعه مرة أخرى فهمس فى أذن أحدهم ببعض الكلام ، ثم هز رأسه عدة مرات ، ومضى يهرول الى مكان آخر .

وانتهى أخيرا كل شيء : جاء الحارس والمرض . فاقتربا من فاسيا، وقالا له ان أوان الانصراف قد آن . فنهض فاسيا ببطء ، واضطرب بعض الاضطراب ، ومضى يتبعهما ناظرا حوله . كان يبحث عن أحد . هتف أركادى باكيا ناشجا : « فاسيا ، فاسيا ! » . فتوقف فاسيا ، واستطاع أركادى أن يشق لنفسه طريقا الى صاحبه . فتعانق الصديقان آخر عناق ... كان منظرا محزنا يمزق القلب . أية نازلة وهمية كانت تسيل عبراتهما ؟ لماذا كان يبكيان ؟ أين هى تلك النازله ؟ لماذا لم يستطيعا أن يتفاهما ؟

قال فاسيا لصاحبه وهو يدس فى يده ورقة مطوية :

ـ خذ .. خذ هذا .. خذ هذا.. احتفظ لى به . والا أخذوه منى. جئنى به بعد . جئنى به . احتفظ لى به .

ولم يستطع فاسيا أن يكمل كلامه . فقد نودى . فهبط السلم مسرعا وهو يحيى الناس ويحنى رأسه . ان ألما قاتلا كان يرتسم فى وجهه . ووُضع فى العربة أخيرا ، وسارت العربة .

فض أركادى الورقة على عجل . انها الخصلة السوداء من شعر ليزا ، التى كان يحملها فاسيا دائما معه . انبجست دموع مرة أخرى من عينى أركادى ، وتمتم يقول : « مسكينة أنت يا ليزا » .

فلما انصرف الموظفون ذهب أركادى الى جماعة كولومنا . لا داعى الى وصف ما جرى هنالك ! حتى الصغير بتيا الذى لم يفهم كثيرا ما وقع لفاسيا الطيب انزوى فى ركن وغطى وجهه بيديه وطفق يبكى بكاء يمزق القلب .

كان الليل قد أخذ يهبط حين سار أركادى فى طريق العودة الى البيت . فلما وصل الى ضفة نهر نيفا ، توقف لحظة ، فحدق الى الأفق البعيد عند منحدر النهر . هنالك ، كان الهواء الكثيف والضباب البارد الكابى يلتهبان فجأة بأواخر الشعل من أول الغروب . كان الليل يهبط على المدينة . وكانت صفحة الماء المتجلدة المحدودبة المخددة بحلقات من ثلج قاس تعكس على كل امتدادها الواسع أواخر أشعة الشمس الغاربة تراقصا متلألئا على صفائح الجليد التى لا يحصى عددها .

كانت درجة الحرارة قد هبطت الى العشرين تحت الصفر ... ان بخارا أبيض يحيط بالخيول المتوقفة عجزا عن متابعة السير ، وبالناس الماشين بخطى سريعة . والهواء الكثيف يرجّع أيسر صوت . وفوق سطوح جميع المنازل المصطفة على الأرصفة تتصاعد فى السماء الباردة أعمدة عالية من دخان ، يختلط بعضها ببعض ، ثم يفترق بعضها عن بعض . لكأن مبانى أخرى كانت تنبثق فى الجو فتشكل مدينة جديدة فوق المدينة القديمة . كان العالم ـ بجميع ساكنيه ، الأقوياء منهم والضعفاء ، وبجميع مساكنه ، أكواخ الفقراء منها وقصور العظماء على هذه الأرض ـ كان هذا العالم كله يبدو فى تلك الساعة من المساء أشبه بسراب عجيب ، أشبه بحلم مصيره الى الزوال هو أيضا ، مصيره الى أن يتبخر دخانا فى السماء الزرقاء الداكنة .

وهذه فكرة غريبة تنبثق فجأة فى ذهن رفيق المسكين فاسيا ، فى ذهن الرفيق الذى أصبح الآن وحيدا . ارتعش أركادى . كأن دما أشد حرارة يتدفق الآن الى قلبه ، تحركه عاطفة قوية لم يعرفها قبل اليوم . لقد بدا له أنه يفهم الآن كل ذلك القلق الذى دفع فاسيا الى الجنون ، ويدرك السبب الذى جعل فاسيا يفقد عقله من عجزه عن احتمال سعادته .

اختلجت شفتا أركادى ، وسطع لهيب فى عينيه .. واصفر وجهه ، وشعر أنه عرف فجأة ، فى هذه اللحظة نفسها ، حقيقة جديدة .

أصبح أركادى حزين النفس متجهم الطبع . فقد مرحه القديم . كره منزله ، فاتخذ لنفسه سكنا آخر . ولم يطق أن يذهب بعدئذ الى جماعة كولومنا . وبعد سنتين صادف ليزانكا فى الكنيسة . كانت الفتاة قد تزوجت . هذه مرضعة تسير وراءها حاملة على ذراعيها طفلا صغيرا . حياها وحيته ، ولكنهما تجنبا الحديث عن الماضى . قالت ليزا انها سعيدة ولله الحمد ، وأن العسر قد زاولها ، وان زوجها رجل طيب شهم ، وانه يحبها .. ولكن عينيها فاضتا بالدموع فجأة قبل أن تكمل جملتها ، وتحطم صوتها ، فحولت وجهها ومالت على عمود من أعمدة الكنيسة تخفى ألمها ..

حواش

الفقراء

صفحة

٥٥ ــ النص مستمد من قصة « الميت الحى » (١٨٣٨) التى كتبها الأمير فلاديمير ف أودويفسكى ، الكاتب الرومانسى ٠

٥٦ ــ « فرفارا » هو النطق الروسى لاسم بربارا ٠ ويصغره الروس على سبيل التودد قائلين : فاريا ، فارنكا ٠ و «ماتوشكا» كلمة روسية معناها « الأم الصغيرة » ، تخاطب بها الفتيات تحببا وتوددا ٠

٥٨ ــ محاكاة مضحكة للبيت الأول من قصيدة لرمونتوف : « ليتنى كنت طائرا ، ليتنى كنت غرابا من غربان الفيافى » ٠

٥٩ ــ « البارون برامبئوس » ، هو الاسم الأدبى المستعار للأستاذ أوزيب سنكوفسكى ، المستشرق البولونى الأصل ، الذى كان اديبا خصبا ، وكان يصدر مجلة « غرفة القراءة » ٠

٦٢ ــ « دييفوشكين » اسم مشتق من كلمة دييفوشكا ومعناها الفتاة ٠

٦٥ ــ « دوبروزيبولوفا » اسم منحوت من كلمتى « دوبروى » و «زيلو» ومعناهما « القرية الجميلة » ؛ ويمكن أن نرى فى ذلك اشارة الى الطفولة السعيدة فى الريف ٠

٧٤ ــ « تبريز » و « فالدونى » ، هما من أبطال رواية نيكولا ليونار (١٧٤٤ ــ ١٧٩٣) التى ترجمت الى الروسية سنة ١٨٠٤ ٠

٧٧ ــ « بيكوف » اسم مشتق من كلمة « بيك » ومعناها النور ، اشارة الى ما يتصف به طبع السيد بيكوف من قسوة وشراسة ٠

صفحة

٧٨ ـ « فولكوفو » مقبرة فقيرة تقع فى جنوب سان بطرسبرج ٠

٩٠ ـ « بوكروفسكى » اسم مشتق من اسم عيد « بوكروف » الذى يحتفل به فى أول تشرين الأول (آكتوبر) ٠ ان هذه الاسماء نموذجية عند أتباع الكنيسة الارثوذكسية ٠

٩٧ ـ « باتنكا » ، مصغر بيتر (بطرس) ، والتصغير للتحبب ٠

١١٠ ـ ظهرت الطبعة الأولى من « أعمال بوشكين الكاملة » بعد وفاته فى أحد عشر مجلدا (١٨٣٨ ـ ١٨٤١) ٠

١٣٠ ـ « راتازايف » اسم مشتق من كلمة راتازى ، ومعناها المتسكع ، فكذلك سخر دوستويفسكى من الكاتب الصغير باطلاق هذا الاسم عليه ٠

١٣٦ ـ ارماك تيموفيفتش ، قائد قوزاق الدون الذى احتل سيبيريا الغربية سنة ١٥٨٣ ٠

١٤٠ ـ ترجمت روايات بول دوكوك (١٧٩٤ ـ ١٨٧١) كثيرا وقرئت كثيرا فى روسيا ٠ وكان الناقد الشهير بيلنسكى يقدر اتجاهها الواقعى ٠

١٤٢ ـ « أقاصيص بيلكين » ، تأليف بوشكين ، ظهرت سنة ١٨٣١ ٠

١٤٩ ـ استاذ الفلسفة جالتش ، نشر بسان بطرسبرج سنة ١٨٣٤ كتابا جامعا بعنوان : « صورة الانسان ، دراسة تستبطن النفس البشرية وتنفع قراءتها جميع الطبقات المستنيرة » ٠

١٤٩ ـ « الصبى الذى يلعب بالأجراس الصغيرة » ، بهذا العنوان صدرت بموسكو سنة ١٨١٠ الرواية العاطفية التى كتبها دكرى دومينيل (١٧٦١ ـ ١٨١٩) ، وكان عنوانها الأصلى « فكتور أو صبى الغابة » ، وقد نالت هذه الرواية فى حينها نجاحا كبيرا ، وأعيد طبعها بالروسية مرارا ٠

١٤٩ ـ « طيور ايبيكوس » ، قصيرة لشيللر ، ترجمها الى الروسية الشاعر ف٠ جوكوفسكى سنة ١٨١٣ ٠

صفحة

١٤٩ ــ « ناظر المحطة » قصة من « حكايات بيلكين » للشاعر الروسي الكبير بوشكين • وهي تروى قصة مؤثرة عن ناظر المحطة المسكين ، صمصون فيرين ، الذي اختطف ضابط غني بنته •

١٥١ ــ في شارع نفسكي وعلى أرصفة النهر كانت تقوم الأحياء الارستقراطية بالعاصمة •

١٥٢ ــ « المعطف » قصة جوجول الشهيرة ، ظهرت سنة ١٨٤٢

١٥٥ ــ « الجنرال » هو رئيس المكتب : كان الموظفون المدنيون الذين ينتمون الى الطبقات العليا يحق لهم أن يخاطبوا بلقب صاحب المعالي أو صاحب السعادة ، وكانوا يشبهون بالجنرالات . وكانوا يسمون أحيانا بالجنرالات المدنيين •

١٩٢ ــ « لوفلاس » اسم الشاب الذي يغوي الفتيات في الرواية العاطفية « كلاريسا هارلو » (١٨٤٧) التي كتبها ريشارد مون • وقد ترجمت هذه الرواية الى الروسية وقرئت كثيرا

٢٠٥ ــ « فونتانكا » قناة متفرعة من نهر نيفا في وسط العاصمة •

٢٠٦ ــ « جوروخوفايا » ، شارع كبير في وسط سان بطرسبرج •

٢٢٧ ــ أغلب الظن أنها « نحلة الشمال » ، الجريدة السياسية الأدبية التي كان يصدرها الكاتب الرجعي فاداي بولفارين ، البولوني الأصل •

المثل

٢٥٧ ــ «جوليادكين» اسم مشتق من اسم قبيلة جولياد التي ورد ذكرها في التاريخ الروسي في القرن الحادي عشر ، على أن الصلة التي بين هذا الاسم وبين كلمة « جون » (أي الفقير أو العريان) يمكن أن تكون اشارة الى فقر شخصية الرواية •

٢٦٦ « روتنسبتس » مقلوب كلمة سبتسروتن الألمانية ومعناها « الأسواط المدببة » وهي ذلك القصاص الرهيب الذين استورده الحش

صفحة

الروسى من ألمانيا فى القرن التامن عشر · ان فى تسمية الطبيب بهذا الاسم اشارة الى شراسة طبعه ·

٣٠٧ ـ الكونت جوزيف دو فيليل (١٧٧٣ ـ ١٨٥٤) ، هو رئيس الوزراء فى عهد « الاصلاح » من عام ١٨٢١ الى عام ١٨٢٨ ·

٣٠٧ ـ الوزير مارزيميريس ـ هو شخصية « قصة مغامرات ميلورد جورج مع المركيزة فردريكا براندنبورج والملكة تيريز دوساردينى » ، والقصة من تأليف م كوماروف ، وقد نشرت سنة ١٧٨٢ وراجت رواجا كبيرا (ظهرت الطبعة التاسعة منها سنة ١٨٣٩) ·

٣٥٠ ـ آ · ف · سوفوروف (١٧٢٩ ـ ١٨٠٠) جنرال روسى عرف بانتصاراته وغرائب سلوكه ·

٣٦٠ ـ « آخر أيام بومبئى » ، لوحة للرسام شارل برولوف ، وهو روسى من أصل فرنسى · واللوحة صورة مؤثرة رسمت فى ايطاليا ونقلت الى سان بطرسبرج وعرضت بها سنة ١٨٣٤ ؛ وقد حظى هذا العرض باعجاب شديد ، وكتبت فى اللوحة مقالات تقريظ كثيرة ، من بينها مقالة كتبها جوجول ·

٣٨٣ ـ جرشكا (جريجورى) أوتربيف ، هو « ديمتريوس المزيف » الذى استولى على العرش سنة ١٦٠٥ بدعوى انه ابن حنا الرهيب ، وقتل سنة ١٦٠٦ ·

٤٣٦ ـ ترجمة روسية لكتاب لوفى دو جوفرى المعنون « مغامرات الفارس دو فوبلاس العاطفية » ، وكان قد ظهر بين سنتى ١٧٩٢ و ١٧٩٦ فى أحد عشر جزءا صغيرا ·

٤٦١ ـ « رسول شرطة سان بطرسبرج » ، جريدة تأسست سنة ١٨٣٩ ، وأصبحت تصدر يومية منذ سنة ١٨٤٤ ·

٤٧٣ ـ المهاجرة فالبالا ، مديرة مدرسة داخلية للبنات ، والاسم قد اخترعه بوشكين ساخرا فى قصيدته الهجائية «الكونت نولين»·

صفحة

قلب ضعيف

٥١٦ – ليزا ، ليزانكا ، هما تصغير اسم ليزافتا (اليزابت) .

٥١٧ – جوليان ماستاكوفتش هو رئيس المكتب الذى يعمل فيه فاسيا. وقد اشتق دوستويفسكى اسم ماستاكوفتش من كلمة ماستاك الروسية ومعناها الرجل الحاذق الماكر ، اشارة الى طبع هذه الشخصية .

٥٢٤ – بطرسبرجسكايا ستورونا » ، حى فى شمال نهر نيفا .

٥٢٤ – « كولومنا » ، ضاحية فى الجنوب الشرقى من العاصمة .

٥٢٥ – « مانون ليسكو » ، بطلة الرواية الشهيرة التى كتبها الكاهن بريفو ، وقد ظهرت سنة ١٧٣١ ، وترجمت الى الروسية وأصابت نجاحا كبيرا .

فهرس

الموضوع **الصفحة**

حياة دستويفسكى ٧

تقديم ٤٧

الفقراء ٥٣

المثل :

الفصل الأول ٢٥٧

الفصل الثانى ٢٦٩

الفصل الثالث ٢٨٧

الفصل الرابع ٣٠١

الفصل الخامس ٣٢١

الفصل السادس ٣٣٣

الفصل السابع ٣٥٣

الفصل الثامن ٣٦٧

الفصل التاسع ٣٨٧

الموضوع	الصفحة
الفصل العاشر	٤١٥
الفصل الحادى عشر	٤٤٧
الفصل الثانى عشر	٤٦٥
الفصل الثالث عشر	٤٨٥
قلب ضعيف	٥٠٧
حواش	٥٨١

أعمال دوستويفسكى الأدبية الكاملة

المجلد ١

الفقراء
المثل
قلب ضعيف

المجلد ٢

نيتوتشكا نزفانوفنا
الليالى البيضاء
بروخارتشين
الجارة
المهرج
السارق الشريف
البطل الصغير
قصة فى تسع رسائل
شجرة عيد الميلاد والزواج
زوجة آخر ورجل تحت السرير

المجلد ٣

قرية ستيباتشيكوفو وسكانها
حلم العم

المجلد ٤

مذلون مهانون

المجلد ٥

ذكريات من منزل الأموات

المجلد ٦

فى قبوى
قصة أليمه
ذكريات صيف عن مشاعر شتاء
التمساح

المجلد ٧

المقامر
الزوج الأبدى

المجلد ٨

الجريمة والعقاب ١

المجلد ٩

الجريمة والعقاب ٢

المجلد ١٠

الأهبل ١

المجلد ١١

الأهبل ٢

المجلد ١٢

الجن ١

المجلد ١٣

الجن ٢

المجلد ١٤

المراهق ١

المجلد ١٥

المراهق ٢

المجلد ١٦

الأخوة كارامازوف ١

المجلد ١٧

الأخوة كارامازوف ٢

المجلد ١٨

الأخوة كارامازوف ٣

المجلد ١٩

من « يوميات كاتب »
رسائل

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

" هو عملاق ما فى ذلك ريب . ليس بين
المحدثين أحد غيره يمكن أن يقرن بشكسبير
جوهراً ومواهب . لعله ، بعد إسخيل وشكسبير ،
الإنسان الوحيد الذى نزل إلى القاع من القلوب
والأجسام أعمق نزول وأعنف نزول "

ليون دوديه

" إن دوستويفسكى هو الوحيد الذى علمنى شيئاً
عن النفس الإنسانية "

نيتشه

Bibliotheca Alexandrina
0388267

وزارة الثقافة
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربى للطباعة والنشر

١٩٦٧